# فاسيلى شوكشين

## العناقيد الحمراء

وقصص أخرى

ترجمة خيرى الضامن

دار «رادوغا»
موسكو

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتى

**Василий Шукшин**
КАЛИНА КРАСНАЯ
Повесть и рассказы
*На арабском языке*

Василий Шукшин
Калина красная
Повесть и рассказы
на арабском языке
Перевод сделан по изданию:
Василий Шукшин. "Избранные произведения". В 2-х тт. изд. "Молодая гвардия", М., 1975, т. 1

© الترجمة الى اللغة العربية والاعداد والصور دار «رادوغا» ، ١٩٨٤

طبع فى الاتحاد السوفييتى

III $\frac{4702010200-275}{031(01)-84}$ 197-83

# الريفيون

«أليست فكرة جيدة يا ماما ؟ شدى حيلك وتعالى الينا لتشاهدى موسكو ، وعلى العموم . . . سابعث اليك اجرة الطريق . الافضل ان تركبى الطائرة ، فذلك ارخص عموما ، وابعثى لى برقية فى الحال كى اعرف متى استقبلك . والاهم هو ان لا تنهبى» .

قرأت العجوز مالانيا ذلك ولوت شفتيها المتحشفين حتى انكمشتا وبرزتا الى امام وراحت تفكر .

— بافل يدعونى اليه — قالت لشوركا وتطلعت اليه من فوق نظاراتها . (شوركا حفيد العجوز مالانيا من ابنتها التى اخفقت فى حياتها العائلية (تزوجت للمرة الثالثة) فاقنعتها العجوز بان تترك شوركا عندها مؤقتا . فهى تحب حفيدها ، ولكنها تعامله بصرامة وتشدد) .

كان شوركا يحضر واجبه المدرسى البيتى على الطاولة . هز كتفيه ردا على كلمات العجوز وكأنه يقول — اذهبى ما دام يدعوك . وسألته العجوز بلهجة صارمة :

— متى تبدأ عطلتكم ؟

انتبه شوركا مهتما :

— اى عطلة ؟ الشتوية ؟

— طبعا . فانا لا اعنى الصيفية .

— فى الاول من كانون الثانى . لماذا تسألين ؟

لوت العجوز شفتيها من جديد وراحت تفكر .

بينما انكمش قلب شوركا بفرحة وقلق . فكرر :

— لماذا تسألين ؟

— لا شىء . استمر فى تحضير دروسك — خبأت العجوز الرسالة فى جيب مئزرها وارتدت معطفها وخرجت من المنزل .

فهرع شوركا الى النافذة ليرى الى اين هى ذاهبة .

عند باب الحوش صادفت العجوز جارتها فاخذت تحدثها بصوت عال :

— بافل يدعونى لزيارته فى موسكو . ولا ادرى ماذا افعل . فانا متحيرة تماما . وهو يقول «تعالى ، يا ماما ، فانا مشتاق اليك كثيرا» .

اجابت الجارة بكلام لم يسمعه شوركا فقالت لها جدته بصوت عال :

— شىء واضح . يمكن بالطبع . فانا لم ار احفادى بعد ولا مرة ، ما

عدا الصور . ولكن ذلك مخيف جدا . . .

وتوقفت قربهما امرأتان اخريان وانضمت اليهن ثالثة ورابعة . . . وسرعان ما تحلق جمهور كبير حول العجوز مالانيا فكانت تبدأ حديثها مرارا وتكرارا :

— بافل يدعوني لزيارته في موسكو . ولا ادري ماذا افعل . . .

وكان واضحا ان الجميع ينصحونها بالسفر .

دس شوركا يديه في جيبه واخذ يجوب الغرفة . وانطبعت الاحلام والتأملات على وجهه مثلما على وجه جدته . وهو على العموم يشبه جدته شبها كبيرا ، فهو نحيف مثلها بوجنتين ناتئتين وبنفس العينين الصغيرتين القطينتين . الا ان طباعهما غير متماثلة اطلاقا . فالعجوز نشيطة عصبية مصباح وتواقة الى المعرفة . اما شوركا فهو تواق الى المعرفة ايضا ، ولكنه خجول الى حد الحماقة ومتواضع مكسور الخاطر .

في المساء حررا برقية الى موسكو . كانت العجوز تملي وشوركا يكتب .

— ولدي العزيز بافل ، ما دمت تريد ان اجيء اليكم فانا استطيع بالطبع ، مع ان السفر في مثل عمري . . .

— يا سلام ! — قال شوركا — هل تكتب البرقيات بهذه الصيغة ؟

— كيف تكتب باعتقادك اذن ؟

— هكذا : سنصل . نقطة . او هكذا : سنصل بعد رأس السنة . نقطة . التوقيع : ماما . وخلاص .

زعلت العجوز .

— انت في الصف السادس يا شوركا ولا عقل لك . الم يحن الوقت لتكون اذكى قليلا ؟ !

زعل شوركا هو الآخر . وقال :

— طيب . بصيغتك كم يبلغ ثمن البرقية ؟ حوالي عشرين روبلا بالعملة القديمة .

لوت العجوز شفتيها وفكرت :

— اكتب بالشكل التالي : ولدي ، تشاورت هنا مع البعض . . .

وضع شوركا القلم .

— لا استطيع ان اكتب ذلك . ما قيمة تشاورك مع البعض ؟ سوف يجعلوننا في البريد اضحوكة للآخرين .



— اكتب كما اقول لك — امرته العجوز — فهل ابخل بعشرين روبلا من اجل ابني ؟

اخذ شوركا القلم وانحنى على الورقة بعد ان اتكمش وجهه دليلا على التسامح .

— ابني العزيز بافل . تكلمت مع الجيران فنصحوني جميعا بالسفر . طبيعي ان ذلك مخيف بعض الشيء في مثل عمري . . .

— سوف يغيرون النص كله في البريد — تدخل شوركا .

— فليحاولوا ، وسأريهم . . .

— سيغيرونه بدون علمك .

— واصل الكتابة : ذلك يخيفني قليلا بالطبع ، ولكن . . . لا بأس . سنصل بعد رأس السنة . نقطة . انا وشوركا . فقد كبر الآن . لا بأس ، انه صبي مطيع . . .

فوت شوركا الكلمات التي تقول بانه صبي كبير ومطيع .

— ومعه لن اشعر بخوف شديد . الى اللقاء يا ولدي . فانا نفسي مشتاقة اليكم جدا . . .

كتب شورا «كثيرا» بدلا من «جدا» .

— اريد ان ارى اولادك على الاقل . نقطة . ماما .

— فلنحسب — قال شوركا متشفيا ، واخذ ينقر بالريشة على الكلمات وبعدها هامسا : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة . . .

وقفت العجوز وراءه وهي تنتظر .

— ثمانية وخمسون . تسعة وخمسون ، ستون ! طيب . لنضرب الستين في ثلاثين ، الحاصل الف وثمانمائة . اليس كذلك ؟ ولنقسم ذلك على مائة ، الحاصل ثمانية عشر . . . يعني ان البرقية بأكثر من عشرين روبلا بالعملة القديمة !

— اعلن شوركا منتصرا .

تلقفت العجوز البرقية وخبأتها في جيبها .

— سأذهب بنفسي الى البريد . فقد حسبت اكثر من اللازم ، يا بحر العلوم !

— اذهبي . سيحسبون لك المبلغ نفسه . وربما اخطأت انا بكوبيكات زهيدة .

. . . في حوالي الحادية عشرة جاءهم ايغور ليزونوف ، جارهم مدير

التموين فى المدرسة . فقد طلبت العجوز من عائلته ان تبعثه اليها عندما يعود من العمل . ايغور هذا قام برحلات عديدة خلال حياته وركب الطائرات كثيرا .

خلع ايغور معطفه الفرائى القصير وقبعته ومسح العرق براحتيه المخشوشنتين عن شعره الذى وخطه الشيب وجلس الى الطاولة . فاحت فى غرفة الاستقبال رائحة القش وسيور الخيل .

— أتنوين السفر بالطائرة اذن ؟

هبطت العجوز الى السرداب واحضرت خابية من النبيذ العسلى .

— نعم يا ايغور . حدثنى عن كل شىء بالتفصيل والترتيب .

— ما الذى احدثك عنه ؟ — تطلع ايغور الى العجوز وهى تصب النبيذ ، تطلع دون تعطش ، بل بنظرة فيها شىء من التساهل . — اركبى السيارة الى المدينة وهناك اركبى باصا من خط بيسك — تومسك يوصلك الى مدينة نوفوسيبيرسك وفيها يدلونك على شباك تذاكر الخطوط الجوية . ويمكنك ان تصلى الى المطار رأسا . . .

— تمهل ! لماذا تكرر : يمكنك ، يمكنك . اخبرنى بما يجب ان افعله ، وليس بما يمكننى . ولا تستعجل فى الكلام . فقد تلفظت كل ذلك فى كومة مشوشة — قدمت العجوز لايغور قدح النبيذ والقت عليه نظرة صارمة .

لمس ايغور القدح باصابعه ومسده :

— طيب . تصلين الى نوفوسيبيرسك ، وهناك اسألى حالا كيف يمكنك الوصول الى المطار . تذكر ذلك ياشوركا .

— سجل يا شوركا — أمرته العجوز .

استل شوركا ورقة خالية من الدفتر واخذ يسجل .

— بعد ذلك تصلين الى تولماتشيفو ، وهناك اسألى من جديد اين تباع تذاكر السفر الى موسكو . اشترى تذكرتين واصعدا الى طائرة تو — ١٠٤ وبعد خمس ساعات ستصلان الى عاصمة وطننا موسكو .

اسندت العجوز رأسها بقبضتها الصغيرة العجفاء وراحت تستمع الى ايغور بأسى . كان القلق يتكاثف على وجهها كلما تمادى ايغور فى تفاصيل الرحلة التى بدت له بسيطة للغاية .

— ولكن الطائرة ستحط فى سفيردلوفسك . . .

— لماذا ؟

— ذلك ضرورى . ولا احد يسألنا هناك . ستحط وخـــــلاص .



— تصور ايغور ان الوقت حان لاحتساء النبيذ — طيب . . . سفرة سعيدة !

— اشرب . هنيئا . هل يجب علينا فى سفيردلوفسك ان نطلب بأن تحط الطائرة ، ام انها تحط للجميع ؟

شرب ايغور وتنحنح بارتياح ومسح شاربيه .

— للجميع . نبيذك لذيذ يا مالانيا . كيف تعدينه ؟ حبذا لو تعلمين زوجتى . . .

صبت له العجوز قدحا آخر .

— عندما يقل بخلكم يصبح النبيذ لذيذا .

— كيف ؟ سألها ايغور دون ان يفهم .

— ضعوا فيه سكرا اكثر . فانتم تريدونه ارخص وانفس . ضعوا سكرا اكثر اثناء التخمير فيكون النبيذ لذيذا . اما تخميره بالتبغ فهو عيب وخزى .

— نعم — قال ايغور متأملا ، ورفع القدح وتطلع الى العجوز والى شوركا ثم شربه — نعم — قال من جديد — انت على حق . ولكن عندما تصلان الى نوفوسيبيرسك كونا على حذر .

— لماذا ؟

— لا شىء . . . من يدرى ماذا يمكن ان يحدث ؟ — اخرج ايغور كيس التبغ ودخن سيجارة ونفث من تحت شاربيه سحابة بيضاء هائلة — اهم شىء ، طبعا ، هو ان لا تخلطا بين شبابيك التذاكر عندما تصلان الى تولماتشيفو . والا فيحتمل ان تطيرا الى فلاديفوستوك .

ذعرت العجوز وقدمت الى ايغور القدح الثالث .

تجرعه ايغور دفعة واحدة وتنحنح واخذ يفصل فكرته :

— يصادف ان يأتى شخص الى شباك التذاكر الشرقى ويقول : «اعطنى تذكرة» دون ان يذكر وجهة السفر . ولذا تنقله الطائرة الى جهة لم يكن يقصدها . فكونا على حذر .

صبت العجوز القدح الرابع فتراخت اوصال ايغور وراح يتكلم بشغف :

— ركوب الطائرة يتطلب اعصابا قوية ! حالما تقلع الطائرة يعطونك ملبسا . . .

— ملبسا ؟

— طبعا . ويقصدون بذلك : اشغل نفسك ولا تهتم . . . وفى الحقيقة تلك هى اخطر لحظة . او انهم ، مثلا ، يقولون لك : «شد الاحزمة» — «لماذا ؟» — «لزوما» — «خا . . . لزوما . قل بصراحة : الطائرة يمكن ان

تسقط . خلاص . فلماذا يقولون : لزوما ؟» .

— يا الهى ! اعوذ بالله ! — قالت العجوز — لماذا يركبونها اذا كانت . . .

— ان كنت تخشى الذئاب فلا تدخل الغاب . — تطلع ايغور الى خابية النبيذ — الطائرات النفاثة على العموم اكثر امانا بالطبع . اما الطائرات المروحية فيمكن ان تصاب بعطب فى اية لحظة . وعند ذاك تحل . . . ثم ان المحركات المروحية تحترق اكثر من غيرها . ذات مرة ركبت الطائرة من فلاديفوستوك . . . — عدل ايغور من جلسته على الكرسى ليرتاح اكثر واشعل سيجارة اخرى ، وتطلع الى الخابية من جديد . الا ان العجوز لم تحرك ساكنا — كانت الطائرة محلقة ، فنظرت فى الكوة ورأيت المحرك يحترق . . .

— اعوذ بالله ! — هتفت العجوز .

وفغر شوركا فاه وهو يستمع اليه .

— نعم . صرخت ، طبعا ، فجاء الطيار راكضا . . . وعلى العموم لم يحدث شىء . شتمنى وقال : لماذا تثير الذعر ؟ الحريق هناك — اما انت فاجلس ولا تقلق . . . تلك هى انظمة الخطوط الجوية .

وخيل لشوركا ان ذلك غير معقول . فهو يتصور ان الطيار عندما رأى اللهيب كان يتعين عليه ان يطفئه بزيادة السرعة او يقوم بهبوط اضطرارى ، ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بشتم ايغور . شىء غريب . وواصل ايغور كلامه مخاطبا شوركا :

— الشىء الوحيد الذى لا افهمه هو لماذا لا يعطون الركاب مظلات جوية ؟

هز شوركا كتفيه فهو لم يكن يعرف بان الركاب لا يستلمون مظلات . وذلك شىء غريب ، بالطبع ، اذا كان حقيقة .

غرز ايغور عقب السيجارة فى المزهرية ونهض قليلا وصبّ لنفسه النبيذ من الخابية .

— ما الذ نبيذك ، يا مالانيا !

— لا تفرط فى الشرب ، والا ستسكر .

— انه نبيذ عالمى . . . — هز ايغور رأسه وشرب — كح — كح ! ثم ان الطائرات النفاثة خطرة ايضا . فاذا تعطب فيها شىء تسقط كالفأس الى الاسفل . وتحل النهاية فى الحال . . . فلا يبقى من الانسان عظم على عظم فيما بعد . لا يبقى منه غير ثلثمائة غرام ، له ولملابسه . — عبس ايغور وتطلع باهتمام الى الخابية . فحملتها العجوز وذهبت بها الى الدهليز . ظل ايغور جالسا برهة ثم نهض ، فتمايل بعض الشىء . وقال بصوت عال :



— على العموم لا تخافا . والافضل ان تختارا مقعدين فى طرف الطائرة بعيدا عن قمرة القيادة . اركبا بسلام . انا ذاهب . . .

سار متثاقلا نحو الباب فارتدى معطفه القصير وقبعته .

— بلغا تحياتى الى بافل . ما الذ نبيذك يا مالانيا ! نبيذ عالمى . . .

لم تكن العجوز مرتاحة للسرعة التى سكر بها ايغور قبل ان تتمكن من التحدث معه على نحو نافع .

— ضعفت ، يا ايغور .

— ذلك لانى تعبان . — رفع ايغور قشة من على ياقة معطفه — قلت للمسؤولين : لننقل القش فى الصيف فرفضوا . اما الآن ، بعد هذه العاصفة الثلجية ، فقد ضاعت كل الدروب . قضينا النهار كله اليوم فى الزحف حتى وصلنا بشق الانفس الى اقرب اكوام القش . ثم ان نبيذك . . . — هز ايغور رأسه وضحك — انا ذاهب . لا بأس . اركبا الطائرة ولا تخافا . ولكن احجزا مقعدين بعيدا عن قمرة القيادة . الى اللقاء .

— الى اللقاء . — قال شوركا .

خرج ايغور وسمعت خطواته وهو يهبط بحذر من مدرج المدخل العالى . سار فى الحوش ، ثم صر باب السياج ، وتهادى من الشارع صوت ايغور وهو ينشد بخفوت :

البحر واسع فسيح . . .

ثم صمت .

كانت العجوز تتطلع الى النافذة المعتمة بتأمل وألم . واعاد شوركا قراءة ما كتبه من حديث ايغور . فقالت العجوز :

— شىء مخيف ، يا شوركا .

— الناس يركبون الطائرات . . .

— اليس الافضل ان نسافر بالقطار ؟

— بالقطار نقضى عطلتى كلها .

— يا الهى ! — تنهدت العجوز — تعال نكتب رسالة الى بافل ، ونلغى البرقية .

استل شوركا ورقة اخرى من الدفتر وقال :

— يعنى اننا لن نركب الطائرة ، اليس كذلك ؟

— كيف نركبها اذا كانت تحدث فيها كل تلك الحوادث ؟ والعياذ بالله ! يجمعون فيما بعد ثلثمائة غرام . . .

غرق شوركا فى افكاره .

— اكتب : ولدى العزيز بافل . تشاورت هنا مع العارفين . . .

انحنى شوركا على الورقة .

— حدثونا الكثير عن كيفية ركوب هذه الطائرات . . . فقررنا انا وشوركا ان نسافر اليكم صيفا بالقطار . واضح ان بامكاننا السفر الآن ايضا ، الا ان عطلة شوركا قصيرة جدا . . .

توقف شوركا عن الكتابة لحظة ثم واصل :

«اما الآن فانا اكتب بالاصالة عن نفسى يا خالى بافل . اخاف جدتى العم ايغور ليزونوف مدبر التموين فى مدرستنا ، اذا كنت تتذكره . فقد قال ، مثلا ، انه نظر من الكوة ورأى محرك الطائرة يحترق . ولو كان ذلك حقيقة لاطفأ الطيار اللهيب بزيادة السرعة كما يجرى عادة . وانا اعتقد ان العم ايغور رأى لهيب انبوب العادم فاصابه الذعر . ارجوك ، اكتب لجدتى بان ركوب الطائرة غير مخيف ، ولا تذكر لها بانى طلبت منك ذلك . والا فلن تسافر حتى فى الصيف ، اذ يبدأ زرع الخضار والعناية بالخنازير والدجاج والوز ، وهى لن تترك هذا العمل مطلقا . فنحن لا نزال ريفيين مع ذلك . اما انا فأتشوق لرؤية موسكو . درستها فى المدرسة فى حصتى الجغرافية والتاريخ ، ولكن ذلك ، كما هو واضح لك ، يختلف عن رؤيتها بالعين . ثم ان العم ايغور قال ، مثلا ، ان ركاب الطائرات لا يستلمون مظلات جوية . اعتقد انه قال ذلك لاجل التخويف ، ولكن جدتى صدقته . ارجوك ، يا خالى بافل ، اكتب لها بهذا الخصوص حتى تخجل ، فهى تحبك حبا جما . وقل لها : كيف يجوز لك ، يا ماما ، ان تخافى من ركوب طائرة مدنية نافهة وابنك نفسه طيار وبطل الاتحاد السوفييتى وحائز على اوسمة كثيرة ؟ ! فى وقت اجتزنا فيه الحاجز الصوتى . اكتب لها بهذه الصورة وستركب الطائرة فورا . فهى تفتخر بك جدا . وهى على حق طبعا . وانا ايضا افتخر بك . ولكننى اتشوق الى رؤية موسكو . الى اللقاء . مع تحيات شوركا» .

فى تلك الاثناء كانت العجوز تملى عليه :

— . . . سنسافر عندما يقترب الخريف . فالفطر ينمو آنذاك وقد يكفى الوقت لاعداد لحم مملح ومربى التين ، ففى موسكو تشترون ذلك كله بنقود . ثم



انهم لا يعدونه بالشكل المنزلى كما اعده انا . وفى الختام ، يا ولدى ، بلغ تحياتى وتحيات شوركا الى زوجتك واطفالك . هذا كل ما عندى . سجلته ؟

— نعم .

اخذت العجوز الورقة ودستها فى ظرف كتبت عليه بخط يدها :

«موسكو ، جادة لينين ، رقم الدار ٧٨ ، رقم الشقة ١٥٦ .

الى بطل الاتحاد السوفييتى بافل لوبافين المحترم .

المرسلة والدته من سيبيريا» .

تعودت دوما على كتابة العنوان بنفسها ، لانها واثقة من ان الرسالة ستصل من كل بد اذا كتبته بخط يدها .

— هكذا اذن . لا تحزن ، يا شوركا . سنسافر فى الصيف .

— لست حزينا . ومع ذلك تهيئى للسفر شيئا فشيئا . فربما تغيرين رأيك وتوافقين على ركوب الطائرة .

تطلعت الجدة الى حفيدها ولم تنبس ببنت شفة .

وفى الليل سمعها شوركا تتقلب على الفراش وتتأوه بصوت خافت وتهمس بشىء ما .

ولم ينم شوركا هو الآخر . كان يفكر . فالحياة تعده فى المستقبل القريب بكثير من الامور غير المعتادة ، حتى انه لم يكن يحلم بذلك مطلقا .

— شوركا ! — نادته العجوز .

— ماذا ؟

— ربما يسمحون لبافل بدخول الكرملين ، اليس كذلك ؟

— ربما . فلماذا تسألين ؟

— حبذا لو دخلته ولو مرة واحدة . . . لارى ما فيه .

— الدخول اليه مسموح للجميع الآن .

صممت العجوز بعض الوقت ، ثم قالت بارتياب :

— هل يعقل ان يسمحوا للجميع ؟

— هذا ما قاله لنا المعلم نيكولاى فاسيليفيتش .

وصمتا لحظة . ثم قال شوركا باستياء :

— انك تثيرين استغرابى ، يا جدتى ، فانت شجاعة عموما ، ولكنك خفت هذه المرة . مم تخافين ؟

— تم ، ايها الشجاع . — امرته جدته — فانت اول من يخرىء فى سرواله

— هل نتراهن بانى لن اخاف ؟
— نم . والا سيصعب عليك النهوض غدا للذهاب الى المدرسة .
وسكن شوركا .

١٩٦٢

## الشيخ والصبى

اصيب الشيخ نعوم بفستيغنيتش بوعكة بعد ان شرب الخمر . فرقد على دكة القرن وهو يئن .

اعتاد نعوم على تناول الخمر بانتظام مرة فى الشهر حالما يستلم المعاش . وبعد ذلك يلازم الفراش ، عادة ، ثلاثة ايام بلياليها .

— آكاد اموت . العفاريت تطحن بطنى باقدامها . . .

وعند طاولة مثقلة بالكتب المدرسية جلس يوركا بعد الواجب البيتى . وهو تلميذ فى الصف الثامن يستأجر ركنا فى منزل الشيخ نعوم .

— آكاد اموت يا يوركا .
— ما كان يجب ان تشرب الكثير .
— انت لا تزال صغيرا لمثل هذه الاقوال .

مرت برهة لم يسمع فيها غير صرير ريشة يوركا .

وكان الشيخ راغبا فى الكلام ، فقد تتحسن حاله بعض الشىء .

— فماذا سافعل اذا لا اشرب ؟ الا يحق لى ان احتفل ولو مرة فى الشهر ؟
— لماذا ؟
— افلست انسانا ؟
— تلك آراء مقتبسة من عهد القنانة — مال يوركا على ظهر الكرسى العتيق والقى على صاحب البيت نظرة ساخرة — فى ذلك الزمان كانوا يعتقدون بان الانسان يجب ان يشرب الخمر من كل بد .
— من اين تعرف زمان القنانة ؟ — تطلع الشيخ من فوق بعينين مفعمتين بالألم وحب الاستطلاع . ففى بعض الاحيان يثير يوركا دهشة العجوز بمعارفه ، فينشوق هذا الى سماع كلام الصبى بالرغم من عدم استسلامه له — من اين تعرف ولم ينبت ريش جناحيك بعد ؟
— من المدرسة .
— المعلمون حدثوك ؟
— فرضا .
— من اين يعرفون هم ؟ فليس بينهم ولا عجوز واحد .
— من الكتب .

— من الكتب . . . الا يعرفون ، بالمناسبة ، لماذا يمرض الانسان بعد الشراب ؟

— السبب هو التسمم بالزيت الكحولى .

— اى زيت ؟ فى خمر القودكا زيت ؟

— طبعا .

ضحك نعوم عفويا مع انه يعانى من الغثيان .

— غاصوا فى بحر العلوم .

— استطيع ان اريك المعادلة الكيماوية ، اذا كنت تريد . سأثبت لك ذلك بوضوح . . . — هم يوركا بالتقاط كتاب الكيمياء ، ولكنه سمع الشيخ يئن وقد امسك رأسه بيديه .

— اوه . . . عاد من جديد . خلاص ، حانت نهايتى . . .

— اشرب قدحا يخلصك من الغثيان ، فلماذا تعذب نفسك بهذه الصورة ؟

لم يستجب الشيخ لهذا الاقتراح . فهو راغب فى تجرع قدح من الخمر ، ولكنه لا يريد انفاق النقود . وهو على العموم غاية فى البخل . حالته المعيشية جيدة ، معاشه لا بأس به ، واولاده وابنته فى المدينة يساعدونه . سردابه مستودع كامل مملوء بما لذ وطاب . الشحم فيه من الموسم الفائت ، والخيار المملح والملفوف والبطيخ الاحمر والقطر . . . كل ذلك فى براميل وسلال صغيرة وكبيرة وفى المستودع كيس ونصف من الدقيق الجيد النوعية واكثر من عشرين كيلوغراما من لحم الفخذ . وفى بستانه حفرة مليئة بالبطاطس من موسم العام الماضى ايضا ، وهو يستخدمها علفا للخنازير والوز والدجاج . وعندما يكون فى صحة جيدة تراه ينهض قبل الفجر ويعمل فى بستانه طوال النهار حتى حلول الظلام . وغالبا ما يهبط الى السرداب ويجلس على العتبة ويغرق فى تأملاته طويلا : «شياطين ملاعين . اليس من الافضل لهم ان يعيشوا هنا ؟ !» — يفكر على هذا النحو ثم يخرج من سردابه الى العالم . وهو يعنى بالشياطين ابناءه وابنته . فهو يكرههم لانهم نزحوا الى المدينة .

اما يوركا فحاله تختلف تماما . فهو من قرية مجاورة لا توجد فيها مدرسة ثانوية . امه تعيل ثلاثة اطفال اصغر منه . وقد غرق ابوه اثناء نقل الاخشاب العائمة . وتبذل الام قصارى جهودها ليتمكن يوركا من انهاء الدراسة الثانوية . ويوركا راغب ، هو الآخر ، فى انهاء الثانوية ، بل ويحلم بالالتحاق بمعهد الطب فيما بعد .



يبدو ان الشيخ لا يهتم بفقر يوركا . فهو يأخذ منه خمسة روبلات فى الشهر ، مع ان كلا منهما يعد طعامه على حدة . فى بعض الاحيان تنفد مؤونة يوركا فى آخر الشهر . فيأكل رغيفه بلا إدام ، ويطيل الشيخ التطلع اليه ثم يسأله :

— انتهى زادك ؟

— نعم .

— ساعطيك . . . بشرط ان تعيده الى فيما بعد .

— موافق .

يزن الشيخ بالميزان اليدوى كيلوغراما او كيلوغرامين من جريش الدخن فيطبخ يوركا لنفسه عصيدة .

وهما يتجاذبان اطراف الحديث كل صباح قرب الفرن .

— هل تريد ان تكمل الدراسة رغم كل الصعوبات ؟

— نعم . ساكون جراحا .

— بعد كم سنة ؟

— بعد ثمانى سنوات . مدة الدراسة فى معهد الطب ست سنوات ، وليس خمسا كما فى المعاهد الاخرى .

— سوف تطلع روحك قبل ان تصبح جراحا . فمن اين لها ، لامك ، النقود الكافية ؟

— سيعطوننا منحة دراسية . والشبان يدرسون . . . من قريتنا اثنان يدرسان بهذه الصورة .

صمت الشيخ وهو يتطلع الى النار . ولعله تذكر ابناءه .

— ما الذى يستهويكم فى المدينة الى هذا الحد ؟

— الدراسة . . . هى التى «تستهوينى» . ويمكن فيما بعد ان اعمل جراحا فى القرية . فانا احب القرية اكثر .

— ماذا ؟ هل يستلمون رواتب كبيرة ؟

— من ؟ الجراحون ؟

— الجراحون .

— بالعكس ، رواتبهم قليلة . اقل من غيرهم . صحيح انها زيدت مؤخرا ولكنها قليلة مع ذلك . . .

— فلماذا اذن تريد ان تعذب نفسك كل هذه السنين ؟ الافضل لك ان تتعلم السياقة وتعمل . فرواتب السواق كبيرة . ولديهم كسب غير مشروع ، ينقلون

الاحطاب لهذا ويجلبون قش التعاونية لذاك ، ويستلمون نقودا بالمقابل . اما انت فيمكنك ان تعين امك حينذاك ، فلديها ثلاثة صغار غيرك .

صمت يوركا بعض الوقت . فقد شعر بالالم لتذكيره بامه واخوانه الصغار . طبعا ، الامور صعبة على امه . . . ويثور الانفعال فى صدره فيغضب على الشيخ ويجيبه بحدة :

— سنعيش على كل حال . فهذا لا يخص احدا .

— واضح — وافقه الشيخ — شوشوا عليكم الامور بهذه الدراسة ، فانتم تهيمون فى الارض ، مثل . . . — ولم يعثر على الكلمة المناسبة — عشنا فى السابق بدون اية دراسة ، ولم يحدث شىء ، فقد رأف بنا الله ولم نبق بدون خبز .

— ذهنك مشغول دوما بما كان فى السابق !

— طبعا . . . فما فائدة الطيارات ، خرا فى خرا .

— انت تفضل العربة ، اليس كذلك ؟

— وما عيب العربة ؟ اذا سافرت بها فانا اعرف بالتأكيد انى ساصل على اية حال . اما اذا سقطت بك الطيارة فان عظامك تتناثر ولن يجمعها احد .

على هذا النحو يتحدثان وقتا طويلا كل صباح ، الى ان يذهب يوركا الى المدرسة . فالشيخ بحاجة الى ان يفضى بكل ما فى صدره . لانه بعد ذلك مضطر الى الصمت طوال النهار . اما يوركا ، فبالرغم من استيائه من لجاجة الشيخ المملة ، الا انه يشعر بالارتياح لدفاعه عن كل ما هو جديد — عن الطائرات والدراسة والمدينة والكتب والسينما . . .

ومن الغريب ان الشيخ لا يؤمن ، هو الآخر ، بالله . وهو يلوم الذين لا يفعلون شيئا ويكتفون بالصياح واثارة الهرج والمرج .

ويقول : — ينبغى للانسان ان يمارس العمل ، وعند ذاك يحل النعيم .

الا ان العمل فى رأيه يعنى الكدح من اجل مصلحة الشخص وفى حقله وبستانه ، كما فى السابق . وهو لا يعمل فى التعاونية من زمان ، مع ان الشيوخ بعمره لا يزالون يمارسون بعض الاعمال الطفيفة هناك ، بعضهم فى تربية النحل ، وبعضهم فى الحراسة الليلية وبعضهم فى مراقبة الحقول .

ذات مرة قال له يوركا يزعل :

— نفسيتك ، يا جدى ، نفسية برجوازى الريف .



ظل الشيخ صامتا فترة طويلة دون ان يرد على ذلك . ثم قال بلهجة غامضة :

— انهض ايها الشعب المشرد المطرود ! . . — وتمخط بارتياح من احد منخريه اولا ، ثم من المنخر الثانى . ومسح انفه بطرف قميصه وقال فى الاخير :

— ربما كنت مفوضا عندهم . فالمفوضون آنذاك كانوا من الشباب .

غازل هذا الكلام مشاعر يوركا . فقال مصححا :

— الشريد الطريد .

— بخصوص النفسية . . . لا تكرر ذلك امام احد . والا فسيأتون ويبترون البستان . عندى زيادة باربعمائة متر . . .

— وما حاجتى الى تكراره ؟

قال الشيخ :

— خف الالم قليلا . داخ رأسى واسودت الدنيا فى عينى .

لم يعد يوركا راغبا فى الكلام . فمن اللازم ان يحضر الواجب البيتى .

— اى درس تحضر الآن ؟

— الفلك — اجاب يوركا بايجاز وبلهجة قاطعة جافة ملمحا الى انه لا ينوى الكلام .

— عماذا ؟

— عن الفضاء الذى يحلق اليه ملاحونا .

— تقصد غاغارين ؟

— ليس غاغارين وحده . . . فعددهم كثير الآن .

— لماذا يطيرون الى هناك ؟ لاى غرض ؟

— عجيب ! — هتف يوركا ومال من جديد على ظهر الكرسى — انك تدهشنى . فهل الافضل لهم ان يرقدوا على دكة الفرن ؟

— لماذا تلح على الفرن ؟ — زعل الشيخ — عندما تعيش بقدر ما عشت لن تتكلم هكذا .

— لم اقل ذلك لاغيظك . ولكن سؤالك : لماذا يحلق الناس الى الفضاء يدل على . . .

— طيب ، اوضح لى اذن . فلماذا يعلمونك فى المدرسة ؟ ألاجل ان تغضب على الشيوخ ؟

— اولا ، ارتياد الفضاء الكونى شىء . . . ضرورى . سيأتى زمن يهبط

فيه الناس على القمر . وسيأتى زمن آخر يصلون فيه الى الزهرة . وربما هناك اناس يعيشون على الزهرة ايضا . افليس ممتعا التعرف اليهم ؟

— هل هم مثلنا ؟

— لا اعرف بالضبط . ربما هم اقبح منا قليلا ، فالجو هناك يختلف عن جونا ، انه اثقل .

— سيتعاركون معنا .

— لماذا ؟

— ربما يسألون : لماذا جئتم الينا ؟ — لاح على الشيخ الاهتمام بالحديث

— فالضيف الثقيل اسوأ من عزرائيل .

— لن يتعاركوا . سيفرحون هم ايضا . ولا احد يعرف بعد من هو الاذكى . ربما هم اذكى . وعند ذاك ستتعلم منهم . وفيما بعد ، عندما تتطور الوسائل التكنيكية ، سنحلق الى ابعد . . . — استولت على يوركا نفسه هذه النظرة المستقبلية للبشرية . فقد نهض وراح يجوب الغرفة — نحن لا نعرف بعد كم عدد الكواكب الشبيهة بالارض ! ربما يبلغ عددها الملايين ! وربما تعيش كائنات معينة فى كل مكان هناك . وسيحلق بعضنا الى بعض . . . وتنشأ بشرية . . . كونية . وسنكون متساوين جميعا .

— وهل ستتزوجون من بعضكم البعض ؟

— انا اقصد التعليم . فربما توجد فى مكان ما كائنات شبيهة بالانسان ، فنستطيع جميعا ان نتعلم منها . وربما اكتشفوا هناك كل شىء من زمان ، بينما نقوم نحن بالخطوات الاولى . وعند ذاك يتحقق الملكوت الالهى الذى يسميه الدين بالجنة . ولنفترض انك تريد ان ترى ابناءك من دكة الفرن مباشرة . فما اسهل ذلك ! افتح زر جهاز الاستقبال التلفزيونى على موجة معينة فتراهم امامك . تفضل وتكلم معهم . واذا اردت ان تطير الى ابنتك لتهز مهد حفيدك ، فاصعد الى سطح المنزل وشغل طائرتك الهليكوبتر الصغيرة ، وبعد فترة وجيزة تجد نفسك عند ابنتك . . . وحفيدك . . . كم عمره ؟

— حوالى ثمانى سنوات .

— حفيدك سيقرأ لك رواية «الحرب والسلام» ، لان التطور سيجرى بسرعة ، والطب سيجعل الناس يعيشون مائة او مائة وعشرين عاما .

— بدأت . . . تبالغ .

— لماذا ؟ ! كلا . فهذه المسألة تحل الآن . المائة والعشرون عاما تعتبر



عمرا معقولا . ولكننا لا نمتلك المستلزمات المطلوبة . وسوف ناخذها من الكواكب المجاورة لنا فى المجرة .

— ألا تستطيعون بانفسكم ان توفروا عمرا بمائة وعشرين ؟

— لا نستطيع بعد . فهذه عملية بطيئة . وربما سنصل فى وقت ما الى عهد نعيش فيه مائة وعشرين عاما ، ولكن ليس قريبا . فان صنع سفينة فضاء تصل الى المجرة اسهل واسرع . وهناك ربما تكون هذه القضية محلولة . فربما اكتشفوا هناك مستحضرا مناسبا . . .

— انت نفسك لن ترغب فى ان تعيش مائة وعشرين عاما . فذلك شىء ممل .

— انت لا ترغب فى ذلك ، ولكن الآخرين سيفرحون له . وسوف يكون هناك مستحضر . . .

— «مستحضر» . . . الافضل لو اكتشفوا مستحضرا يخفف من آلام السكر . فان رأسى مثل . . . قارورة العرق المنزلى .

— لا داعى للسكر .

— اذهب الى الشيطان ! . .

لاذا بالصمت .

انشغل يوركا بكتبه . ولكن الشيخ عاد الى الكلام :

— على طرف لسانكم كلمة واحدة «سوف ، سوف !» . ثرثارون . قل لى ، ستدرس ستة عشر عاما ، واذا كان الانسان يحتضر فماذا تفعل له ؟

— ابتر منه شيئا بعملية جراحية .

— واذا حان موعد وفاته ، فماذا تبتر منه ؟

— لن اجيب على مثل هذه الاسئلة . . . البايخة .

— ليس عندك جواب ، ولذلك لا تجيب .

— كيف ؟ . . وهؤلاء الناس ؟ — طوق بيديه كومة من الكتب — اليس عندهم جواب ؟ ! هل قرأت ولو كتابا واحدا ؟

— ليس فيها ما يستحق القراءة . كله كذب .

— طيب ! — قفز يوركا واخذ يجوب الغرفة من جديد — الم يكن الطاعون موجودا فى السابق ؟

— نعم . فى العشرينات . . .

— اين هو الآن ؟ هل هو موجود ؟

— ربما سيأتى . . . والعياذ بالله !

— كلا . ابدا . فقد تعلمنا مكافحته . ثم اذا عضك كلب مسعور فماذا كان سيحدث لك فى السابق ؟

— اصاب بالكلب .

— وتموت . اما الآن فيحقنونك باربعين حقنة وتبقى حيا . السل كان مرضا لا علاج له ، أليس كذلك ؟ اما الآن فالانسان يشفى منه تماما بعد ستة اشهر ! فمن الذى ابتكر ذلك كله ؟ العلماء ! وانت تقول «كله كذب» . . . الافضل لك ان تسكت اذا كنت لا تفهم .

تشجع الشيخ بسبب هياج بوركا . وقال :

— طيب . فلنترك الكلب . ولنأخذ الافعى . اين كان الاطباء فى السابق ؟ لم يكونوا موجودين . اما العجوز فتهمس بشىء وفى الحال يزول الالم وكأن الافعى لم تلسع الشخص . فهل تخرجت تلك العجوز من المعاهد ؟

— اللسعة غير مميتة . هذا كل شىء .

— مد يدك اليها ، فلتلسعك مرة . . .

— مستعد . احقن نفسى فى البداية بحقنة ولتلسعنى قدر ما تريد . سابتسم وكفى .

— لا تتبجح .

— هؤلاء الناس — اشار بوركا الى الكتب من جديد — جربوا ذلك على انفسهم . هل تعلم بان الاكاديمى بافلوف دعا الطلبة ، وهو يحتضر ، واخذ يملى عليهم ما يحس به اثناء الموت ؟

— كيف ؟

— قال لهم : «سجلوا . قدماى بدأتا تبردان الآن» . وسجلوا . ثم تخدرت يداه فقال «تخدرت يداى» .

— وهم يسجلون ؟

— نعم . ثم بدأ قلبه يتوقف فقال «سجلوا» . فراحوا يسجلون ويبكون .

— ولاحت الدموع فى عينى بوركا . وتركت هذه القصة انطباعا شديدا لدى الشيخ :

— وماذا بعد ؟

— توفى . وكان يتحدث عن كل ما يشعر به حتى آخر لحظة ، لان ذلك ضرورى للعلم . اما انتم فكان بالامكان ان تعيشوا مع عجائزكم هؤلاء الف عام اخرى فى جهل مطبق . . . «فى السابق ! فى السابق !» . هل كان هذا موجودا فى السابق ؟ ! — اقترب بوركا من فيشة الكهرباء وشغل الراديو . وانبعثت اغنية



نسائية — اين هى ؟ ليست موجودة هنا !

— من ؟

— المغنية .

— انها تغنى بالاسلاك . . .

— هذه موجات لاسلكية ! «بالاسلاك» . بالاسلاك عندنا هنا ، فى القرية فقط . اما هى فربما تغنى فى مكان ما بجزيرة سخالين ، فهل تمد الاسلاك اليها هناك ؟

— بالاسلاك . طبعا . فى العام الماضى سافرت الى ابنى فانكا فرأيت الاسلاك ممدودة بين الاعمدة على طول سكة الحديد .

لوح بوركا بيده يائسا .

— انت لا تفهم شيئا . يجب ان احضر دروسى . كفاية .

— طيب ، ادرس .

— ولكنك تلهينى — جلس بوركا الى الطاولة وسد اذنيه براحتيه واخذ يقرأ .

استمر الصمت فى المنزل طويلا .

— هل عندك صورته ؟ — سأل الشيخ .

— صورة من ؟

— ذلك العالم الذى مات .

— الاكاديمى بافلوف ؟ انظر ، هذا هو .

مد بوركا يده بالكتاب الى الشيخ واشار الى بافلوف . ظل الشيخ يتطلع بجد الى صورة العالم وقتا طويلا .

— كان عجوزا .

— ظل نشيطا حتى الشيخوخة ، ولم يكن يشرب مثل . . . البعض — اخذ بوركا الكتاب — ولم يرقد طوال الوقت على دكة الفرن ولم يكن يحب الشتائم . وكان يمارس لعبة الاوتاد الخمسة حتى اللحظة الاخيرة ، الى ان لازم الفراش . وما اكثر الكلاب التى شرّحها لكى يثبت نظرية الافعال الشرطية ! . . وهو الذى وضع تعاليم الجهاز العصبى . ما السبب فى مرضك الآن ؟

— السكر . وانا اعرف ذلك بدون بافلوف .

— صحيح . ولكنك بالامس قيدت جهازك العصبى وعرقلت عمله . . . وهو اليوم . . . يقوّم نفسه ويستعيد نشاطه . وقد تكون عندك فعل لاارادى شرطى : حالما تستلم معاشك تشترى قنينة من كل بد . وانت عاجز عن التخلص من هذه

العادة . — احس يوركا فجأة بشعور من الارتياح لانه يستطيع ان يبين للشيخ بهدوء واقناع مدى ضرر شربه للخمر والعواقب التى تنجم عنه . وكان الشيخ يستمع اليه باهتمام — فما هو المطلوب اذن ؟ السيطرة على هذا الفعل اللاارادى . عندما تستلم المعاش فى دائرة البريد وتتوجه الى البيت . . . تقودك قدماك تلقائيا الى الحانوت . فحاول ان لا تدخله ، او اذهب الى البيت من زقاق آخر .

— ساتعذب اكثر .

— تتعذب مرة ، او مرتين ، ثم تتعود . وستمر بالحانوت مر الكرام وانت تضحك .

جلس الشيخ ولف سيجارة باصابعه المرتجفة واشعلها . اخذ نفسا فانتابه السعال :

— اوخ ، اوخ . . . يا للشيطان . احشائى تكاد تخرج من فمى ! يا للمصيبة !

انهمك يوركا فى دروسه من جديد .

هبط الشيخ من دكة الفرن متأوها وارتدى جزمته اللبادية وفروته القصيرة واخذ سكينا وخرج الى الدهليز .

«الى اين ذهب يا ترى ؟» — فكر يوركا .

انقضى وقت طويل قبل ان يعود الشيخ ، حتى ان يوركا هم بالنهوض ليرى الى اين ذهب حاملا السكين . الا ان الشيخ عاد وبيده قطعة من الشحم المملح بحجم القبضة . وسأل بلهجة صارمة :

— عندك خبز ؟

— نعم . لماذا تسأل ؟

— خذ . كل الخبز مع الشحم ، والا فستهلك سلفا مع الاكاديميين . . . قبل ان تتم دراستهم جميعا .

ارتبك يوركا . وقال :

— لن نستطيع ان نرده اليك فيما بعد . فليس عندنا شحم . . .

— كل . الابريق فى الفرن ، لا يزال ساخنا على ما اعتقد . . . كل .

اخرج يوركا ابريق الشاى من الفرن ، وكان لا يزال ساخنا ، فصب لنفسه قدحا ، وقطع الخبز والشحم وبدأ بأكل . صعد الشيخ بصعوبة الى الدكة وراح ينظر الى يوركا من هناك .

— الشحم لذيذ ؟



— «فيرى ويل» ! لذيذ جدا .

— ينبغى اطعام الخنازير بمهارة . بعض الحمقى يطعمونها حتى التخمة فى الخريف والحاصل شحم خالص بدون لحم . والبعض الآخر ، على العكس ، يجوعونها ليحصلوا ، كما يتصورون ، على لحم اكثر . فالشحم الخالص لا يعجب الجميع . وعندما ينحرونها لا يجدون شحما ولا لحما . فى حين يجب اطعامها حتى التخمة اسبوعا ، ثم تقليل العلف حتى الجوع ، ثم اطعامها من جديد حتى التخمة ثم تقليل العلف . . . وعند ذاك تنمو على طبقات : طبقة شحم وطبقة لحم . والتمليح ينبغى ان يتم بمهارة ايضا .

كان يوركا يستمع الى الشيخ ويلتهم بارتياح الشحم المتجمد الفواح واللذيذ حقا الى ابعد الحدود .

— ما ألذه ! شكرا لك .

— هل شبعت ؟

— نعم . — رفع يوركا الرغيف وابريق الشاى من الطاولة . وبقى هناك شىء من الشحم — وهذا ، اين اضعه ؟

— ضعه على البرميل الذى فى الدهليز . وفى المساء كله .

حمل يوركا الشحم الى الدهليز وعاد وطبطب على بطنه وقال بمرح :

— صفا الذهن ، وسيفهم افضل . . . فقبل ذلك كان رأسى . . . يدور قليلا .

— هكذا اذن — قال الجد راضيا عن نفسه وهو يرقد من جديد على ظهره . — يا للشيطان ! . . حالما ارقد اشعر بالتقيؤ من جديد . . .

— هل تريد ان اشترى لك ربعية خمرة ؟ — اقترح عليه يوركا .

صمت الجد ، ثم قال :

— كلا . . . ستتحسن احوالى بدون ذلك . فيما بعد انثر الحب للدجاج ، واعط البقرة حزمة او حزمتين ، ولا تنس ان تغلق الباب .

— طيب . ما الذى بقى على ؟ الجغرافية . ساقتحمها . . . دفعة واحدة — شعر يوركا بالمرح ، فقد اكل جيدا ، ودروسه جاهزة تقريبا ، يعنى انه سيتمكن فى العصر من التزلج على الاسكى قليلا .

وبادره الشيخ :

— الم يكن عنده اقارب ؟

— من ؟ — سأل يوركا دون ان يفهم قصده .

— ذلك الاكاديمي . ألم يكن عنده احد غير الطلبة ؟

— بافلوف ؟ ربما عنده اقارب . لا ادرى بالضبط . سأسأل غدا فى المدرسة .

— عنده ابناء ولا بد .

— لا بد . سأستفسر غدا .

— طبعا . عنده اقارب . ولو لم يكن عنده احد فهل يستطيع ان يملى الكثير ؟ الوحدة قاتلة .

لم يعترض بوركا . كان بوسعه ان يعترض : والطلبة ؟ ! ولكنه لم يعترض . فقال موافقا :

— بالطبع . الوحدة قاتلة .

١٩٦٦

# الذئاب

فى ساعة مبكرة من صباح الاحد جاء الى منزل ايفان ديغتياريف حموه نعوم كريتشيتوف ، وهو كهل نشيط على قدر كبير من الدهاء والجاذبية . لم يكن ايفان يحب نعوم ، اما هذا فيتحمل صهره بسبب عطفه على ابنته .

— الا تزال نائما ؟ — بادره نعوم بطلاقة — يمكن يا عزيزى ايفان ، ان تنام على هذا النحو طويلا وتفوت كل ملكوت السماء . مرحبا .

— انا لا ارغب كثيرا فى الذهاب اليها ، بل لا ارغب اطلاقا .

— عبثا تقول ذلك . انهض . . . لنذهب لاحضار الحطب . طلبت زحافتين من رئيس فريق العمل فاعطانى . ليس «لسواد العيون» بالصبع ، فليذهب الى الشيطان . نحن بحاجة الى حطب .

ظل ايفان راقدا بعض الوقت ، ثم فكر قليلا ونهض . . . اخذ يرتدى ملابسه ويتكلم :

— لماذا يتزح الشبان الى المدينة ؟ لانهم يعملون الوقت المطلوب ، وبعد ذلك يجدون انفسهم احرارا . فهناك يمنحون الانسان فرصة للراحة . اما هنا فاللعنة تلاحقه ليل نهار . وحتى فى الآحاد .

— ماذا ؟ هل تريد ان نبقى بدون حطب ؟ — قالت نورا زوجة ايفان — احضروا له حصانا ومع ذلك فهو غير راض !

— سمعت ان العمل لازم فى المدينة ايضا — علق نعوم .

— لازم . انا مستعد حتى لحفر الخنادق من اجل انابيب المياه . وسأعمل بكل قواي مرة واحدة وبعد ذلك بلا مشاكل ، سيكون عندنا ماء بارد وساخن .

— بالطبع ، اسالة المياه شيء جيد من جهة ، ولكنها ستكون مصيبة من جهة اخرى ، فسوف تغط انت فى سبات عميق آنذاك . كفاية ، فلنذهب .

— هل تريد فطورا ؟ — سألته زوجته .

رفض ايفان الفطور ، فلم تكن لديه شهية .

— بسبب سكر البارحة ؟ — استفسر نعوم .

— بالضبط ، يا صاحب المعالى !

— هكذا اذن . . . وانت تتحدث عن انابيب المياه ، هيا ، فلنذهب .

النهار مشمس والجو صحو . والثلج يلمع ناصع البياض . والغابة ملفعة بسكون ابدى .

كان من اللازم اجتياز مسافة طويلة ، قرابة عشرين كيلومترا ، فقطع الاشجار على مسافة اقرب ممنوع .

زحافة نعوم فى الامام ، وهو يزمجر متذمرا طوال الطريق :

— الشيطان وحده يعرف لماذا ننتقل من غابة الى غابة للحصول على الحطب .

اما ايفان فقد استسلم للنعاس فى الزحافة . فالرحيل الرتيب هدهده كما فى المهد .

بلغا ممرا فى الغابة ، هبطا منه الى وهدة خالية . ثم شرعا يرتقيان هضبة . وهناك على الهضبة تنتصب الغابة نفسها كجدار ازرق .

كادا يرتقيان الهضبة عندما لمحا فجأة خمسة منها ليس بعيدا عن الطريق . فقد خرجت من الغابة وراحت تنتظر . خمسة ذئاب .

اوقف نعوم زحافته واطلق شتيمة بصوت خافت مترنم :

— اولاد القحبة . . . اصطفوا كالحمامات الوديعة .

اما حصان ايفان فهو مهر جبان نكص على عقبيه فتجاوزت قائمته خشبة عريش الزحافة . سحب ايفان العنان ليدير وجهة الحصان . فنخر هذا واخذ يتراقص ولم يتمكن من اعادة قائمته الى داخل العريش .

وتحركت الذئاب من على الهضبة .

كان نعوم قد استدار فى تلك الاثناء وصاح :

— ماذا تنتظر ؟!

قفز ايفان من زحافته ودس قائمة الحصان فى العريش بصعوبة وهوى على الزحافة . فاستدار الحصان بنفسه وانطلق .

وكان نعوم قد قطع مسافة بعيدة وراح يصرخ بصخب وهو يستحث الحصان :

— سرقونا !

انداحت الذئاب مثل كتل رمادية من على الهضبة لتقطع الطريق على الزحافتين .

وكان نعوم يصرخ :

— سرقونا !

وفكر ايفان عفويا : «هل جن يا ترى ؟ من الذى سرقنا ؟» فزع ايفان ، ولكن على نحو غريب . فقد انتابه رعب مشوب بفضول قاتل وتملكه الضحك على حميه فى وقت معا . الا ان ذاك الفضول سرعان ما تبدد . ولم يعد



الامر يثير الضحك . فقد بلغت الذئاب الطريق وصارت على بعد مائة متر تقريبا وراء الزحافتين ، واخذت تلحق بهما على عجل بعد ان امتدت بشكل سلسلة . تشبث ايفان بمقدمة الزحافة وراح يحدق فى الذئاب .

فى مقدمة السلسلة عدا ذئب كبير بصدر عريض وبوز رمادى داكن . . . ولم يعد يفصل بينه وبين الزحافة الا خمسة عشر او عشرون مترا . دهش ايفان لانعدام التشابه بين الذئب والكلب . فهو لم يكن قد رأى الذئاب فى السابق من هذه المسافة القريبة ، وكان يتصور انها كالكلاب ، ولكنها اكبر حجما . اما الآن فقد ادرك ان الذئب ذئب ، وانه وحش كاسر . فاشد الكلاب تهيجا يمكن ان يوقفها شىء ما فى آخر لحظة ، من قبيل الخوف او الملاطفة او صيحة مباغتة يطلقها الانسان . اما هذا البوز الرمادى الداكن فلا يوقفه الا الموت . لم يكن يعوي ولا يخيف . . . كان يلاحق الغنيمة لا غير . وكانت نظرة عينيه المستديرتين الصفراوين قويمة بسيطة .

احتوى ايفان الزحافة بنظرته فلم ير شيئا ، بل ولا عودا واحدا . فكلا الفأسين فى زحافة حميه . وليس هنا غير كومة من القش على جنبه والسوط فى يده .

— سرقونا ! — جأر نعوم .

واجتاح ايفان رعب حقيقى .

اخذ الذئب الذى فى الامام ، ولعله رائد السرب ، يتجاوز الزحافة ويستعد لمهاجمة الحصان . فقد كان على مسافة مترين منه لا اكثر . . . نهض ايفان قليلا واستند بيده اليسرى الى متن الزحافة ، فلسع الرائد بالسوط . بوغت الذئب بهذه الضربة فكشر عن انيابه وقفز الى جانب ، فتلكأ مبهوتا . . . ومن الخلف اغارت الذئاب الاخرى . توقف السرب كله على عجل متحلقا حول الرائد الذى اقعى على عقبيه وسدد ضربة بأنيابه الى احد الذئاب ، ثم الى آخر . . . وانطلق الى الامام من جديد ، وسرعان ما لحق بالزحافة . كان ايفان قد استعد فى انتظار اللحظة المناسبة . . . فهو يريد ان يضرب الرائد مرة اخرى . الا ان هذا اخذ يتحاشى الزحافة ليلتف حولها عن بعد . وانفصل ذئب آخر عن السرب وبدأ يلتف حول الزحافة من الجهة الثانية . اصطكت اسنان ايفان وارتسمت التجاعيد على وجهه . . . «تلك هى النهاية . الموت» . وتطلع الى الامام . ثم صاح بأعلى صوته :

— قف يا ابتي ! . . اعطني الفأس !

ساط نعوم حصانه ، والتفت فرأى الذئبين يلتفان حول صهره ، فأشاح بوجهه على عجل .

— خفف سرعتك ، يا ابتي ، واعطني الفأس ! ستتخلص !

— سرقونا !

— خفف السرعة وستتخلص ! . . خفف قليلا ، يا سافل !

— القِ عليها بشيء ما ! — صاح نعوم .

توازى الرائد مع الحصان واخذ يتأهب للوثوب عليه . كانت الذئاب التى تعدو فى الخلف قريبة جدا ، ويكفيها ادنى تلكوء من الزحافة حتى تقفز عليها رأسا وتحل النهاية . القى ايفان بحزمة من القش ، الا ان الذئاب لم تلتفت اليها .

— يا ابتي ، يا ابن الكلب ، خفف السرعة والق الي بالفأس !

التفت نعوم وقال :

— انتبه يا ايفان ! خذ ! سالقى بها .

— خفف السرعة !

— انتبه ، ها انا القي بها ! — والقى نعوم بالفأس على حافة الطريق .

تأهب ايفان . . . ثم قفز من الزحافة والتقط الفأس . . . ارتعبت لقفزته الذئاب الثلاثة الراكضة فى الخلف ، فوثبت جانبا وخففت من عدوها استعدادا لمداهمة الانسان . الا ان الرائد وثب فى تلك اللحظة بعد ان احس بصلابة الثلج المتجلد تحت قوائمه . مال الحصان بشدة الى جانب فغاص فى اكوام الثلج . . . وانقلبت الزحافة فلوى عريشها الطوق الذى اطبق على عنق الحصان . نخر الحصان واخذ يرفس بين خشبتى العريش . اما الذئب الذى كان يتربص بالضحية من الجهة الاخرى فقد قفز تحت الحصان ويقر بطنه بضربة طولانية من برثنه ومخالبه ، فتدلت الامعاء .

وهرعت الى الضحية كذلك الذئاب الثلاثة التى كانت تعدو فى الخلف .

وفى اللحظة التالية اخذت الذئاب الخمسة تنهش لحم الحصان الذى كان لا يزال يرفس وسحبت على الثلج الناصع شليلة الاحشاء الرمادية الحمراء والبخار يتصاعد منها . هرّت الذئاب وزمجرت . وسلط الرائد نظرة مباشرة من عينيه الصفراوين المستديرتين على الانسان ، ثم كرر تلك النظرة مرة اخرى . . .

حدث كل شيء بسرعة مذهلة وبساطة مرعبة كما فى الحلم . وقف ايفان وفأسه بيده ينظر الى الذئاب مبهوتا . وتطلع اليه الرائد مرة اخرى . . . بنظرة



وقحة منتصرة جعلت ايفان يشتاط غضبا . رفع الفأس وصرخ بأعلى صوته وهجم على الذئاب . ابتعدت بضع خطوات على مضض وتوقفت لتلحس ابوازها الملطخة بالدماء . لحست بحرص وتلذذ حتى لكأن الانسان وفأسه لا يثيران اهتمامها مطلقا . بيد ان الرائد كان يتطلع بانتباه جاد . فانهال عليه ايفان بأبشع ما فى جعبته من شتائم . ولوح بفأسه وخطا نحوه . . . الا ان الذئب لم يتزحزح ، فتوقف ايفان ايضا . وقال :

— غلبتمونا . فانهشوا وكلوا ، يا سفلة — وتوجه نحو القرية ، محاولا ان لا يلتفت صوب الحصان الممزق . ولكنه لم يتحمل ، فالتفت اليه . . . واعتصر الالم فؤاده ، وامتلأ صدره بحقد عارم على حميه . وغذ السير على الطريق .

— يا ويلك . . . يا ويلك يا ثعبان تنن . كان بالامكان ان تتخلص منها وتنقذ الحصان المسكين . يا ويلك ، يا حقير .

انتظر نعوم صهره وراء المنعطف . وعندما رآه سالما فرح من صميم القلب .

— حي ؟ الحمد لله ! — كان ضميره يؤنبه مع ذلك .

— حي ! — اجاب ايفان — وانت حي ايضا ؟

احس نعوم بنبرة شر فى صوت صهره . فتراجع باتجاه الزحافة تحوطا للطوارئ .

— ماذا تفعل الذئاب ؟

— تبعث اليك بتحياتها ، يا حقير ! . .

— ماذا بك ؟ لماذا تنبح علي ؟

— سوف اضربك بلا تباح .

اقترب ايفان من الزحافة . فساط نعوم حصانه .

— قف ! — صاح به ايفان وركض وراء الزحافة — قف ، يا وغد !

راح نعوم يسوط الحصان . . . وبدأت مطاردة اخرى : انسان يطارد انسانا .

— اقول لك : قف ! — جأر ايفان ، ورد عليه نعوم صائحا :

— مخبول . لماذا انت هائج هكذا ؟ هل جننت ؟! فما ذنبي انا ؟

— كيف تقول ما ذنبك ؟ كان بالامكان ان تتخلص منها ، ولكنك خذلتني !

— كيف نتخلص ؟! كيف ؟!

— خذلتني يا ثعبان ! سوف القنك درسا ! ولن تهرب مني ، الافضل لك ان تقف . اضربك هنا ، لوحدنا ، سيكون عارك اقل . والا فسأؤدبك امام الجميع . واحدثهم بكل شيء . . . الافضل لك ان تقف !

— هل انا ابله مثلك لاقف ؟! — استحث نعوم حصانه — يا مشؤوم . . . من اين وقعت على رؤوسنا ؟!

— اسمع نصيحتي وقف ! — بدأ ايفان يلهث بشدة — الافضل لك ان اضربك ولا اقول لاحد .

— آوبناك متسولا ، يا عفريت ، وتشهر الفأس علي ؟ الا تخجل ؟ الا تستحي ؟

— سأؤدبك اولا ، ثم نتحدث عن الحياء . قف ! — ظل ايفان يركض ببطء ، فقد تأخر كثيرا . واخيرا عدل عن اللحاق بنعوم ، فاخذ يمشي ، بعد ان شيع حميه بآخر صيحة :

— سأجدك . لن تفر مني !

لم يجد ايفان احدا فى المنزل . فالباب مقفل . فتح القفل ودخل . عثر فى الدولاب على قنينة خمر فيها بقية من يوم امس ، فصب الخمر فى قدح واحتساه ، وتوجه الى حميه . رأى الحصان طليقا فى حوشه .

— موجود اذن . — قال ايفان بارتياح .

دفع الباب فوجده مفتوحا ، وكان يتوقع ان يجده مغلقا . دخل المنزل . . . وكانوا بانتظاره . نعوم ونورا زوجة ايفان والشرطى الذى استقبله بابتسامة .

— ماذا يا ايفان ؟

— هكذا اذن . . . راجعتهم ؟ — سأل ايفان وهو يتطلع الى حميه .

— نعم ، راجعتهم . متى استطعت ان تشرب ؟

— شربت قليلا . . . لأفك لساني . — جلس ايفان على المصطبة . فنهضت نورا وبادرته :

— ماذا بك يا ايفان ؟ هل جننت ؟ ماذا بك ؟

— اردت ان القن اباك درسا . . . ليصبح بعده انسانا .

— كفاك يا ايفان . — تدخل الشرطى — حدثت مصيبة ، وارتعبتما معا . . . فمن كان يتوقع ما حدث ؟ تلك هى الطبيعة .

— كان بامكاننا ان نتخلص من الذئاب بسهولة . ولكنه تركني لوحدي معها . . .

— الم القِ اليك بالفأس ؟ القيت بها اليك . فما الذى يطلب مني اكثر من ذلك ؟

— شيء طفيف جدا ، هو ان تكون انسانا . ولكنك وغد جبان . سوف



اتمنك درسا فى كل الاحوال .

— يا لك من مدرّس ! امسح مخاطك اولا . . . جاء الى عائلتنا كطير بلا ريش وكان كل شيء جاهزا له ، اما الآن فهو يهددني ، ويتذمر . انظروا اليه ! فهو يريد انابيب المياه !

— ليست هذه هى القضية يا نعوم . — قال الشرطى — فما شأن انابيب المياه هنا ؟

— الاحوال سيئة فى القرية ! . . وهى احسن فى المدينة — واصل نعوم كلامه — فلماذا جاء الى هنا ؟ هل جاء ليعرض تذمره ويستثير الناس ؟

— ابن الكلب ! — قال ايفان مبهوتا ، ونهض .

ونهض الشرطى ايضا .

— كفاية ! فلنذهب يا ايفان . . .

— الا تعرف جزاء مثل هؤلاء المشاغبين ؟ — قال نعوم دون ان يقر له قرار .

— اعرف ! — اجابه ايفان — يقذف بهم ، على رؤوسهم ، فى حفرة الجليد . . — وخطا نحو حميه .

امسك الشرطى بيد ايفان واقتاده من المنزل . توقفا فى الشارع واشعلا سيجارتين . فقال ايفان مندهشا :

— اليس وغدا ؟ الا ترى كيف قلب الامر علي .

— اتركه لحاله .

— كلا ، لا بد لي ان اؤدبه .

— وعند ذلك يحاكمونك من اجل هذا الخرا .

— الى اين تجرني ؟

— فلنذهب الينا . ستنام عندنا هذه الليلة . . . ويخف غضبك . والا فسوف تسيء الى نفسك . لا تتورط معه .

— كلا ، فهو . . . اى انسان هو ؟

— لا يجوز ذلك ، يا ايفان ، فلن تثبت شيئا بقبضتك .

سارا فى الشارع باتجاه محبس القرية . وسأله الشرطى فجأة :

— الم تتمكن من ذلك هناك ؟

— لم الحق به ! — اجاب ايفان بأسف شديد — لم اتمكن من اللحاق به .

— خلاص . . . لا يجوز فعل ذلك الان .

— انا متألم للحصان .

— نعم . . .

ولاذا بالصمت . سارا صامتين لامد طويل . ثم توقف ايفان وقال :

— اسمع ، اتركني . فما الذى افعله عندكم يوم الاحد ؟ اعاهدك باني لن امسه .

— كلا . فلنذهب . والا فلن تتخلص من المشاكل فيما بعد . . . اقول ذلك لمصلحتك . فلنذهب لنلعب الشطرنج . . . هل تجيد الشطرنج ؟

بصق ايفان عقب السيجارة على الثلج ودس يده فى جيبه بحثا عن سيجارة اخرى .

— نعم .

١٩٦٧

# تأملات

وعلى
حالما تهج
الناس يبدأ ذلك
القرية الى طرفها الآخر
اكورديونه يختلف عن سائر
ويزمجر اكثر مما يبعث الحانا .
نصحوا نينكا كريتشيتوفا بان تتزوجه بسرعة

— فهذا الشيطان يزعجنا طول الليل .

اطلقت نينكا ضحكة يشوبها الغموض وقالت :

— ناموا ولا تتنصتوا فى الليل .

— كيف ننام اذا كان يمطط اكورديونه تحت نوافذنا ؟!

فهذا الشيطان المخبول لا يذهب الى النهر ، مثلا ، بل يطنطن هنا وكأنما عمدا .

اما كولكا مالاشكين نفسه ، وهو فتى ضخم غليظ الشفتين ، فكان يتطلع بعينيه الصغيرتين الوقحتين ويقول :

— ذلك من حقى . فلا توجد مادة فى قانون العقوبات بهذا الخصوص .

منزل ماتفى ريازانتسيف ، رئيس التعاونية ، يقع على ملتقى الزقاق والشارع ، اى فى المكان الذى ينعطف فيه كولكا قادما من الزقاق . ولذا يسمع طنين الاكورديون فى الزقاق اولا ثم ينعطف حول المنزل ويظل يعصف بالشارع امدا طويلا .

وحالما يبدأ الطنين فى الزقاق يستيقظ ماتفى ويجلس على السرير فتتدلى قدماه على الارضية ويقول :

— خلاص : غدا افصله من التعاونية . ساجد حجة مناسبة وافصله .

يقول ذلك كل ليلة . ولكنه لا ينفذ ما يقول . وعندما يصادف كولكا فى النهار يكتفى بان يسأله :

— هل ستظل تتسكع طول الليل ؟ الناس بعد يوم العمل نيام وانت توقظهم بطنينك !

ويكرر كولكا :

— من حقى .

— ساريك حقك ! ساوقفك عند حدك !

وينتهي الحديث بينهما عند هذا الحد .

الا ان ماتفي يقطع على نفسه عهدا كل ليلة وهو جالس على السرير :

— غدا افصله .

ويظل بعد ذلك جالسا وقتا طويلا وهو يفكر . . . الاكورديون يبتعد الى الشارع ويبتعد معه صوته فلا يعود مسموعا ، الا ان ماتفي يظل جالسا . يتلمس بيده بنطاله المطروح على الكرسي فيخرج من جيبه علبة السجائر ويدخن . وتدمدم زوجته اليونا :

— الى متى تظل تدخن ؟

فيجيبها ماتفي بايجاز :

— واصلي نومك .

ففيم يفكر يا ترى ؟ لا شيء على وجه التحديد . يتذكر حياته الماضية ، يتذكر مشاهد غامضة منفصلة ، ولا شيء على وجه التحديد . وفي احدى الليالي المضيئة بنور القمر طنطن الاكورديون وانسكبت مع النسيم العليل عبر النافذة المفتوحة رائحة الشيح المرة من البستان . فتذكر ماتفي بمنتهى الوضوح ليلة اخرى . كانت تلك ليلة حالكة الظلام . وكان مع ابيه واخيه الاصغر كوزما اثناء موسم الحش في الوادي المتموج على بعد خمسة عشر كيلومترا تقريبا من القرية . وفي الليل تعسر تنفس كوزما . فقد شرب من ماء النبع في قيظ النهار وهو يتصبب عرقا ، فالتهبت حنجرته ليلا . ايقظ الاب ماتفي وامره بان يأخذ ايغرينكا (اسرع حصان عندهم) ويذهب عليه باقصى السرعة الى القرية لاحضار اللبن . وقال :

— ساشعل النار وستحضر انت اللبن في تلك الاثناء فنغليه ونقدمه للصبي ، والا فقد يموت .

تحسس ماتفي بالسماع الموقع الذي فيه الخيول فألجم ايغرينكا واسرع على ظهره الى القرية وهو يستحثه بضربات على جنبيه من سوط الشعر المفتول . ماتفي الآن في حوالي السنين من العمر ، بينما كان انذاك في الثانية عشرة او الثالثة عشرة ، ولكنه لا يزال يتذكر تلك الليلة . فقد امتزج الانسان بالحصان في كيان واحد يخترق ظلمة الليل . وكان الليل يطير للقائهما فيصفع الوجه بعطر كثيف ثقيل من الاعشاب المبللة بالندى . واستولت على الصبي حماسة وحشية جعلت الدم يغلي ويطن في رأسه . فقد كان ذلك شبيها بالتحليق حتى لكأن الصبي انفصل عن الارض وطار . ولم يعد يحس بشيء حواليه ، لا الارض ولا السماء ، ولا حتى رأس الحصان . لا شيء غير الحفيف في الاذنين ، لا شيء غير العالم



الليلي الفسيح يسرع للقائه . ولم يكن يفكر آنذاك حتى بان حالة اخيه سيئة ، بل لم يكن يفكر باي شيء . روحه تطير فرحا ، وكل عرق في بدنه يرقص وينتفض . . . كانت تلك لحظة نادرة من الفرح العارم تتوق اليها النفس .

. . . وبعد ذلك حلت المصيبة . جلب اللبن ، فوجد اباه يحتضن الصغير ويضغطه الى صدره ويركض به حول النار ويناغيه وكأنه يهدهده لينام :

— يا بني ، يا حبيبي . . . ماذا بك ؟ انتظر قليلا . انتظر . ستغلي اللبن ، وستتنفس بسهولة يا حبيبي . . . جاء ماتفي . احضر اللبن ! . .

اما الصغير كوزما فكان يختنق وقد ازرق لونه .

عندما وصلت الام على اثر ماتفي كان كوزما قد قضى نحبه . جلس الاب وامسك رأسه بكلتا يديه وراح يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ويئن بنواح مكبوت . واخذ ماتفي يتطلع الى اخيه بدهشة مشوبة بحب الاستطلاع الغريب . فبالامس كان يلعب معه على اكوام القش ، اما الآن فيرى امامه جثة هامدة لصبي غريب ووجهه ازرق على بياض .

. . . الا ان ما يثير الاستغراب حقا هو لماذا انعش هذا الاكورديون اللعين ذكرى تلك الاحداث الليلة بالذات ؟ فبعدها مرت حياة كاملة : الزواج واشاعة التعاونيات واندلاع الحرب . وما اكثر الليالي التي تصرمت بعد ذلك ! الا ان كل شيء امحى وبهت . واعتاد ماتفي طوال حياته ان يفعل ما يتعين فعله . طلبوا منه ان ينتسب الى التعاونية فانتسب ، حان موعد الزواج فتزوج ، وولدت له اليونا اطفالا سهرا على تربيتهم . . . اندلعت الحرب فتوجه الى القتال . اصيب بجراح فعاد الى اهله قبل سائر الرجال . وقالوا له : «يا ماتفي عليك ان تعمل رئيسا للتعاونية . فليس هناك احد غيرك» . وصار رئيسا ، فانهمك في هذا العمل وما يزال يتحمل اعباءه حتى الآن وقد تعود الناس عليه . انه لا يفكر بشيء غير العمل . كان يعمل حتى في الجبهة . كل همومه ومشاغله ، كل افراحه واتراحه ، مرتبطة بالعمل . وعندما كان ، على سبيل المثال ، يسمع شيئا عن «الحب» لا يفهم ذلك بالقدر الكامل . فهو يعرف بوجود الحب في الدنيا ، ولعله كان يحب اليونا في زمن ما (فقد كانت فتاة جميلة قبل الزواج) بيد ان من الصعب القول انه يعرف عنه اكثر من ذلك . كان يتصور بان الآخرين يتظاهرون عندما ينشدون الاغاني عن الحب ويتألمون ، حتى سمع بان البعض يقدمون على الانتحار بسبب ذلك . . . الناس لا يتظاهرون ، ولعلهم متعودون على الكلام عن الحب . وطالما يعتبر ذلك ضروريا فليتكلموا

عن الحب . القضية ، كل القضية ، فى ضرورة الزواج . فهل ان كولكا يحب نينكا ؟ انه معجب بها طبعا . فهى سليمة مكتنزة البدن . حان وقت الزواج . ولذا يتسكع هذا الاحمق فى الليل و «يطنطن» . فلم لا يتسكع ؟ انه شاب مفعم بالفتوة ، وعروقه تفور حيوية ونشاطا . . . كان الحال كذلك على الدوام . ومن حسن الحظ انهم لا يتشاجرون الآن على البنات مثلما فى الماضى . فقد تشاجر ماتفى نفسه اكثر من مرة . ولم تكن هناك مبررات وجيهة لذلك . كانت قبضته تتوق الى العراك . وكان يتمتع بقوة لا بد من ان يفعل بها شيئا .

ذات مرة ، عندما كان ماتفى غارقا فى تأملاته وهو جالس على السرير بهذه الصورة لم يتحمل فلكز زوجته :

— اسمعى . استيقظى ، اريد ان اسألك . . .

— ماذا بك ؟ — قالت اليونا مندهشة .

— هل وقعت فى الحب مرة ؟ فى حبى او حب غيرى ؟ لا فرق .

ظلت اليونا صامتة مصعوقة امدا طويلا .

— ماذا ؟ هل شربت ؟

— كلا ! . . كنت تحبيننى . . . ام انك تزوجت منى حسب العادة ؟ أسألك بجد .

فهمت اليونا ان زوجها لم «يتجرع» شيئا ، ولكنها صمتت من جديد فترة طويلة . فهى ايضا لا تدرى . لقد نسيت .

— لماذا دخلت رأسك مثل هذه الافكار ؟

— اريد ان افهم نقطة ، لعنها الله . يبدو ان شيئا ما يتحرك فى روحى ، فهى تتألم .

— كنت احب طبعا — قالت اليونا باعتقاد راسخ — ولو لم اكن احب لما تزوجت . كان مينكا كورولیف يغازلنى ويداريني ، ولكننى لم اتزوجه . فلماذا تذكرت الحب فى منتصف الليل ؟ هل بدأت تهذى ؟

— اذهبى الى الشيطان ! واصلى نومك — زعل ماتفى .

— ارسل البقرة غدا الى القطيع . نسيت ان اخبرك بذلك . فقد اتفقت مع النساء كى نذهب لجمع الثمار مع طلوع الفجر .

— اين ؟ — سأل ماتفى متأهبا .

— لا تخف ، لن نذهب الى واديك .

— ساقيض عليكن وآخذ غرامة : عشرة روبلات لكل امرأة .



— نحن نعرف مكانا لا احد يحش فيه العشب ، والثمار حمراء ناضجة هناك . فارسل البقرة ، لا تنس .

— طيب .

فما الذى حدث بالفعل فى تلك الليلة التى ذهب فيها لاحضار اللبن لاخيه حتى انبعثت الآن من اعماق الذاكرة ؟

وفكر ماتفى بكآبة : «ربما انا مخرف . فالخرف يصيب الجميع مع اقتراب الشيخوخة» .

فى حين ان الالم فى روحه لم يخف . ولاحظ انه صار ينتظر عودة كولكا واكورديونه «المغرد» ، فاذا تأخر ذلك ينتاب القلق هذا . ويشعر بالغيظ على نينكا : «دابة سمينة ، لن تطلق سراحه بسرعة» .

ويظل ماتفى ينتظر عودته وهو يدخن .

ها هو الاكورديون يطنطن فى الزقاق من بعيد . وها هو الالم يتصاعد فى الروح . الا ان هذا الالم غريب ، فهو الم يتشوق اليه ماتفى ويشعر بالخواء بدونه .

تذكر ماتفى كذلك صباح احد الايام ، وصباحا ثانيا وثالثا . . . كان يسير حافيا على العشب الذى تزينه لآلئ الندى . ولا يبقى وراءه الا اثر اخضر صارخ . يلسع الندى البارد قدميه . وهو يشعر بالبرد حتى الآن حالما يتذكر ذلك .

واحيانا يفكر ، بغتة ، بالموت ، وبان النهاية قريبة . بدون خوف وبدون الم ولكن على نحو مدهش : كل شىء يبقى على حاله ، كما هو واضح ، اما انت فيحملونك الى القبر ويهيلون التراب عليك . والامر الذى يصعب فهمه هو كيف يبقى كل شىء على حاله ؟ طيب ، مفهوم ان الشمس ستظل تشرق وتغيب ، فهى دوما تشرق وتغيب . ولكن اناسا آخرين سيأتون الى القرية ولن تعرفهم انت ابدا . . . هذا شىء لا يمكن فهمه اطلاقا . لنفرض انهم سيظلون عشر سنين او خمس عشرة سنة اخرى يتذكرون ماتفى ريازانتسيف . وبعد ذلك ينسونه . ولكنه يريد مع ذلك ان يعرف كيف سيعيشون . انه يكاد لا يأسف على شىء : فقد تطلع الى الشمس بما فيه الكفاية وسكر فى الاعياد وتمتع بالمرح والافراح و . . . كلا ، انه لا يأسف على شىء . فقد رأى الكثير فى حياته . ولكنه حالما يفكر بانه غير موجود فى هذه الدنيا ، كل الناس موجودون ما عداه هو . . . يتساءل : هل يشعرون بعدم وجودى بينهم ؟ هل يشعرون بالخواء بدونى ؟ ام انهم لا يكترثون بذلك ؟

«تفو ! انى اهذى . تلك هى الشيخوخة» .

وشعر ماتفى بالتعب من هذه التأملات . فايقظ زوجته :

— اسمعى ! استيقظى . هل تخافين الموت ؟

— جننت يا رجل ! — تمتمت اليونا — من الذى لا يخاف الموت ؟

— انا لا اخافه .

— نم اذن . فلماذا تفكر فى ذلك ؟

— واصلى نومك يا ملعونة .

ولكن حالما يتذكر من جديد تلك الليلة الحالكة الصاعقة التى انطلق فيها على ظهر الحصان يعصر القلق العذب فؤاده . كلا ، فى هذه الحياة شىء ما ، شىء يأسف عليه اشد الاسف حتى تسيل الدموع من عينيه .

وذات ليلة انتظر اكورديون كولكا ولم يسمعه ابدا . جلس يدخن . . . ولكن الاكورديون لم يأت ، ظل ينتظره حتى ألمّ به التعب .

وعند الفجر ايقظ ماتفى زوجته .

— لماذا لم يات صاحبنا الليلة ؟

— سيتزوج . حفلة الزفاف يوم الاحد .

شعر ماتفى بالأسى . رقد وحاول ان يغفو ، ولكن دون جدوى . فظل مضطجعا الى ما بعد الفجر وهو يرمش بعينيه . اراد ان يتذكر شيئا آخر من حياته ، فلم يخطر على باله ما يستحق التذكر . وانهالت عليه مجددا مشاغل التعاونية وهمومها . . . موسم حش الاعشاب قريب ، بينما لا يزال نصف المحشات ينتظر التصليح فى ورشة الحدادة . اما الحداد فيليا ، هذا الشيطان الاحول ، فقد ادمن على الشراب ، وسوف يشرب المزيد فى حفلة الزفاف ، اى ان اسبوعا آخر سينقضى هباء .

ويجب ان اتكلم غدا مع فيلياء .

. . . فى اليوم التالى صادف ماتفى كولكا الغليظ الشفتين فقال باسما :

— ماذا ، يا اخى ، حلت نهايتك ؟ نهاية طنينك ؟

ابتسم كولكا . . . واتسعت ابتسامته عريضة حتى الاذنين .

— خلاص ، يا ماتفى ، لن اوقظك فى الليل بعد الآن . وصلت الى المرفأ والقيت المرساة .

— عظيم ! — قال ماتفى وواصل سيره وهو يفكر : «ما الذى يفرحك ايها الثور الصغير ؟ ستمسك نينكا كريتشيتوفا بقرنيك الآن . فكل افراد عائلتها من هذا النوع .



انقضى اسبوع .

ظل القمر يسكب ضوءه فى نوافذ الليل ، وتفوح من البستان رائحة حادة تنبعث من الشيح واوراق البطاطس الفتية . . . وكان السكون مخيما .

تململ ماتفى فى الفراش ، فاستيقظ واشعل سجارة . . . ثم ذهب الى الدهليز فشرب عصيرا ، وخرج الى مدرج باب المنزل وجلس على حافته وراح يدخن . كانت القرية تسبح فى الضوء ، وكان السكون مرعبا .

١٩٦٧

# الابله

زوجته تنعته «بالابله» . وتقولها تحببا احيانا .

الابله يتمتع بخاصية فريدة هى ان شيئا ما لا بد وان يحدث له دوما دون رغبة منه ، فيقع بين الحين والآخر فى ملابسات ومفارقات طفيفة ، ولكنها مؤسفة ، تثير المه واشجانه .

فى احدى الرحلات حدث له ما يلى :

حصل على اجازة وشد العزم على السفر الى الاورال لزيارة اخيه الذى لم يره اثنى عشر عاما تقريبا .

— اين الصنارة الشبيهة بالكراكى — صاح الابله باعلى صوته من مستودع العفش .

— لا ادرى .

— كانت هنا طوال الوقت ! — حاول الابله ان تكون نظرة عينيه المستديرتين الزرقاوين على بياض صارمة جدا — كلها موجودة ، اما هذه فلا اثر لها .

— الشبيهة بسمك الكراكى ؟

— نعم .

— ربما قلبتها خطأ .

صمت الابله برهة .

— ثم ماذا ؟

— ماذا ؟

— هل هى لذيذة ؟ خا — خا — خا ! . . — ما كان يجيد اطلاق النكات ابدا ، ولكنه راغب فى ذلك اشد الرغبة — هل ظلت اسنانك سليمة ؟ فالصنارة من الالومينيوم ! . .

. . . ظل يجمع حاجياته طويلا ، حتى انتصف الليل .

وفى الصباح الباكر سار حاملا حقيبته عبر القرية .

— الى الاورال ! الى الاورال ! — كان يرد على من يستفسر عن وجهته . وينم وجهه المستدير المترهل وعيناه الدائريتان عن اللامبالاة المتناهية بالسفرات البعيدة . فهى لا ترعبه . — الى الاورال ! للترويح عن النفس .

الا ان الاورال كان لا يزال بعيدا ، بعيدا جدا .



ها هو يصل بسلام الى مركز الناحية ليقتنى تذكرة سفر ويستقل القطار .

كان لديه متسع من الوقت ، فرأى ان يقضيه فى شراء الهدايا لابناء اخيه ، من قبيل الحلوى والكعك وما اليهما . . . دخل حانوت الاطعمة وشغل موقعه فى الطابور . امامه رجل يرتدى قبعة ، وامام القبعة امرأة بدينة بشفتين مصبوغتين بالاحمر . وكانت المرأة تتحدث الى القبعة بصوت متحمس سريع وخافت بعض الشىء :

— تصور مدى الخشونة وقلة الادب عند الناس ! انه مصاب بتصلب الشرايين . طيب . اصيب بهذا المرض منذ سبع سنوات ، ولكن لم يطلب منه احد ان يحيل نفسه على المعاش . اما هذا الوقح الذى عين رئيسا لهم قبل قليل فقد قال له : «اليس من الافضل لك ، يا الكسندر سيميونوفيتش ، ان تتقاعد ؟»

وقالت القبعة :

— نعم ، نعم . . . كلهم من هذا القبيل الآن . فما اهمية تصلب الشرايين ؟ سومباتيش ايضا ضعفت ذاكرته فى الفترة الاخيرة . وتلك ، نسيت اسمها ؟ . . .

الابله يحترم سكان المدن . ليس كل سكان المدن طبعا . فهو لا يحترم الشقاة والباعة ، لانه يخشاهم بعض الشىء .

جاء دوره . فاشترى حلوى وكعكا وثلاثة الواح من الشكولاته ، وانزوى جانبا ، لكى يدس مشترياته فى الحقيبة . فتح الحقيبة على الارضية وراح يرتب محتوياتها . . . القى نظرة على الارضية فلمح بين اقدام الزبائن فى الطابور ، قرب رف الحانوت ، ورقة نقدية من فئة خمسين روبلا . كانت تلك الورقة الخضراء الحمقاء مستقرة على الارضية بهدوء ولا احد يراها . ارتعش الابله من الفرح وبرقت عيناه . وراح يفكر على عجل ، كيلا يسبقه احد ، فى كيفية اخبار هؤلاء الواقفين فى الطابور بالورقة النقدية بلهجة اكثر مرحا وتنكيتا . فقال بمرح وبصوت عال :

— يبدو انكم تسبحون فى الخيرات .

التفتوا نحوه .

— عندنا ، مثلا ، لا يلقون بهذه الاوراق على الارض .

اضطرب الجميع بعض الشىء . فتلك ليست ورقة من ثلاثة روبلات او خمسة . الخمسون روبلا نصف الراتب الشهرى . ولا احد يعرف من هو صاحب تلك الورقة .

وفكر الابله — «ربما صاحبها ذلك الذى يرتدى القبعة» .

واتفقوا على وضع الورقة فى مكان بارز على الرف .

وقالت البائعة :

— سيأتى صاحبها راكضا .

غادر الابله الحانوت على احسن مزاج . وكان يفكر طوال الوقت كيف تمكن ان يقول بسهولة ومرح : «عندنا ، مثلا ، لا يلقون بهذه الاوراق على الارض !» . وفجأة صعق وكأن لهيبا لسعه ! فقد تذكر ان امينة صندوق التوفير فى قريته سلمته ورقة مثل هذه بالضبط مع ورقة اخرى من فئة خمسة وعشرين روبلا . دفع ثمن الحلويات بهذه الورقة الاخيرة واستلم الباقى ، اما ورقة الخمسين روبلا فلا بد ان تكون فى جيبه . . . دس يده فى جيبه ، فلم يجدها ، بحث عنها هنا وهناك ، ولكن دون جدوى .

— تلك ورقتى اذن ! — قال الابله بصوت عال — يا ابن الكلب ! ورقتى .

اعتصره الالم ، فخيل اليه ان رئتيه دوى بين الضلوع من هول المصيبة . تحمس فى البداية للذهاب الى الحانوت ليقول : «يا ناس ، انها ورقتى . استلمت ورقتين من صندوق التوفير ، احداهما من فئة خمسة وعشرين والاخرى من فئة خمسين . صرفت الخمسة والعشرين الآن ، وسقطت منى الورقة الثانية» . ولكنه عدل عن ذلك حالما تصور كيف سيذهل الجميع لقوله هذا ، وكيف سيظن الكثيرون بانه «يريد ان يستحوذ عليها بالطبع طالما لا احد يعرف صاحبها» . كلا ، لن يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ليمد يده لاستلام هذه الورقة اللعينة . ثم انهم ربما لن يسلموها اليه . . .

— لماذا تحدث لى هذه الامور ؟ — فكر الابله بمرارة وبصوت مسموع — فما العمل الآن ؟

تعين عليه ان يعود الى البيت .

اقترب من الحانوت وفى نيته ان يلقى نظرة على الورقة النقدية ولو من بعيد ، وقف برهة قرب الباب . . . ولم يدخل . فهو يخشى ان يشتد ألمه ، وربما لن يتحمل قلبه .

استقل الباص واطلق الشتائم بصوت خافت . كان يستعيد انفاسه ويستجمع قواه ، فعليه ان يواجه زوجته .

سحب من دفتر التوفير خمسين روبلا اخرى .



ها هو الابله فى القطار منسحقا لتفاهته التى ذكرته بها زوجته مرة اخرى (حتى انها انهالت على رأسه بضربتين من المطفحة) . الا ان مرارة الالم تبددت بالتدريج . فقد مرقت وراء النافذة غابات وأجمات وقرى . . . ودخل العربة وخرج منها مختلف الناس الذين حكوا مختلف القصص والاخبار . . . وساهم الابله فى ذلك فحكى قصة لاحد الرفاق المثقفين عندما كانا يدخنان فى مدخل العربة .

— فى القرية المجاورة لقريتنا اختطف احد الحمقى حطبة مستعرة واخذ يطارد امه . كان سكران ، فهربت منه وصاحت : «لا تحرق يديك يا ولدى !» . هى مهتمة به ، وهو يلاحقها ، يلاحق امه ، هذا الكلب السكران . فهل تتصور مدى الخشونة وقلة الادب ؟ . . .

— هل ابتدعت الحكاية بنفسك ؟ — سأل الرفيق المثقف بلهجة صارمة وهو يتطلع الى الابله من فوق نظارتيه .

— لماذا ؟ — قال الابله دون ان يفهم قصده — وراء النهر فى ناحيتنا قرية اسمها رامينسكويه . . .

اشاح الرفيق المثقف بوجهه نحو النافذة ولم ينبس ببنت شفة .

بعد السفر بالقطار يتعين على الابله ان يستقل احدى طائرات الخطوط المحلية . المسافة ساعة ونصف . وكان قد سافر بالطائرة ذات مرة . من زمان . صعد الى الطائرة بوجل . وفكر : «هل من المعقول انه لن يتعطل فيها ولا برغى واحد طوال ساعة ونصف ؟!» . وبعد ذلك تشجع وتحمل ، حتى انه حاول ان يتكلم مع جاره الذى انهمك بمطالعة الجريدة بشغف اغناه عن الاستماع الى كلام انسان حى . اما الابله فكان يريد ان يستفسر منه عن القضية التالية : سمع بان الطعام يقدم الى ركاب الطائرات . ولكن الطعام لم يقدم لهم هذه المرة . كان راغبا جدا فى تناول الطعام بالطائرة — اشباعا لحب الاستطلاع لا غير .

وفكر فى نفسه : «حسنا لوها . بخلوا علينا» .

راح يتطلع الى تحت ، فرأى جبالا من الغيوم تسبح هناك . ولم يتمكن من القول على وجه التحديد بما اذا كان منظرها جميلا ام لا . ولكن الآخرين كانوا يهتفون جميعا «آه ، ما اجملها !» . الشىء الوحيد الذى احس به فجأة هو رغبة سخيفة للغاية ، فقد اراد ان يهوى عليها ، على الغيوم ، كما لو كانت قطنا . وفكر ايضا : «لم لا اندهش كالآخرين ؟ فتحتى حوالى خمسة كيلومترات» . قاس طول هذه الكيلومترات الخمسة متخيلا اياها على الارض ، ونصبها عموديا لكى يندهش ، ولكنه لم يندهش .

— ما اعجب الانسان ! . . فقد ابتدع . . . — قال لجاره الذى القى عليه نظرة صامتة ، ثم دس انفه فى الجريدة من جديد . وقالت امرأة شابة مليحة :

— شدوا الاحزمة ! فالطائرة ستبدأ بالهبوط .

شد الابله حزام مقعده طائعا . اما جاره فلم يحرك ساكنا . لمس الابله ردنه بحذر :

— امرونا بشد الاحزمة .

— لا بأس — قال الجار ، ووضع الجريدة جانبا ، ثم مال برأسه على ظهر المقعد واضاف وكأنه يتذكر شيئا :

— الاطفال زهور الحياة ، يجب زرعهم ورؤوسهم الى تحت .

— كيف ذلك ؟ — سأل الابله مستفسرا .

فاطلق قارىء الجريدة قهقهة عالية ثم لاذ بالصمت .

الطائرة تنخفض بسرعة كبيرة ، وها هى الارض ، على قاب قوسين او ادنى ، تركض الى الوراء بمنتهى السرعة . الا ان الطائرة لم تلامس الارض . واوضح العارفون فيما بعد ان الطيار «اخطأ التنشين» ففوت اللحظة المناسبة . واخيرا لامست الطائرة الارض بهزة شديدة جعلت الجميع يتمايلون ويترنحون فتصطك استانهم وتنصر فكوكهم . اما قارىء الجريدة فقد انقذف من مقعده ونطح الابله برأسه الاصلع ثم ارتطم بكوة الطائرة وسقط اخيرا على الارضية . ولم ينبعث منه اى صوت خلال ذلك . كان الجميع صامتين ايضا ، مما اثار دهشة الابله ، فصمت هو الآخر . وتوقفت الطائرة اخيرا ، وتطلع اول الذين استعادوا رشدهم فرأوا عبر الكوات ان الطائرة حطت على حقل البطاطس . وظهر من قمرة القيادة طيار متجهم بعض الشيء وتوجه نحو باب الخروج . فسأله احدهم بحذر :

— هبطنا على البطاطس ، أليس كذلك ؟

— الا ترى بنفسك ؟ — اجابه الطيار .

انحسر الرعب ، وحاول اكثر الناس مرحا ان يطلقوا نكات خجولة .

كان قارئ الجريدة الاصلع يبحث عن طقم اسنانه .

حل الابله حزامه واخذ يبحث هو الآخر .

— هذا هو ؟! — هتف فرحا وقدم الطقم الى صاحبه . فارتسمت بقع ارجوانية على صلعة هذا الاخير وصاح بصوت الثغ :

— من قال انه يجوز امساكه باليد ؟!



ارتبك الابله وسأل :

— فبماذا اذن ؟

— اين ساعقمه بالماء الساخن ؟ اين ؟!

ذلك امر لا يعرفه الابله ايضا . ولكنه اقترح عليه قائلا :

— يمكنك ان تذهب معى . فاخى يعيش هنا ، وسنعقم الطقم عنده . . . انت تخشى من انى ربما لوثته بالجراثيم ، اليس كذلك ؟ اؤكـــد لك بانه ليست عندى جراثيم .

تطلع الرجل بدهشة الى الابله وكف عن الصياح .

فى مبنى المطار حرر الابله برقية الى زوجته : «هبطنا . زهور الليلاك تناثرت على الصدور ، فلا تنسينى يا حبيبتى بدور — فاسياتكا» .

موظفة البرق والبريد امرأة متحشفة صارمة . قرأت البرقية وقالت له :

— اكتبها بصيغة اخرى . فانت انسان راشد ولست من روضة الاطفال .

— لماذا ؟ — سألها الابله — تعودت دوما على الكتابة اليها بهذه الصورة فى الرسائل . فهى زوجتى ! . . ربما ظننت . . .

— فى الرسائل يمكنك ان تكتب ما تريد ، اما البرقية فهى نوع من الاتصال . انها نص مفتوح .

اعاد الابله كتابة البرقية :

«هبطنا بسلام . فاسياتكا» .

صححت الموظفة بنفسها كلمتى «هبطنا» و «فاسياتكا» فجعلتهما : «وصلنا» و «فاسيلى» . وقالت :

— «هبطنا» . . . هل انت ملاح كونى حتى تكتب هكذا ؟

— حسنا ، فليكن كما تريدين .

. . . الابله يعرف طبعا بان لديه اخا اسمه دميترى وان لاخيه ثلاثة اطفال . ولكنه لم يفكر بان هناك ايضا زوجة اخيه . فهو لم يرها مطلقا . فى حين انها ، هى بالذات ، ضيعت عليه الاجازة وشوشت الامور . فقد كرهت الابله ، لسبب ما ، حالما وقع نظرها عليه .

شرب الابله مع اخيه فى المساء ، وانشد بصوت مرتعش :

الحور العتيق . . .

الحور العتيق . . .

مدت صوفيا ايفانوفنا ، زوجة اخيه ، عنقها من الغرفة المجاورة وسألت بغيظ :

— الا يمكنك بدون صياح ؟ فانت لست فى محطة القطار ، اليس كذلك ؟

— وصفقت الباب .

ارتبك اخوه دميترى ، وقال :

— السبب . . . الاطفال نائمون . وعلى العموم فهى امرأة طيبة القلب . شربا المزيد . واخذا يتذكران ايام الصبا وامهما واباهما . . . وسأل دميترى فرحا :

— هل تتذكر ؟ ولكن كيف تتذكر وقد كنت طفلا رضيعا ؟ كانوا يتركونك معى ، فانهال عليك بالقبلات . ومرة تركت قبلاتى بقعا زرقاء على بدنك ، فعاقبونى على ذلك ، ولم يعودوا يتركونك معى . ولكنى اتحين الفرصة فاقبلك من جديد حالما ينشغلون بشىء . الشيطان وحده يعرف تلك العادة السيئة . فانا نفسى كنت لا ازال غارقا فى المخاط ، ومع ذلك كنت مغرما . . . بالقبلات . . .

— وهل تتذكر ؟! — راح الابله يستعيد الذكريات — كيف ضربتنى . . .

— هل ستنتهيان من الصراخ ام لا ؟ — سألت صوفيا ايفانوفنا من جديد بمنتهى الانفعال والغضب — فمن الذى يرغب فى سماع مخاطكما وقبلاتكما ؟ هل انتما كالآخرين لتتكلما بهذه الصورة ؟

— فلنخرج . — قال الابله .

وخرجا ، فجلسا على مدرج الباب . وواصل الابله كلامه :

— هل تتذكر ؟ . .

الا ان شيئا حدث لاخيه دميترى : فقد انتحب وراح يضرب على ركبته بقبضته .

— هكذا اعيش ! هل رأيت ؟ ما اكثر الحقد فى الانسان ! ما اكثره !

اخذ الابله يهدئ اخاه :

— دعك من هذا . لا تتألم . لا داعى لذلك . لسن حاقدات ، انهن مخبولات لا غير . زوجتى مثلها ايضا .

— لماذا كرهتك ؟! لاى سبب ؟ لقد كرهتك . . . فلماذا ؟

وعند ذلك فقط فهم الابله بان زوجة اخيه كرهته حقا . ولكن لماذا يا ترى ؟

— لانك لست مسؤولا او موظفا كبيرا . انا اعرف هذه الحمقاء . فهى معجبة بالمسؤولين الكبار . ولكن من هى فى الواقع ؟ مجرد عاملة فى مطعم المديرية . صفر على اليسار . تراهم هناك فيجن جنونها . . . وهى تكرهنى انا ايضا لانى من القرية ولست مسؤولا كبيرا .



— فى اية مديرية تشتغل ؟

— فى مديرية . . . فى مديرية استخراج . . . يصعب علي تلفظها الآن . فلماذا تزوجت منى اذن ؟ الم تكن تعرف ؟

وهنا شعر الابله بالاهانة ، فقال بصوت عال وكأنه يخاطب شخصا آخر غير اخيه :

— ما هى المشكلة على العموم ؟ هل تعلم بان جميع مشاهير الرجال تقريبا هم من ابناء القرى ؟ كلما نقرأ نعيا فى اطار اسود نجد ان المتوفى من ابناء القرى . يجب ان نقرأ الصحف ! ان اية شخصية كبيرة نأخذها نجد انها من ابناء القرى ، من الذين باشروا بالعمل فى سن مبكرة .

— كم مرة قلت لها ان ابناء القرى افضل وأكثر تواضعا .

— هل تتذكر ستيبان فوروبيوف ؟ انت تعرفه . . .

— اعرفه . كيف لا ؟

— افليس هو من ابناء القرى الاقحاح ؟ بطل الاتحاد السوفييتى . دمر تسع دبابات . واقدم على هجوم انتحارى . امه تستلم الآن ستين روبلا معاشا مدى الحياة . ولم يعرف عنه شىء الا مؤخرا . فقد كان يعتبر من المفقودين . . .

— وايليا مكسيموف ! . . توجهنا الى الجبهة معا . اما هو فقد منحوه وسام المجد بدرجاته الثلاث . ولكن لا تحدثها عن ستيبان . . . لا داعى لذلك .

— طيب . ثم هل تتذكر ! . .

ظل الاخوان المنفعلان يتحدثان بصخب امدا طويلا . وراح الابله يجوب المكان قرب المدرج ويلوح بيديه .

— لا يحترمون القرى ! . . ان الهواء وحده هناك يفوق التقدير ! فحالما تفتح الشباك فى الصباح تنتعش نفسك وكأنك تستحم فى الهواء الطلق . تفوح منه رائحة الطراوة والاعشاب والزهور ، حتى لكأنه يصلح للشراب . . .

ثم تعب الاخوان .

— هل رممت السقف ؟ — سأل الاخ الاكبر بصوت خافت .

— رممته — تنهد الابله بصوت خافت ايضا — بنيت شرفة ، جميلة جدا . اخرج اليها فى المساء . . . واسبح فى الخيال : يا ليت ابى وامى على قيد الحياة . . . حبذا لو جئت انت مع الاطفال كى نجلس جميعا فى الشرفة ونشرب الشاى مع مربى توت العليق . محصول التوت وافر جدا فى هذا الموسم .

لا تتشاجر معها ، يا دميترى ، والا فسوف تحقد عليك اكثر . اما انا فساكون اكثر لطفا معها ، وقد يزول غيظها .

— ما يثير استغرابى هو انها هى ايضا من ابناء القرى ! — قال دميترى بخفوت وبدهشة مشوبة بالحزن — ومع ذلك عذبت الاطفال . ما اشد حماقتها . عذبت الصبى فى تعلم العزف على البيانو ، وسجلت الصبية لتتعلم الرقص على الجليد . قلبى يتفطر الما ، ولا استطيع ان اعترض ، فهى لا تجيب الا باللوم والشجار .

— تفو ! . . — انفعل الابله من جديد — يصعب على ان افهم هذه الجرائد . فهى تكتب ان احدى البائعات فى الحانوت تعامل الزبائن بخشونة . فما اهمية ذلك ؟ المصيبة انها خشنة المعاملة حتى فى البيت ! لا افهم !

— ضرب الابله ركبته بقبضته — لا افهم لماذا اصبحن حاقدات ؟

عندما استيقظ الابله فى الصباح لم يجد احدا فى الشقة . اخوه دميترى ذهب الى العمل ، وذهبت زوجته ايضا ، والطفل الاصغر اخذوه الى دار الحضانة ، والطفلان الاكبر يلعبان فى الباحة .

رتب الابله الفراش واغتسل وراح يفكر بما يفعله ليرضى زوجة اخيه . وقع بصره على عربة الطفل . ففكر : «سوف ازينها برسوم» . ففى منزله زين القرن على نحو ادهش الجميع . عثر على اصباغ الصبى وفرشاته وانهمك فى التزيين . وبعد ساعة انجز مهمته ، فلم تعد العربة شبيهة بما كانت عليه . فى الركن العلوى للعربة رسم الابله سربا من الغرانيق وفى اسفلها رسم مختلف الزهور والاعشاب وفراخ الدجاج مع ديكين . . . نظر الى العربة من جميع الجهات فاعجبته جدا . انها الآن لعبة وليس عربة . وتصور كيف سيفرح ذلك زوجة اخيه ، وابتسم . فقد كان يريد التصالح معها .

— ومع ذلك تحتقرين ابناء القرى . انت غريبة الاطوار . فالطفل فى هذه العربة كزهرة فى سلة .

قضى الابله النهار كله وهو يتجول فى المدينة ويتطلع الى واجهات المحلات . اشترى قاريا لابن اخيه ، وهو قارب ابيض طريف مزود بمصباح . وفكر : «سازينه بالرسوم ايضا» .

وفى حوالى السادسة مساء عاد الى منزل اخيه . حالما ارتقى مدرج الباب سمع



اخاه دميترى يتشاجر مع زوجته . كانت الزوجة ، على الاصح ، هى التى تتشاجر مع دميترى . اما هو فيكرر :

— لم يحدث شىء خطير ! . . لا تزعلى ، يا صوفيا ، لا تزعلى . . .

— فليرحل هذا المعتوه غدا ! — صاحت صوفيا ايفانوفنا — لا اريد ان اراه !

— لا داعى لذلك يا صوفيا ! . .

— كلا ! اذا تأخر فى السفر سوف القى حقيبته الى الشيطان . خلاص !

اسرع الابله فى النزول من المدرج . . . ولم يعد يعرف ماذا يفعل . وحز الالم فى نفسه من جديد . فهو يشعر بالم شديد وتضيق به الدنيا عندما يحقدون عليه ، حتى يخيل اليه ان النهاية قد حانت ، ولا جدوى من الحياة . وتلاحقه رغبة فى الانزواء والابتعاد عن الناس الذين يكرهونه او يسخرون منه .

— لماذا تحدث لى هذه الامور ؟ — همس بمرارة وألم وهو جالس فى مستودع منزل اخيه . — كان ينبغى لى ان اعرف بانها لن تفهم . . . لن تفهم الفنون الشعبية .

ظل جالسا فى المستودع حتى حلول الظلام . وكان الالم يحز فى نفسه طوال الوقت . ثم جاء اخوه دميترى ، ولم يبد دهشته وكأنما كان يعرف بان اخاه فاسيلى قابع فى المستودع من زمان .

— أرأيت . . . — قال دميترى — اثارت ضجة من جديد . ما كان يجب ان . . . تلطخ العربة .

— ظننت ان ذلك سيعجبها . ساسافر يا اخى .

تنهد دميترى . . . ولم يقل شيئا .

وصل الابله الى منزله وكان المطر الدافئ يتساقط نثارا . نزل من الباص خلع حذاءه الجديد ووكض على الارض البليلة الدافئة ، والحقيبة فى يد والحذاء فى اليد الاخرى . كان يتقافز وينشد بصوت عال :

الحور العتيـ . . . ق

لاحت السماء صافية زرقاء من احد اطرافها ، وكانت الشمس قريبة فى مكان ما وراء الغيوم . انحسر المطر واخذت حباته الكبيرة النادرة تصفع البرك فتنبعث عليها فقاعات تكبر حتى تنفجر .

وتعثر الابله مرة فكاد يسقط على الدرب .

. . . اسمه فاسيلى كنيازيف . وهو فى التاسعة والثلاثين من العمر . يعمل ميكانيكيا فى سينما القرية . وهو مغرم بالمخبرين والكلاب . كان يحلم فى الطفولة بان يصبح جاسوسا .

١٩٦٧



# العجوزان

هطل المطر فى الليل ، وهدر الرعد بعيدا . . . اما الصباح فقد نفض البلل عن نفسه ودفع الشمس من لجة الضباب ، وانسابت الفضة الذائبة بين الاوراق المبللة الهامسة وترك الارض على مضض الضباب الذى تجمع فى المنخفضات وراح يرتفع الى اعلى .

اعتاد العجزة على التفكير فى الموت بهدوء . ففى سن الشيخوخة بالذات يتفتح امام الانسان جمال **الحياة** الابدى المدهش الكامن .

وهناك من يريد ان تتهيأ للانسان فرصة اخيرة كى يعب منها حتى الشبع ، حتى الألم ، ثم يفارقها ويرتحل .

ويرتحلون فعلا . ويرجع صدى خطوات الراحلين رنينا وادعا بطيئا كرنين الالجمة الدافئة لخيول متعبة . كانت الحياة طيبة ، طيبة لحد الألم ، لحد يصعب معه الرحيل .

سار الشيخ الاشيب على الدرب البليل كى يحش الاعشاب لبقرته .

ظلت القرية وراءه ، خلف الهضاب ، والبقعة التى يقصدها واد متموج هائل عند السفح . عندما يرتقى المرء اقرب هضبة اليه يلوح الوادى كله امام انظاره مطوقا من ثلاث جهات بجبال صامتة . انه صقع اخضر فسيح يمارس الناس فيه حش الاعشاب من قديم الزمان .

فى اعالى المروج المتموجة اعشاب عالية يغوص فيها الحصان حتى البطن . وفى الاسفل ارض مستنقعة باردة ، وفى الدغل تفوح العفونة ، وتنبجس من التربة الصدئة الدسمة ينابيع باردة رقراق . والماء عذب لذيذ هناك ! فيميل المرء الى الجلوس ، حيث تكتنفه العتمة والارتعاش وتنتابه الاحزان لسبب ما ، ويستولى عليه الشعور بالوحدة . بديهى ان هناك اناسا يهمهم وجودك او عدم وجودك . . . ولكن الشىء المحير هو لماذا يوجد هذا الجمال الذى يفوق طاقة البشر ؟ فماذا نفعل به ؟ . . من الأسف هو اننا نمر به مر الكرام ولا نلاحظه بسبب استعجالنا .

حالما يخرج المرء الى ضوء النهار يأسف للحزن الذى فارقه . فقد داعب روحه توا شىء رقيق هادئ هدوء الفجر ورقته . ولكن حالما يفرح له ويداريه ، لكى يفرح له فيما بعد ، يتلاشى وتزيحه مختلف الافكار والهموم ، فينسى المرء تلك الفرحة ولا يتمتع بها .

ارتفعت الشمس ، وارتفع الضباب وتبدد . وتصاعد بخار خفيف من التربة

الا انه لم يحجب الضوء ، بل بدا وكأنه ينتزع ذلك الضوء من الارض ويحمله الى اعلى .

اوراق البتولا فى الاجمة جفت بعض الشىء ، ولكنها لا تزال محتفظة بطراوتها الفتية المغسولة بماء المطر ، فهى تلمع دافئة وكانت زقزقة طيور غير مرئية تخترق برقة سكون الصباح المخيم على كل الارجاء .

الدفء يزداد وينساب من السفوح الى الوديان التى لا تزال رطبة ، وينبعث من التربة عطر فواح مفعم بنكهة الخضرة التى تنتشى لها النفوس .

اسرع الشيخ فى سيره . ولكن ليس الى حد التعب فالبقية الباقية من قواه ليست كبيرة ، ولا بد من التوفير .

كان قد جاب هذا الدرب راجلا وراكبا طول عمره . فهو يعرف كل منعطف فيه ، ويعرف اين يرخى عنان الحصان واين يشده ، كيلا ينفق هذا الاخير كل طاقته فى حماسة الصباح فيعمل فيما بعد مجهدا . اما الآن فالشيخ بدون حصان . كان يتذكر كل الخيول التى رافقت حياته ، وبوسعه ان يتحدث ، لو وجد اذنا صاغية ، عن طباع كل حصان وعاداته . وهو يشعر بالألم عندما يتذكر خيوله . ويحز فى نفسه خصوصا حصانه الاخير : لم يبعه او يستبدله بغيره ولم يسرقه منه الغجر ، بل نفق تحت صاحبه .

حدث ذلك فى عام ثلاثة وثلاثين . كان الشيخ (ولم يكن شيخا آنذاك ، بل رجلا موفور الصحة اسمه انيسيم كفاسوف او انيسيمكا تحببا) قد انتسب الى التعاونية وصار يعمل فيها مفتشا حقليا . حلت آنذاك مجاعة رهيبة . فكانوا يقتاتون على الحندقوق ويطبخون القراص ويتسممون بالقمح الفاسد الذى ينظفون البيادر منه بالمكانس . وكانوا ينتظرون محصول الموسم القادم فتعين عليهم ان يعيشوا صيفا آخر فى عسر وضنك . وكانت الآمال ، كل الآمال ، معلقة على الابقار التى استخدموا حليبها جرعة جرعة لتغذية الاطفال المتورمين من الجوع .

وذات مرة ، اثناء حش الاعشاب ايضا ، سقط راعى القرية ، وهو رجل قمىء ضعيف ، اغمى عليه بعد ان خارت قواه فى ملاحقة الابقار . الله وحده يعرف كم من الوقت ظل راقدا ، فقد قال الراعى فيما بعد انه قضى وقتا طويلا على هذه الحال . اما الابقار فقد دخلت فى اثناء ذلك مرج البرسيم . . . وفى ساعة متأخرة من المساء اقتادها الى القرية منتفخة البطون وصاح فى اول من صادفه من الناس : «انقذوها ، انخمت بالبرسيم !» . وبدأ هرج ومرج لا مثيل لهما . ولولت النسوة وانتشل الرجال السياط وهرعوا يطاردون الابقار فى الشوارع .



حلت المصيبة بالقرية وتعالى الانين . تساقطت الابقار وخارت قوى الناس فتساقطوا هم ايضا . وعندما رأى انيسيم ما يجرى فى القرية امتطى ظهر حصانه ميشكا (سلموه الحصان عندما عين مفتشا حقليا للتعاونية ، وكان ميشكا هذا مهره اصلا ، قدمه الى التعاونية عندما انتسب اليها) ، وراح يطارد الابقار كالآخرين . طاردوها طوال الليل ، وعند الفجر شخر ميشكا ، وانيسيم على ظهره ، وسقط على قائمتيه الاماميتين . بذل انيسيم جهودا خارقة لانقاذ الحصان ، ولكن دون جدوى . فبكى وانتحب والحصان مسجى امامه . . . واتهموه بالتخريب ، وقضى زهاء شهر ونصف فى موقف الناحية ، ثم اطلقوا سراحه .

ها هى اخيرا فسحة الشيخ ، وهى عبارة عن مرج صغير منبسط على مقربة من الطريق ، وفى اسفلها بقعة مستنقعة فيها ينبوع .

كانت الشمس قد ارتفعت بالكاد . فقد تأخر الشيخ قليلا .

تناول الخيار المملح مع الخبز على عجل . ثم حك سكين المحش وحد نصلها بالمحك .

ليس هناك عمل اروع من حش الاعشاب . ثم ان الشيخ يحب حشها وحيدا . فما اكثر الافكار التى تخطر على باله فى اثناء ذلك طوال النهار !

المحش يبتر الاعشاب بهسيس وفحيح ، والاعشاب تنتفض وتهوى . وعلى بعد ثلاث خطوات امام الشيخ رفعت افعى رأسها . . . ثم انسابت على العشب وجسمها اللدن المقرف يتلوى ويلتمع . وعادت الذكريات من جديد : ذات مرة ، عندما كان فى سن الصبا ، امتطى جواده وانطلق به فى رماحة معتدلة . وفجأة احس الحصان بوجود افعى او رآها فوثب جانبا . وسقط انيسيم وكأنه لم يركب الحصان من قبل مطلقا . سقط وعجيزته عليها مباشرة ، على الافعى . وفيما بعد انتابه اسهال طوال اسبوع من شدة الخوف .

الذاكرة تلفظ من اعماق الحياة الغاربة مزيدا من الايام الغابرة الوضاءة والعزيزة على فؤاد الشيخ ، وكأنها ينابيع صافية تنبجس فى ماء راكد عكر لبحيرة ساكنة . فلنأخذ الافاعى مثلا . . . كان فى القرية آنذاك شيخ اسمه كوديلكا . وكان يقول للصبية ان كل من يقتل افعى يتخلص من اربعين خطيئة . واذا القيت الافعى فى النار يمكن للمرء ان يرى على بطنها ارجلا صغيرة ، كثيرة جدا . وكان الصبية يتخلصون من خطاياهم بحماس كبير . وكانوا يحرقون الافاعى ويرون بالفعل على بطنها ، وهى تتقافز فى النار ، اشياء كثيرة صغيرة بيضاء تلمع هناك . وكان الواحد منهم يصيح : «انظروا ! ها هى !» فيرى الجميع الارجل الصغيرة .

انهمك الشيخ فى حش الاعشاب حتى الظهر قبل ان تتشف تماما .وغدت الشمس حارقة وكأن رغيفا ساخنا قد وضع على الرأس .

— الحمد لله ! — قال الشيخ وهو يتطلع الى البقعة الصلعاء المحشوشة . لقد حش كمية لا بأس بها ، فتفتحت اساريره .

توجه الى السقيفة التى نصبها مسبقا ، عندما جاء الى هنا ليتفقد الاعشاب ويوسعه الآن ان يتناول طعامه جيدا وبدون استعجال .

السقيفة مشبعة بعطر الاعشاب الذاوية الدافئ القواح . وفى ركن ما تطن حشرة صغيرة بصوت نفاذ . والجنادب التى لا تكل تملأ السكون الساخن بصريرها الجاف الرتيب . ومن الجو تسيل زقزقة القبرات الفضية الملساء .

ما اروع ذلك ، يالهى ، ما اروعه ! . . يندر ان تصادف المرء حالة من الارتياح تجعله يعترف بانه يتمتع بها حقا . فعندما تضيق بنا الدنيا نفكر : «ربما يشعر غيرنا بالارتياح» . وعندما نشعر نحن بالارتياح لا نفكر : «ربما تضيق الدنيا بغيرنا» . فنحن نشعر بالارتياح وكفى .

فرش الشيخ على العشب منشفة نظيفة ووضع عليها الخيار والخبز والبصل الاخضر المغسول . . . وتوجه الى النبع ، فهناك ، فى الماء قنينة لبن مسدودة باحكام بسدادة من القماش . انحنى على الجدول واستند بيديه الى الضفة المستنقعة الرخوة وراح يشرب الماء طويلا وبدون نهم . شاهد كيف تتلاحق حبات الرمل البيضاء الواحدة تلو الاخرى فى القاع الصدى .

«كأنها حية» — فكر الشيخ ونهض بصعوبة واخذ القنينة وذهب الى السقيفة . وهناك ، قرب السقيفة ، جلس على قرمة شجرة شيخ آخر يرتدى قبعة وبيده عصا . وراح يدخن .

— مرحبا — حياه الشيخ الذى يرتدى القبعة — رأيتك قادما فجلست لارتاح . هل عندك مانع ؟

— كلا ، بالطبع . — قال انيسيم — تعال الى هنا ، فالحر اقل .

— حقا ، الحر شديد . — دخل الشيخ الذى يرتدى القبعة الى السقيفة وجلس على العشب .

ففكر انيسيم : «سرواله جيد . . . سيتلوث بخضرة العشب» . ودعاه قائلا :

— تفضل ، وكل معى .

— شكرا . اكلت قبل قليل — تطلع الشيخ الى انيسيم باهتمام جعله يشعر بالارتباك . — تحش الاعشاب ، اليس كذلك ؟



— الحاجة تجبرنى . يبدو انك لست من ابناء هذه القرى .

— لماذا ؟ انا من ابنائها .

تطلع انيسيم الى الضيف ولم يقل شيئا .

— الا اشبههم ؟

— لماذا ؟ الناس اشكال الآن . — قضم انيسيم الخيار . . . وتلقف نظرة القاها الضيف على الزاد الفلاحى البسيط الموجود على المنشفة ، وفكر «ربما يريد» . ودعاه من جديد :

— تفضل .

— كل انت ، فامامك عمل نصف نهار .

— تفضل فالزاد يكفينا .

خلع العجوز القادم من المدينة قبعته وكشف عن صلعته اللامعة وتزحزح من مكانه فتناول خيارا وقطعة من الخبز . وسأله انيسيم :

— هل معك جريدة ؟

— لماذا ؟ — سأل الضيف مندهشا .

— سروالك جيد ، وسيتلوث بخضرة العشب .

— لا تهتم . آه ، لهذا الخيار !

— ماذا ؟

— لذيذ جدا .

— تقول انك من ابناء هذه القرى . . . من اين ؟

— من منطقة قريبة . . .

لم يصدق انيسيم بان ضيفه من ابناء هذه الاماكن ، فهو لا يشبههم حقا .

— انا من مواليد هذه الاماكن ، ولكننى لا اعيش هنا الآن .

— جئت ضيفا ، اليس كذلك ؟

— لا بد من زيارة مسقط الرأس . . . فالموت قريب . وانت من اية قرية ؟

— من ليبياجيه الواقعة على هذا الطريق . . .

— هل تعيش لوحدك مع العجوز ؟

— نعم .

— هل عندك ابناء ؟

— نعم ، ثلاثة . واثنان قتلا فى الحرب .

— اين الثلاثة ؟ هل هم فى المدينة ؟

— كولكا فى المدينة ، اما البنتان فقد تزوجتا . . . احداهما فى تشيبورلاك ، تزوجت من رئيس فرقة فى التعاونية ، والاخرى فى منطقة ابعد . — ولم يقل ان هذه الثانية متزوجة من شخص غير روسى . — ابنتى نينكا زارتنا فى الربيع . . . اولادها كبروا .

— كولكا فى اية مدينة ؟

— كولكا موجود فى المدينة وغير موجود . عمله غريب . وهو فى ترحال دائم . فهم يبحثون عن الحديد .

— فى اية مدينة ؟

— فى لينينغراد . وهو يراسلنا ، ويبعث الينا نقودا . . . وعلى العموم فهو يعيش برخاء . ويريد ايضا ان يأتى الينا ، لكن الوقت ضيق . ربما سيصل .

احتسى الشيخ القادم من المدينة شيئا من اللبن ومسح شفتيه بمنديل وقال :

— شكرا . اكلت جيدا .

— لا شكر على الواجب .

— هل ستذهب للحش الآن ؟

— كلا ، سأنتظر قليلا حتى يخف الحر .

— كولكا من اى مواليد ؟ — سأل الضيف .

— ١٩٢٠ . — وهنا فكر انيسيم : «لماذا يسأل عن مثل هذه التفاصيل ؟» — وتطلع اليه .

فابتسم هذا بدون مرح ، ولكن بدون حزن ايضا . وقال :

— هكذا ، اذن ، ياصاحبى .

«ما اغربه ! عجوز ومع ذلك فهو غريب الاطوار !» — فكر انيسيم . بينما واصل الضيف استجوابه :

— وصحتك ؟

— الحمد لله . . . لا شىء سوى الصداع . كثيرون فى قريتنا يعانون من الصداع ، حتى الشباب .

— هل عندك اقرباء ؟ اخوان ، اخوات . . .

— كلا ، من زمان . . .

— ماتوا ؟

— ماتت اخواتى ، اما اخى فلم يعد من الحرب الاولى .



— قتل ؟

— طبعا . فلماذا لا يعودون من الحرب ؟

اشعل الشيخ القادم من المدينة سيجارة ، فامتد خيط كثيف من الدخان الازرق نحو مخرج السقيفة . وكان هذا الخيط هنا ، فى الظل المائل الى الاخضرار ، واضح المعالم تماما ، ولكنه يختفى عن الابصار حالما يبلغ الخلاء المنير مع ان النسيم ساكن ، فلا هبة ولا نأمة . كانت الجنادب تصر ، والاطيار تزقزق وتنط بين الشجيرات ، وتسكب العنادل الزاهية تغاريدها بلا انقطاع على صدر الارض الدافئ .

وراحت دعسوقة تتسلق عشبة عالية عند مدخل السقيفة . كانت تتسلق بعناد وتهور . . . ولم يستطع العجوزان ان يرفعا بصرهما عنها . بلغت الدعسوقة قمة العشبة وتأرجحت عليها ثم فتحت جناحيها وانطلقت فى تحليق جانبى واطئ فوق الاعشاب .

— ها هى حياتنا تنقضى . — قال الشيخ القادم من المدينة بصوت خافت .

فانتفض انيسيم لهذه العبارة التى بدت معروفة لديه الى حد الغرابة . ليس العبارة بذاتها ، بل كيفية تلفظها . فبهذه الصورة كان يتلفظها ابوه عندما يغرق فى تأملاته . كان يتلفظها بشىء من الدهشة وبابتسامة تكاد لا تلحظ . ولعله كان يضيف اليها بلهجة رقيقة : «ظظ على الدنيا» .

— الست حزينا لذلك ياصاحبى ؟

— ما جدوى الحزن ؟

— لا بد من شىء يساعد الانسان فى مثل هذا العمر ؟

— هل تشعر بألم ؟

— روحى تتألم بعض الشىء . فأنا متأسف . . . لم اتمتع بالحياة ، ولم اتعب منها . لست مستعدا بعد ، كما يقال .

— آه . ما علاقة التمتع بالحياة ؟ فمن يرغب فى الرقاد فى ظلمة القبر ؟

— الذين ينتحرون . . .

— انهم مرضى . ويصادف ان يرهق الانسان نفسه ، فهو حسب الظاهر لا يزال سليما ، ولكنه منخور من الداخل ، فينقطع حبله .

— ربما فاتنى شىء . . . انا افهم حماقة هذا القول . فأنا لم افوت ما كان مخصصا لى — صمت الشيخ القادم من المدينة ، ثم اضاف : — انا

متأسف لهذا الهدوء الرائع . . . فقد انشغلت بالسفاسف ، ولا بد من اخلاء المكان لغيرى ، اليس كذلك ؟

— لا بد ويا للأسف ، لا بد .

— حبذا لو اخترت انت فى مكان ما بحيث ينسى الناس وجودك فتعيش مائتى عام . ما هو رأيك ؟ — قهقه الشيخ بمرح ، ولاح فيه — فى قهقهته — من جديد شىء يعرفه انيسيم الى حد يثير القلق . — بحيث يبقى كل شىء هنا على حاله . فما هو رأيك ؟

— ربما سأشعر بالملل .

— لم نشعر بالملل مطلقا لحد الآن !

— لا تفكر بالموت قبل ان يجىء . وعند ذاك لن تخاف منه . واذا جاء فليأت . . . ستمرض فترة قصيرة . فالبعض يموتون فى غضون اسبوع .

— نعم . . .

— انت تنظر الى الامام ، بينما اتلفت انا دوما الى الوراء . ذلك شىء سىء ايضا . فليس فيه غير الكدر والاحزان .

— هل تستعيد الذكريات ؟

— نعم .

— هذا شىء حسن .

— حسن ، ولكنه يكدر النفس ، فما الداعى لذلك ؟

— كلا ، هذا شىء حسن . ما الذى تتذكره ؟ الطفولة ؟

— الطفولة فى غالب الاحيان .

— حدثنى قليلا . هل كنتم تمارسون الشقاوات ؟

— كان عندى اخ اسمه غرينكا ، وكان من الاشقياء — ابتسم انيسيم وهو يتذكر ذلك — لا ادرى من اين له ذلك . فقد كان حتى فى الحرب يهجم قبل الآخرين فى اغلب الظن . . .

— ما الذى كان يفعله ؟ — ابدى الشيخ القادم من المدينة اهتماما كبيرا .

— حدثنى . . . ارجوك . طالما انك تستريح الآن .

— آه ! . . — هز انيسيم رأسه وصمت طويلا . — كان داهية . . . ذات مرة قفصنا جارنا ايغور تشاليشيف فى بستانه وجلدنا ، بحق ، طبعا ، لقاء حماقتنا . فالبطيخ لم ينضج بعد ، وقد اتلفنا منه اكثر مما اكلناه . فالظلام حالك فى الليل . كنا نهشمه بركبنا ونتذوقه فنجده فطيرا ونلقى به جانبا لنهشم



غيره . اجل ، ضربنا بشدة . وبعد ذلك ضربنا ايونا . فاغتاظ غرينكا الى اقصى حد . واخذ مثانة خنزير — كانوا قد نحروه آنذاك — وحكها بالرماد ليجعلها رقيقة . . . هل تعرف كيف تصنع النفاخة من المثانة ؟

— طبعا .

— اسمع اذن . جفف المثانة ونفخها . ورسم عليها بوزا مرعبا . . . — ضحك انيسيم . — لا ادرى اين رأى مثل هذا البوز الفظيع . وانتظرنا حلول الظلام وتسللنا خلسة الى عتبة باب ايغور وشددنا تلك النفاخة بخيط الى الضلع الاعلى للباب . . . وعندما فتح ايغور الباب فى الصباح ليخرج من المنزل صعق لان هذا البوز يحملق فى وجهه مباشرة . . . كاد الرجل يخرى فى سرواله . صفق الباب وهرع الى فجوة المدخنة وهو يجأر : «الحقونى ! ابليس دخل بيتى !»

قهقه الشيخ القادم من المدينة بصوت عال حتى دمعت عيناه . . .

— الى اى حد ارتعب الرجل ؟! خا-خا ! . .

— وفيما بعد التصقت بايغور كنية «ابليس» .

— وذات مرة — وكنا قد كبرنا — اثناء الحش ايضا . . . كان معنا ميكولاى روغودين ، وهو فلاح ماكر جشع . قال لغرينكا فى المساء : «غرينكا ، اسرج حصانا ، حتى وان كان حصانى ، واسرع الى القرية واقتنص دجاجا . فأنا راغب فى اكل الدجاج» . اسرج غرينكا الحصان دون تفكير طويل وتوجه الى القرية . وبعد فترة قصيرة احضر خمس دجاجات مذبوحات . فرحنا جميعا وطبخناها فى الحال والتهمناها بشهية . وكان ميكولاى يأكل ويمتدح غرينكا على شطارته . فقال له غرينكا : «كل ، يا عم ميكولاى ، حلال عليك ، فهى دجاجاتك» .

ضحك العجوزان بملء رئتيهما . واشعل القادم من المدينة سيجارة .

— ما ابشع الشتائم التى اطلقها فيما بعد . ما العمل ؟ فهو الذى ارسل الصبى .

— هكذا اذن . . . — مسح الشيخ القادم من المدينة عينيه . ولاذ بالصمت متأملا .

صمتا طويلا ، وكل منهما غارق فى افكاره ، بينما كانت الحياة خارج السقيفة تفور وتحتد ، وتكشف عن جمالها تحت الشمس بمزيد من الصفاء المذهل المحير . ثم قال انيسيم :

— انا ذاهب بعون الله . . . يبدو ان الحر خف قليلا .

— لا يزال شديدا . . .
— لا بأس .
— هل انت بحاجة الى البقرة لهذا الحد ؟
— كيف لا ؟

التقط انيسيم المحش وحدّ سكينه بالمحك . . . وتطلع الى صفوف العشب المحشوش ، فقد اشتغل بشكل لا بأس به منذ الصباح . اما الشيخ القادم من المدينة فكان يتطلع اليه . . . باهتمام وأسى .

— انا ذاهب — كرر انيسيم ، فقال الشيخ الآخر :
— اذهب اذن . ه . . . وداعا . — نظر الشيخ الى عيني انيسيم مباشرة ولم يقل شيئا ، ثم شد على يده بقوة واسرع يرتقي الهضبة نحو الطريق . بلغ الطريق والتفت وتوقف لحظة ثم انصرف . واختفى من جديد وراء المنعطف .

ظل انيسيم يحش العشب حتى ساعة متأخرة .

ثم ذهب الى البيت .

في البيت كانت العجوز تنتظره بفارغ الصبر . لاحظ ذلك في الحال . فقد بادرته حالما رأته عند الباب :

— جاء الينا شخص بسيارة طويلة . وسأل عنك ، وقال : — اين عجوزك ؟

جلس انيسيم على العتبة ووضع صرته على الارض . . .

— هل يرتدي قبعة ؟ هل هو شيخ . . .
— نعم ، يرتدي قبعة ، وبدلة . . . كالمعلم .

صمت الشيخ طويلا وهو ينظر الى الارض تحت قدميه . فقد تذكر الآن بالذات ذلك الشبه الغريب الذي اثار دهشته نهار اليوم . تذكره الآن ! ولكن . . . هل من المعقول ؟!

— الم يكن هو غرينكا ؟ الم تلاحظي شيئا ؟
— سامحك الله ! لقد جننت . تظنه عاد من الآخرة ؟

الافضل ان لا تحدث المرأة بمختلف هواجس نفسك . فلن تفهمها . بوسعك ان تقص عليها ، هي الحمقاء ، كل السخافات بلا حياء وستصدقك ما دامت في عهد الصبا . اما في سن الشيخوخة فاذا حاولت ان تحدثها بأعز مكنونات نفسك تصبح انت احمق في الحال .

— وهل ذهب ؟



— نعم . وبعد الغداء اردت . . .

«هل من المعقول انه غرينكا ؟ هل من المعقول انه هو ؟»

لم يذق الشيخ طعم النوم طوال الليل . كان يفكر . وعند الفجر استقر على رأي : كلا ، ليس هو . فهناك مجرد شبه .

وما اكثر المتشابهين ! ثم ما الذي يجعله يخفي نفسه ! ربما ما كان يريد تعذيبي عبثا . فهو منذ حداثة عهده غريب الاطوار . . .

«هل من المعقول انه غرينكا ؟»

بعد اسبوع وصلت الى الشيخ وزوجته البرقية التالية :

«انيسيم كفاسوف

اخوك غرينكا توفي في الثاني عشر . اوصانا بتبليغكم . عائلة كفاسوف» .

كان ذلك هو اخوه غرينكا .

١٩٦٨

# قلب الام

وصل فيتكا بوزينكوف الى السوق فى مركز الناحية وباع شحما بمائة وخمسين روبلا (فهو فى حاجة ماسة الى النقود لانه مقدم على الزواج) . ودخل الخمارة «ليعب» قدحا او قدحين من النبيذ . شرب قدحين وخرج . اشعل سيجارة . . . فاقتربت منه فتاة وقالت :

— اسمح لى ان اشعل سيجارتى .

قدم لها فيتكا سيجارته لتشعل منها سيجارتها وراح يتطلع باهتمام الى وجهها النضير المنتفخ بعض الشىء . ولاحظ ان اصابعها ترتجف ، فسألها بصراحة : — من السكر ؟

— طبعا . — اجابت الفتاة الثملة ببساطة وصراحة ايضا ، وهى تأخذ بشغف نفسا طويلا من سيجارتها الرخيصة .

— وليس عندك ما تشترين به قدحا آخر ، اليس كذلك ؟ — اخذ فيتكا يطور فكرته وهو راض عن نفسه لانه يجيد فهم الآخرين عندما تضيق بهم الامور .

— وانت ؟ هل عندك ؟

(ما كان يوسع فيتكا ان يتصور بأية حال من الاحوال ، ان هذه الفتاة راقبته خصيصا عندما باع الشحم المملح وتربصت به عمدا قرب الخمارة) .

— فلنذهب لنخلصك من الوعكة . — اعجب فيتكا بالفتاة ، فهى مليحة ممشوقة القد . . . حتى انه تأثر للانتفاخ الطفيف فى وجهها ، وخصوصا للصراحة التى اعترفت فيها بفقرها .

دخلا الخمارة . . . فاشترى فيتكا قنينة من النبيذ واخذ قدحين . . . انزويا فى ركن الخمارة واجهزا على القنينة فى الحال . شرب فيتكا قدحا ونصفا وصب الباقى للفتاة بطيبة خاطر . وخرجا من الخمارة ووقفا قرب بابها يدخنان . انتعش فيتكا ، وتحسنت حال الفتاة ايضا . وشعر كلاهما بالارتياح .

— هل تسكنين هنا ؟

— ليس بعيدا ، هناك — اومأت الفتاة واضافت — شكرا لك ، تحسنت حالى .

— هل شربت كثيرا بالامس ؟ — سألها فيتكا ببسر وبساطة اثارا دهشته .

— حدث شىء من هذا القبيل .

— ربما تريدين اكثر ؟



— ممكن ، على العموم . . . ولكن ليس هنا .

— اين اذن ؟

— يمكن ان نذهب الى بيتى ، فلا احد عندى . . .

دب فى صدر فيتكا شىء ما ، كالسكر ، كالعسل . فالوقت لا يزال مبكرا . وهو لا يحتاج الى اكثر من ساعة ونصف لكى يصل الى قريته بالباص . هناك ، اذن ، متسع من الوقت للقيام بكل ما يلزم .

وعندما كان فيتكا يفكر بكمية الشراب التى يتعين عليه شراؤها قالت له الفتاة :

— عندى صويحبة يمكن ان ادعوها .

ولذا اشترى قنينة من الفودكا وقنينتين من النبيذ . وقال :

— سنقضى عليها بمساعدة المزة . هل عندك مزة ؟

— سنجد شيئا ما .

وغادرا السوق كصديقين حميمين .

— لماذا جئت ؟

— بعت شحما . فانا بحاجة الى نقود لانى انوى الزواج .

— صحيح ؟

— ساتزوج . حان الوقت لاستقر . — عجيب . لم يفكر فيتكا حتى بانه يتصرف تصرفا شاذا ازاء خطيبته لانه ذاهب الى مكان ما برفقة فتاة غريبة وهو يشعر بالارتياح معها اكثر مما مع خطيبته . فذلك اكثر متعة .

— هل هى جميلة ؟

— لا ادرى . ستكون ربة بيت جيدة ، فهى تهتم بالشؤون المنزلية .

— والحب ؟

— لا ادرى . لم يعد الحب هذه المرة كما فى السابق عندما كان يغلى كالماء الساخن . ولكن يتعين على ان اتزوج فى وقت ما ، اليس كذلك ؟

— احذر كيلا تخطىء . والا ستندم فيما بعد . . . فتعوى مع انك غير مربوط .

— خلاص . تكالبت على النساء بما فيه الكفاية .

تحدثا على هذا النحو ، عموما ، حتى وصلا منزل الفتاة . (واسمها ريتا) . الا ان فيتكا لم يلاحظ كيف وصلا وبأية ازقة سارا . المنزل عتيق مظلم ، كسائر المنازل ، ولكنه سيظل قائما سبعين عاما اخرى دون ان ينهار .

الغرفة (وهى واحدة من ثلاث) نظيفة مريحة ، وتوجد فيها ستائر على النوافذ وسفرة على المائدة . فانتعش فيتكا وتحسن مزاجه ، وفكر كما اعتاد ان يفكر دوما عندما تعده الحياة بفرحة عاجلة : «على احسن ما يرام ، ترام تام تام» .

— اين صاحبتك ؟

— سأذهب وادعوها . كم تنتظر ؟

— طبعا ، ولكن اسرعى . طيب ؟

— شغل البيك اب كيلا تضجر . ساعود سريعا .

ولكن لماذا يشعر فيتكا بكل هذا الارتياح مع هذه الفتاة ؟ تعارفا خمس دقائق لا اكثر . وهذه هى النتيجة . فما اغرب الحياة ! عينا الفتاة كئيبتان متأملتان ذكيتان . وعندما تبتسم هى لا تبتسم عيناها ، فيضفى ذلك على محياها المستدير روعة محيرة ، روعة امرأة صغيرة متعبة . وصار فيتكا يشعر بعطف مفاجىء عليها تارة ، ويرغب اشد الرغبة تارة اخرى فى احتضانها وعصرها وامتصاص شفتيها المنتفختين البليلتين .

انصرفت ريتا . واخذ فيتكا يجوب الغرفة دون ان يشغل البيك اب ، فبدونه كان قلبه ينبض فى توجس لذيذ .

ويتذكر فيتكا ان صاحبة ريتا جاءت فيما بعد . مظهرها اسوأ وسنها اكبر ، وهى مستهلكة معلوكة ومداهنة خبيثة . بدأت تثرثر حالما دخلت ، وقالت انها عملت فى حينه بهلوانة فى السيركس . ثم شربوا . . . وقبل فيتكا ريتا وهم جلوس عند المائدة . فضحكت صاحبتها مستحسنة فعلته ، بينما ضربت ريتا بيدها ضربة خفيفة على كتف فيتكا وكأنها تمانع ، ولكنها لامسته بنهديها المكورين وعانقت رقبته بيدها الاخرى فدارت افكار ساخنة فى رأسه الساخن :

«تلك هى الحياة ! . . تلك هى الحياة الفوارة المنشودة . ما اذكانى !» .

وبعد ذلك لم يعد فيتكا يتذكر شيئا على الاطلاق . عاد الى رشده قرب احد الاسيجة فى ساعة متأخرة من الليل . . . حاول ان يتذكر بشق الانفس اين هو وماذا حدث له . كان رأسه يطن ، وصدغاه ينفجران الما . وجف بلعومه وتخشب . وتذكر بصورة مائعة مزعزعة شفتى ريتا التاعمتين الطيعتين . . . وفهم بانهما سقيتاه منوما ، وسرقتا النقود طبعا . انتفض بشدة لسرقة النقود . نهض بصعوبة وراح يبحث فى جيوبه فلم يعثر عليها . استند الى السياج واخذ ينظر حواليه ، فلم ير ما يشبه منزل ريتا . كل شىء يختلف ، كل المنازل هنا تختلف عن منزلها .



# وثائق مصورة عن الكاتب والممثل والمخرج

فاسيلى

شوكشين

تصوير :

غنيفاشيف

تيريخوفا

كوفتون

كوتشيروف

كوزين

وغيرهم

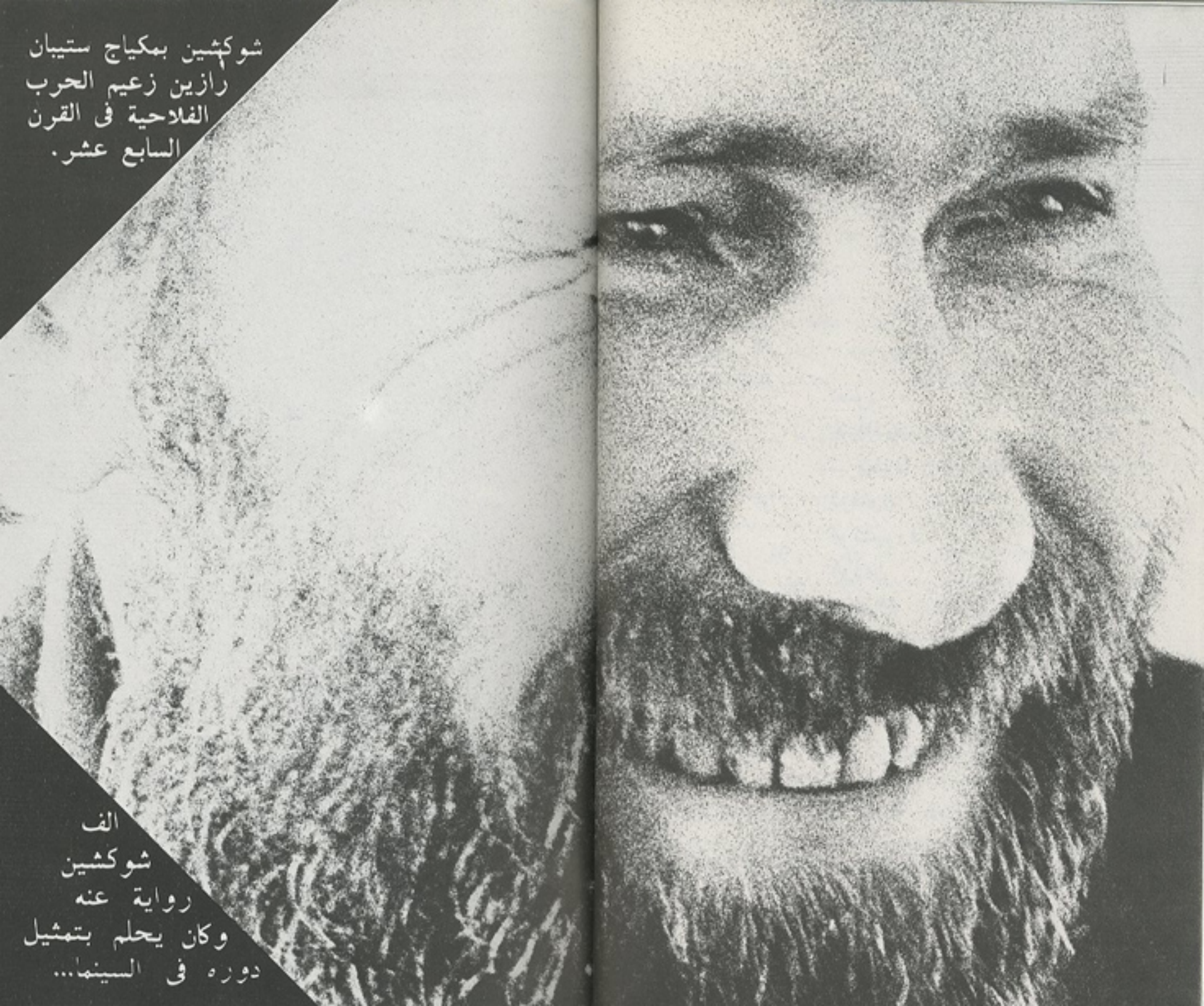

شوكشين بمكياج ستيبان رازين زعيم الحرب الفلاحية فى القرن السابع عشر.

الف شوكشين رواية عنه وكان يحلم بتمثيل دوره فى السينما...

اثناء تصوير فلم
« العناقيد الحمراء »

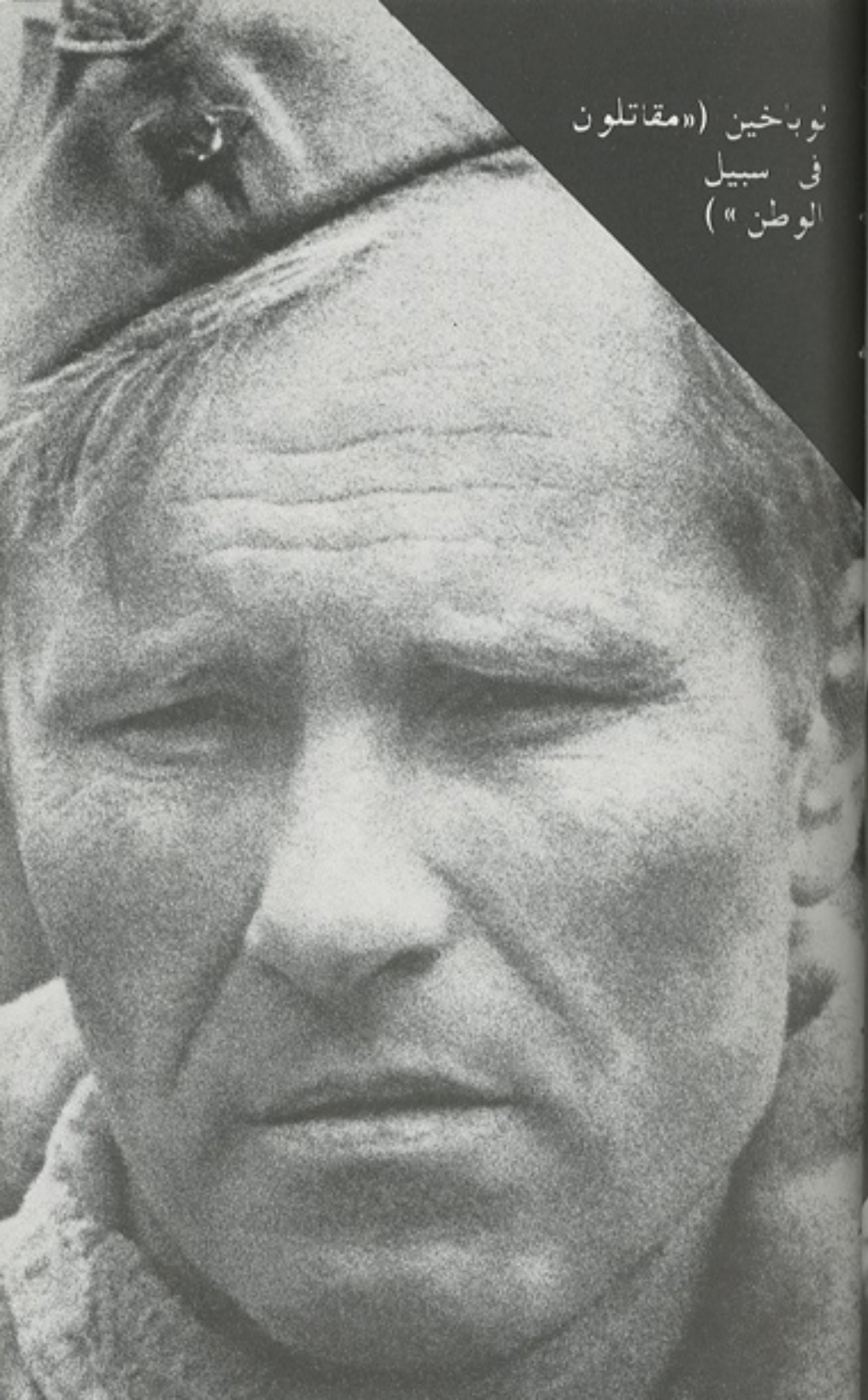

نوبلخين («مقاتلون
فى سبيل
الوطن»)

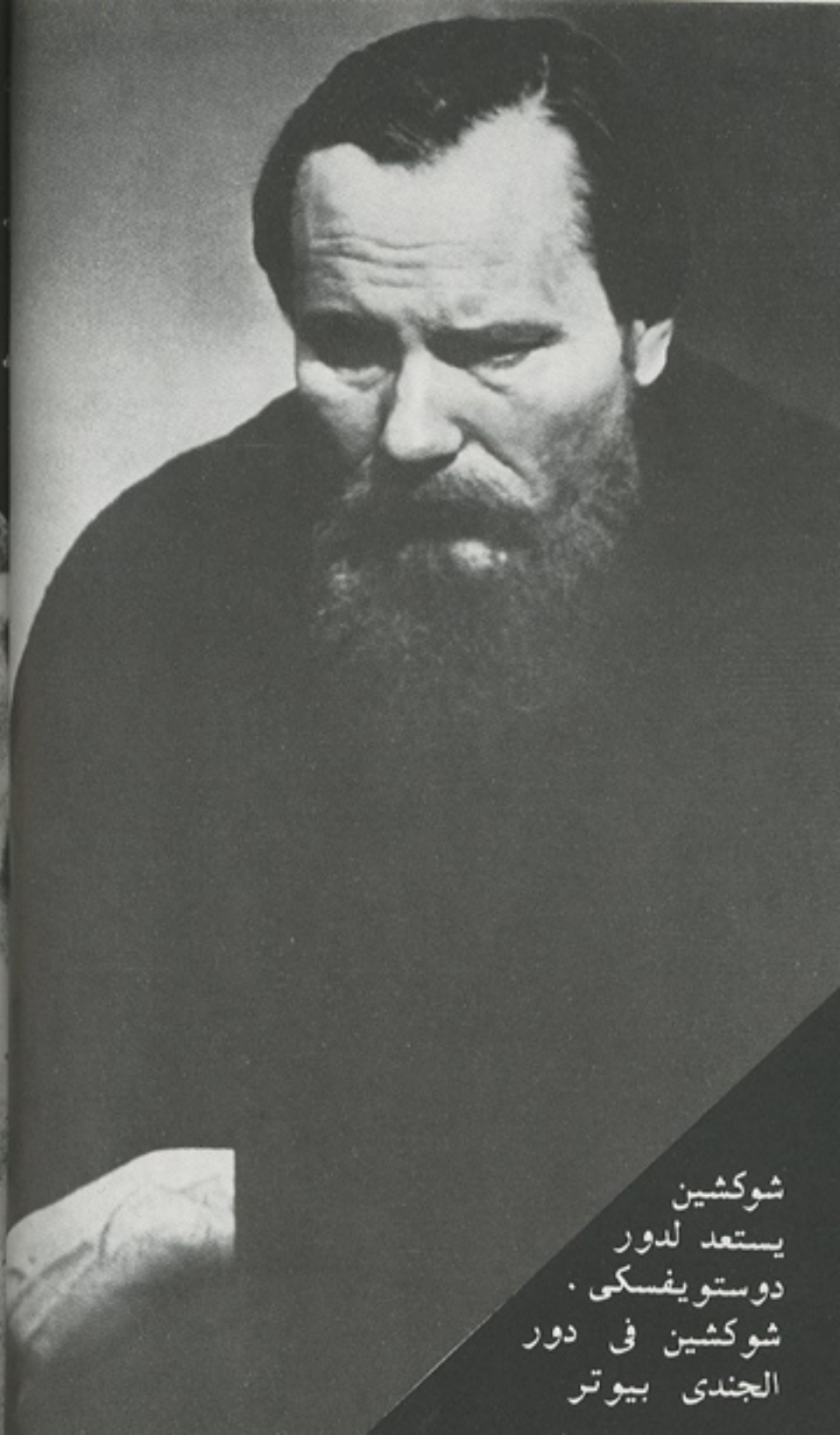

شوكشين
يستعد لدور
دوستويفسكى .
شوكشين فى دور
الجندى بيوتر

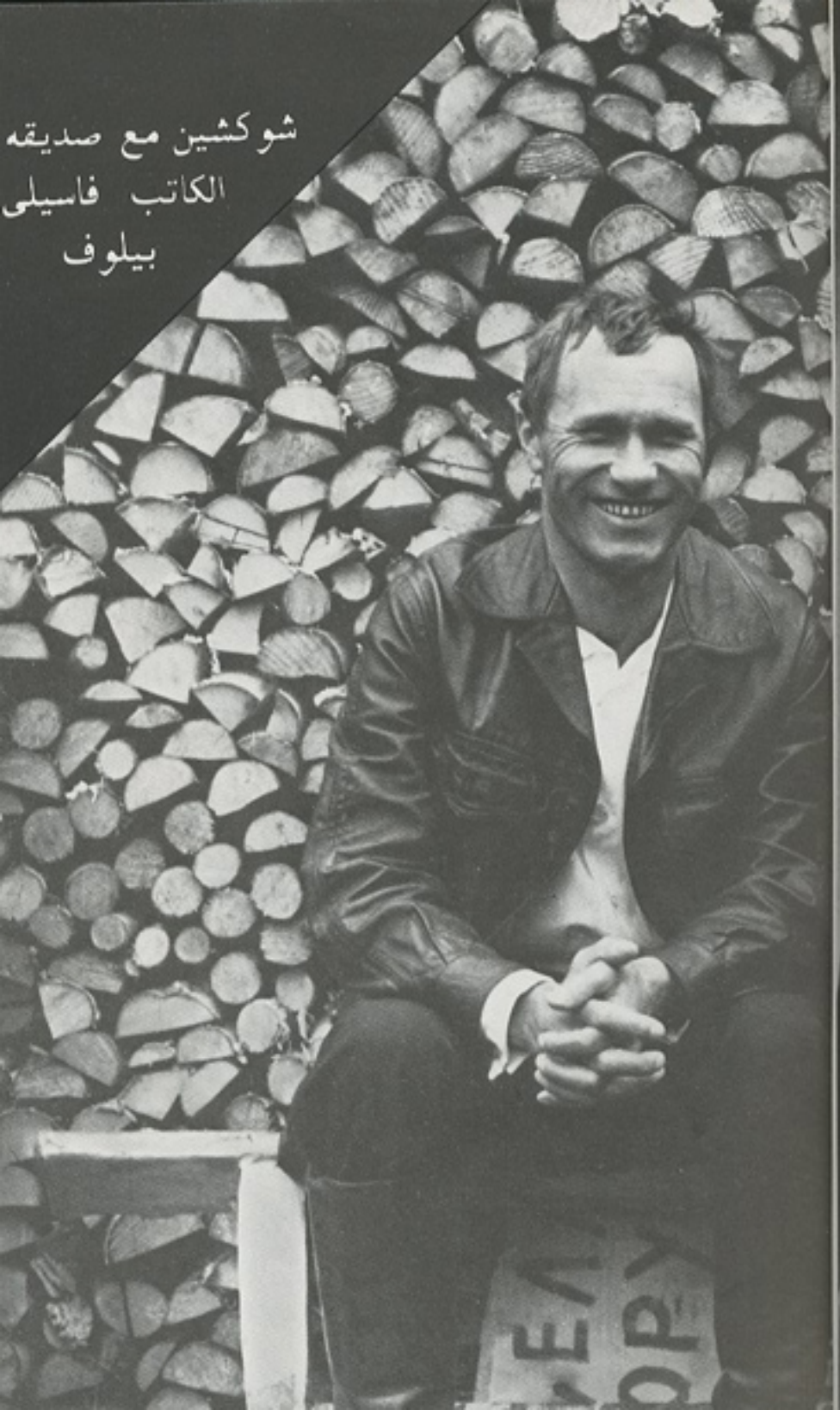

شوكشين مع صديقه
الكاتب فاسيلى
بيلوف

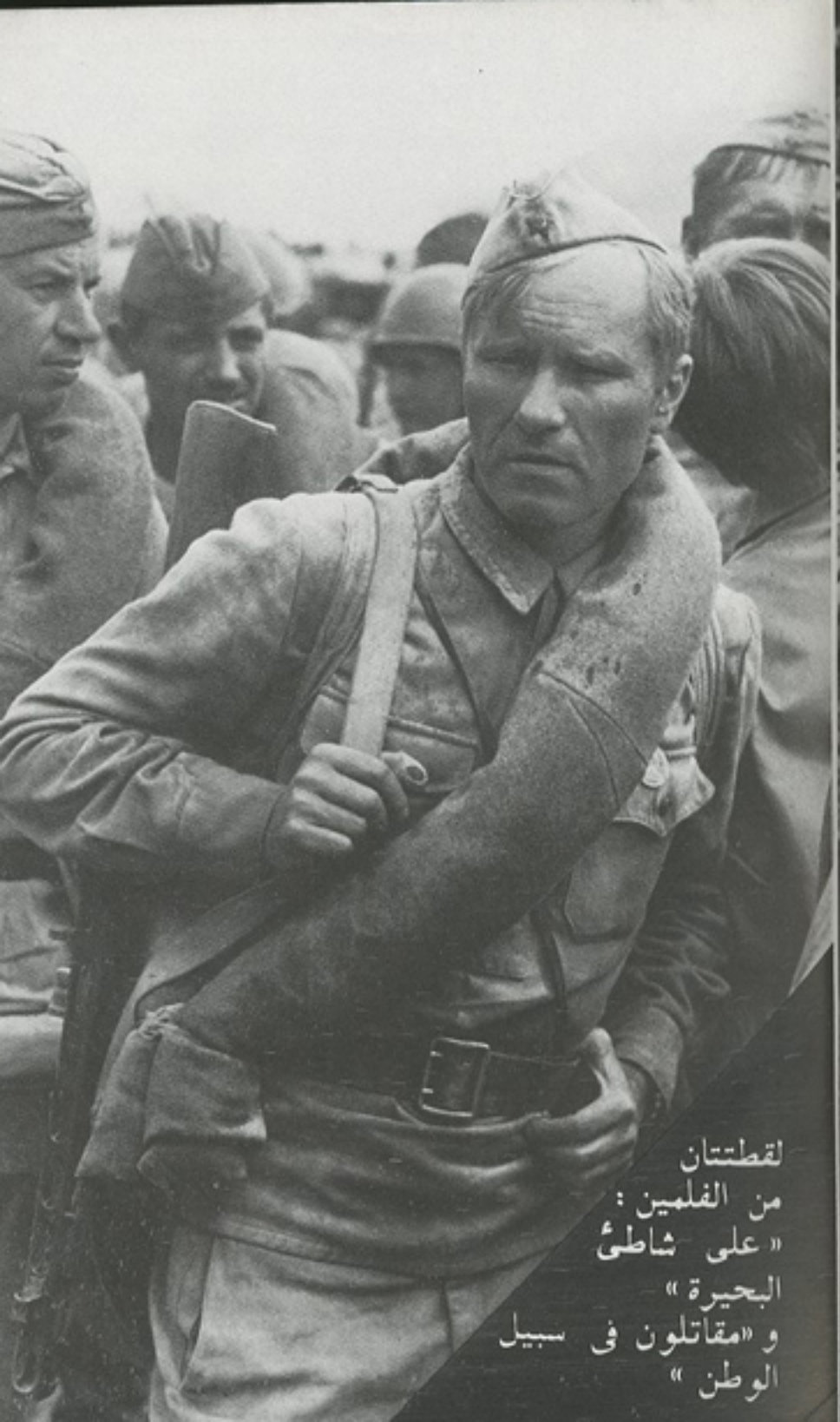

لقطتان
من الفلمين :
« على شاطئ
البحيرة »
و « مقاتلون فى سبيل
الوطن »

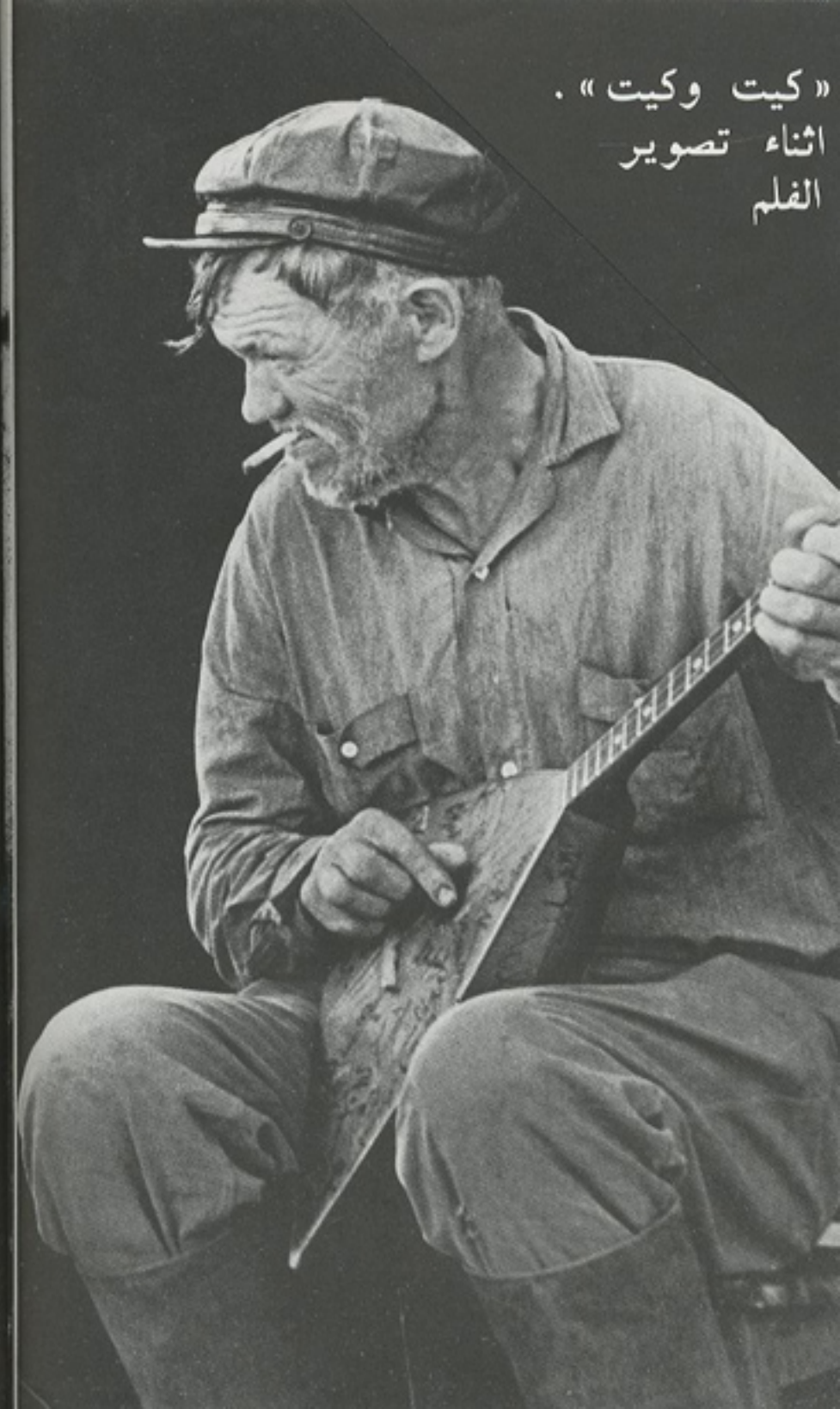

« كيت وكيت » .
اثناء تصوير
الفلم

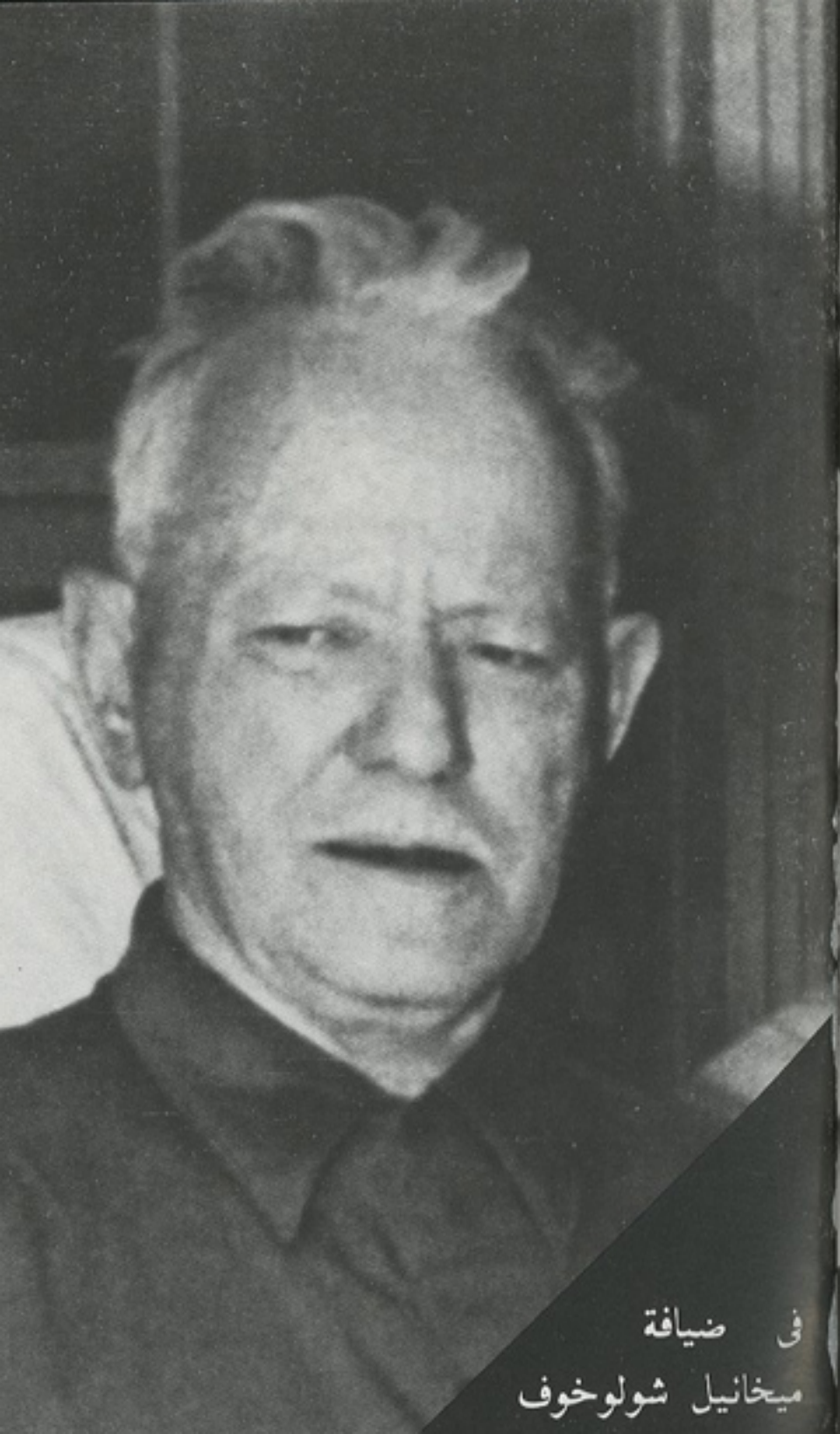

فى ضيافة
ميخانيل شولوخوف

« العناقيد
الحمراء » ،
لقطة من الفلم

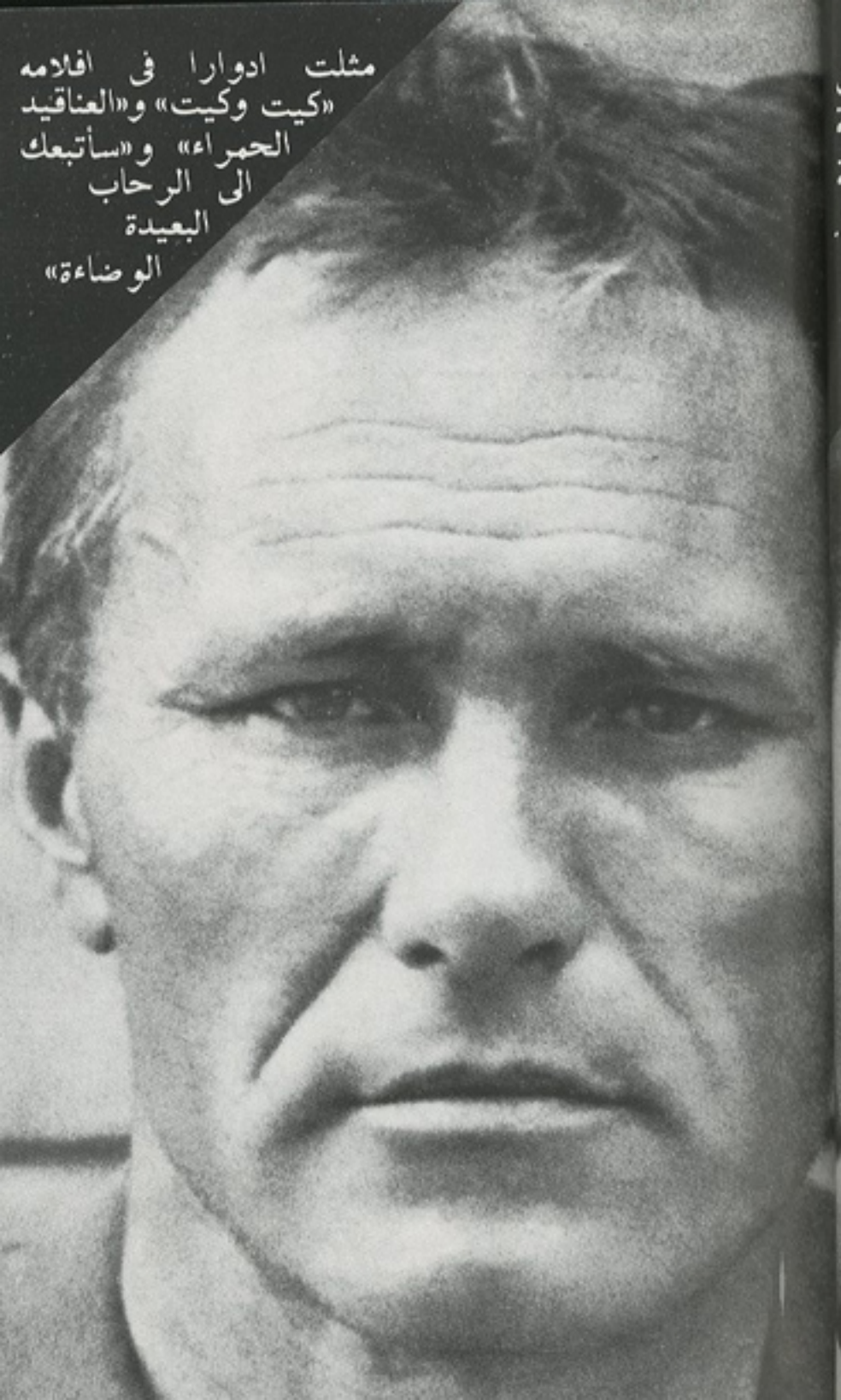

مثلت ادوارا فى افلامه «كيت وكيت» و«العناقيد الحمراء» و«سأتبعك الى الرحاب البعيدة الوضاءة»

فاسيلى شوكشين وزوجته ورفيقة حياته الممثلة فيدوسييفا.

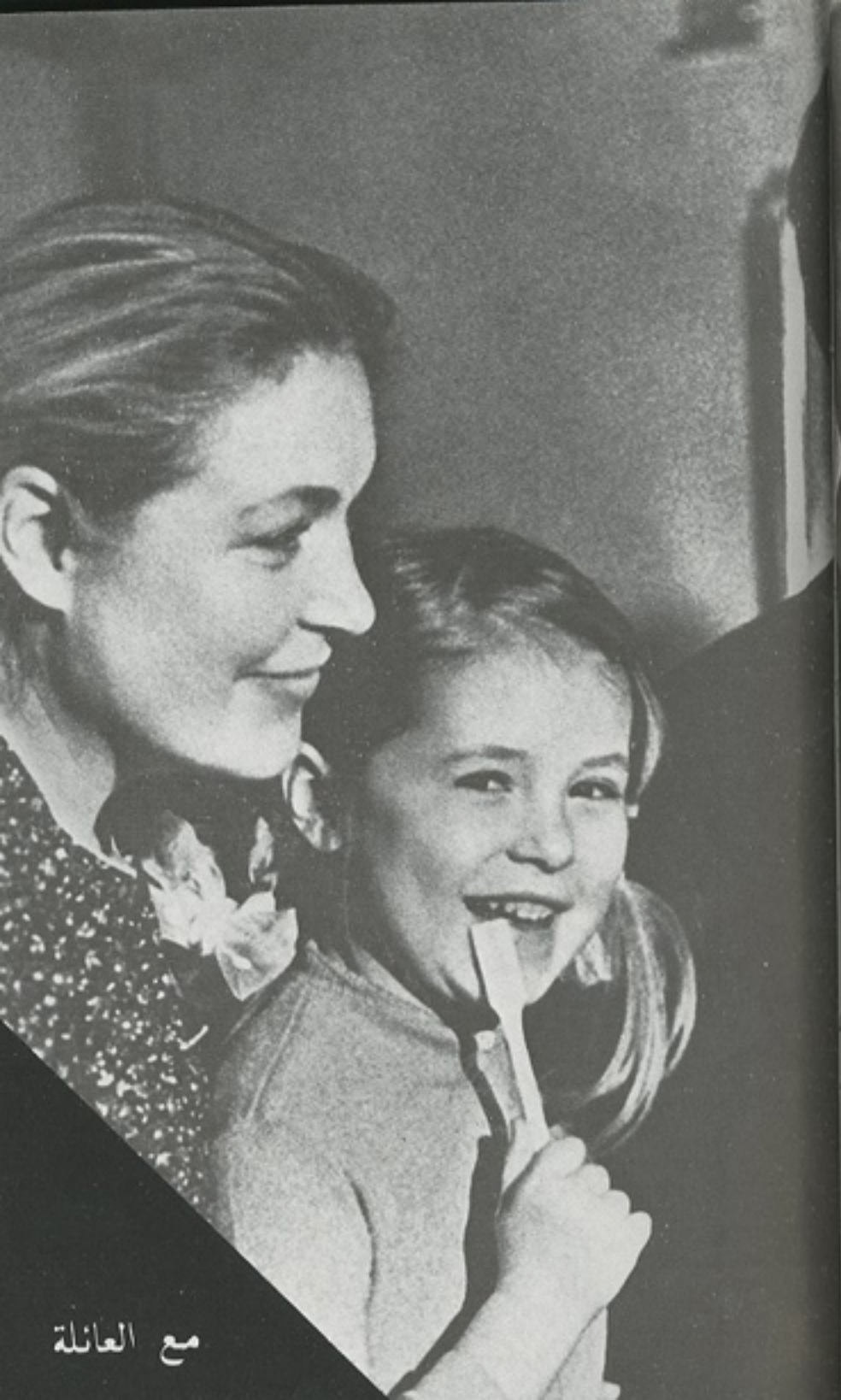

مع العائلة

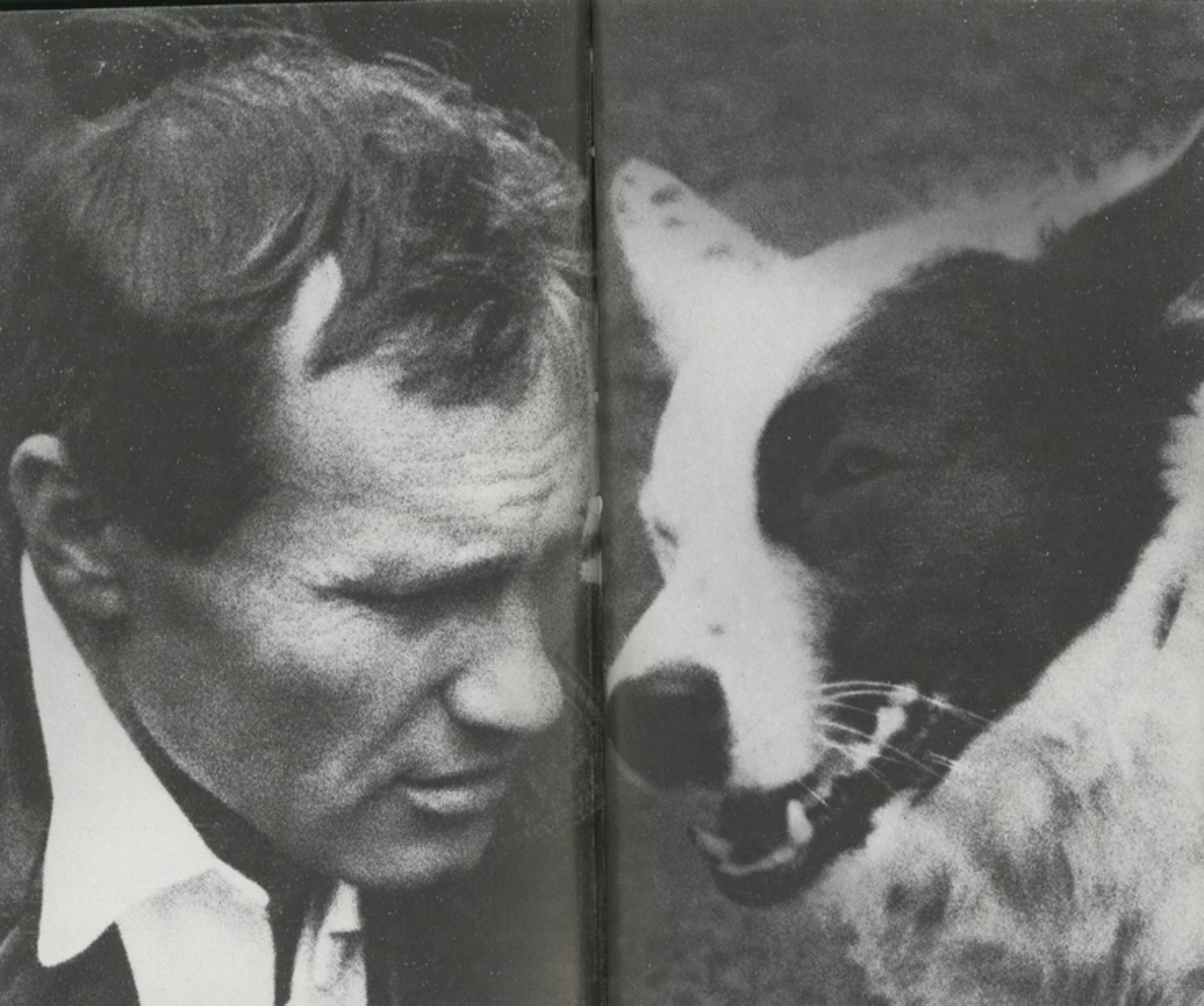

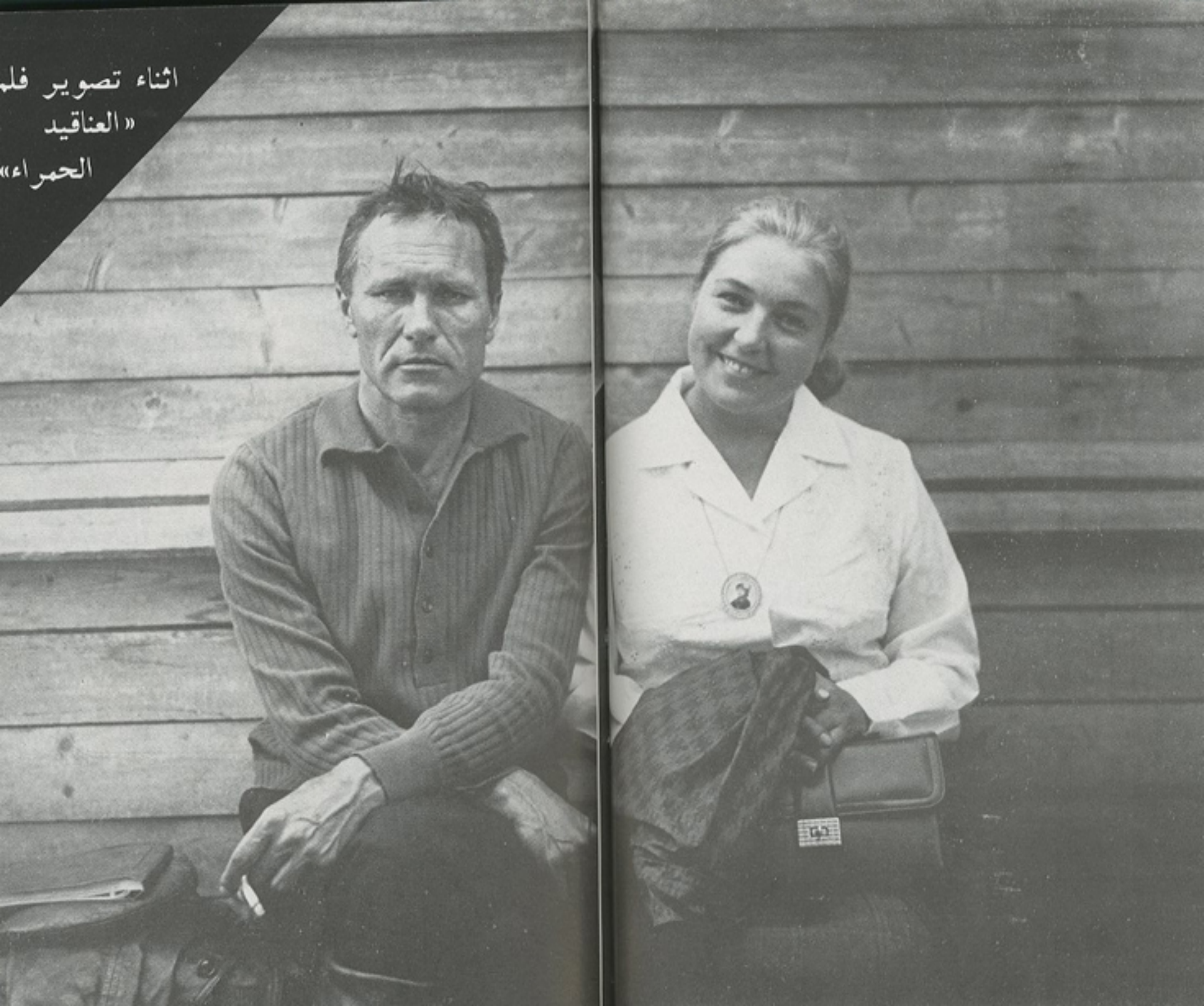

اثناء تصوير فلم
«العناقيد
الحمراء»

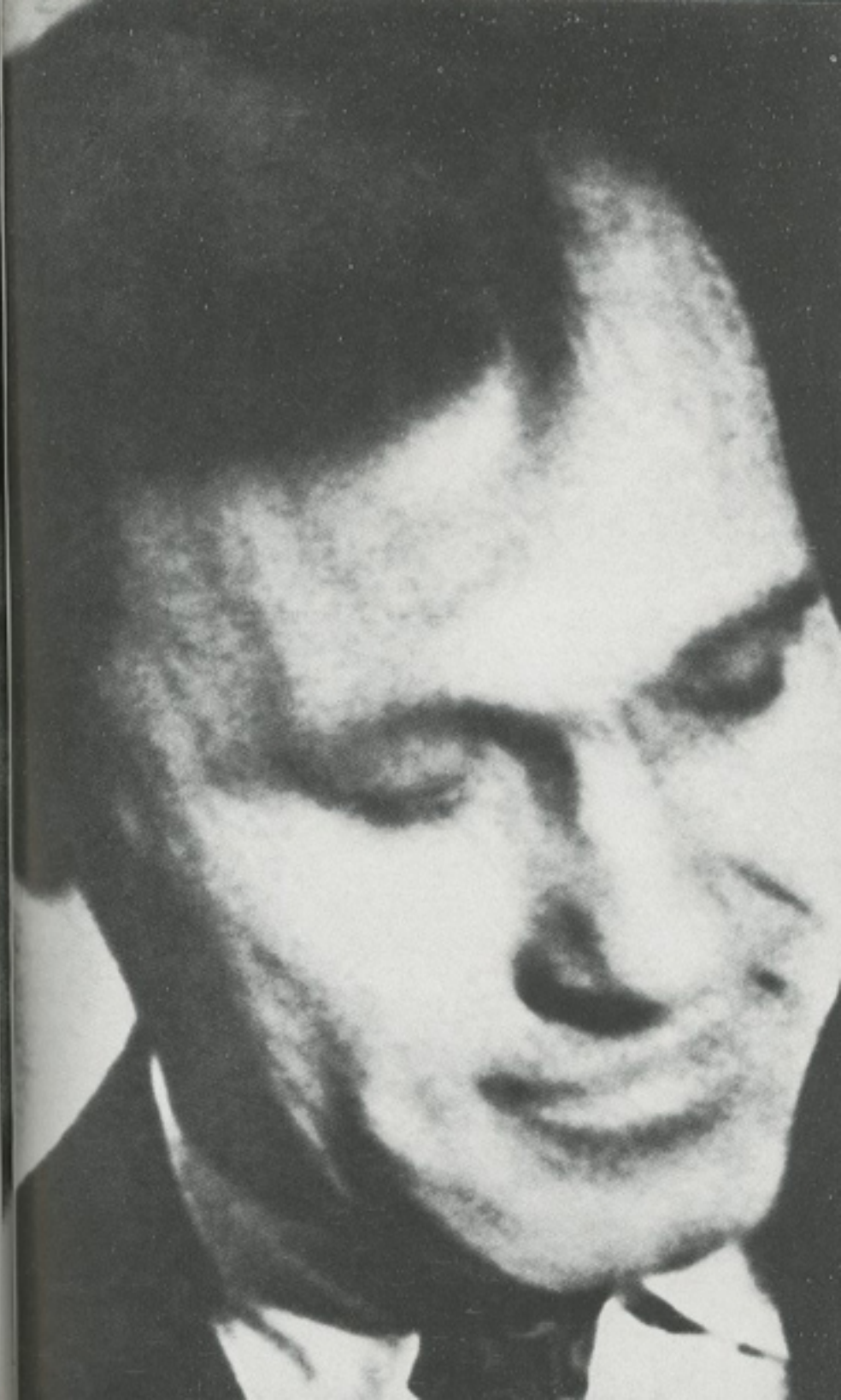

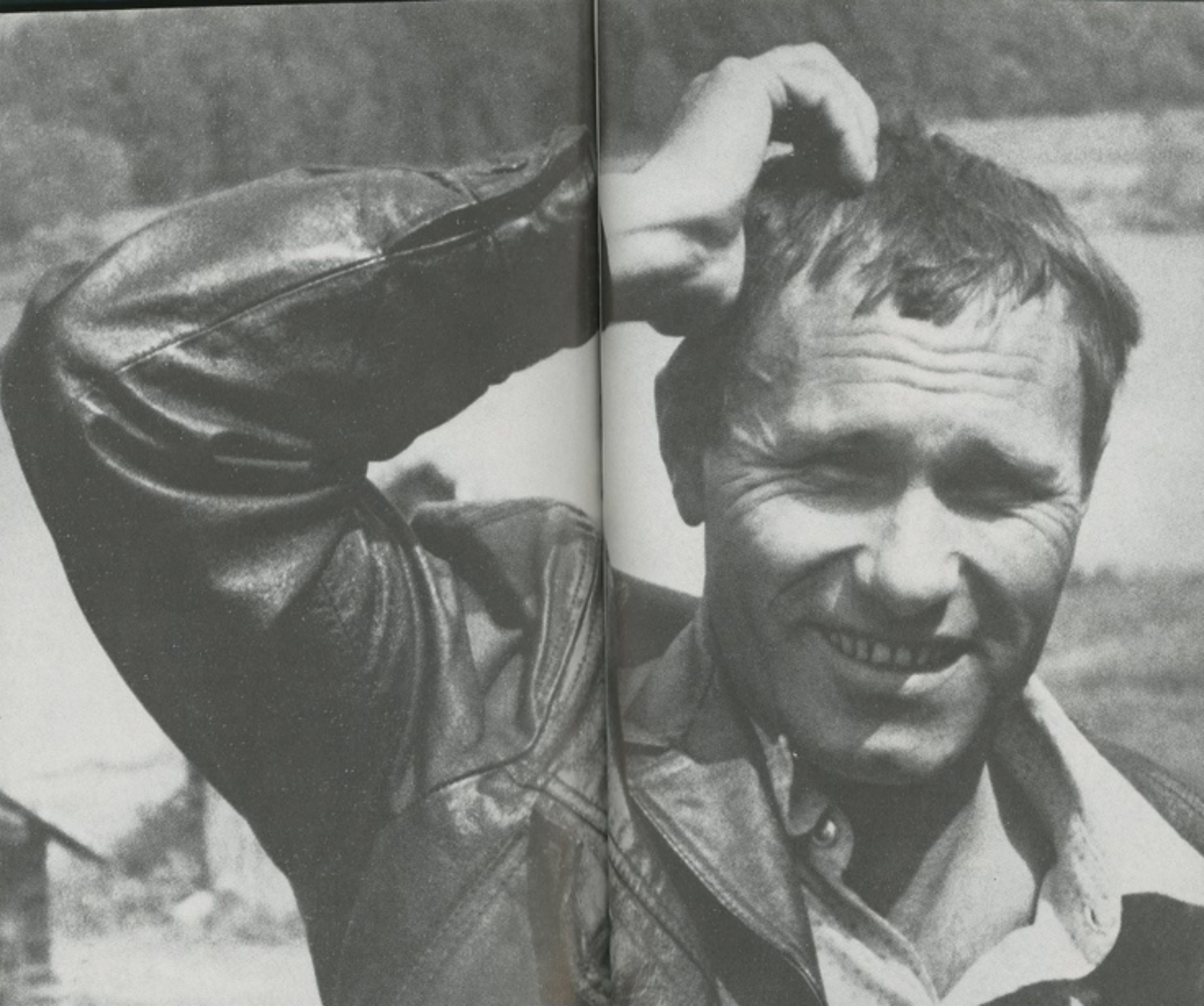

شوكشين فى
مرج بمسقط رأسه
قرية سروستكى.

ماريا شوكشينا
والدة الكاتب

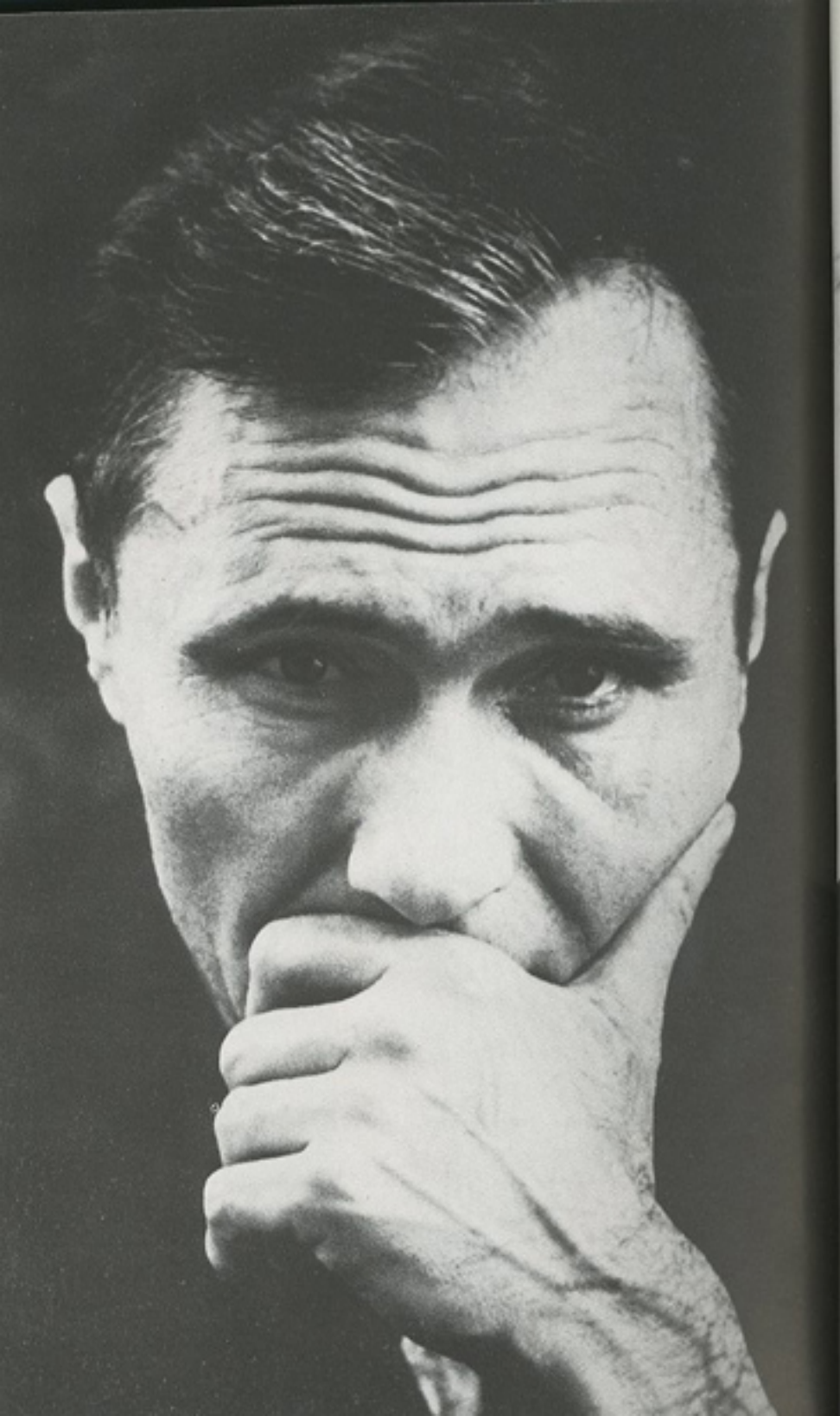

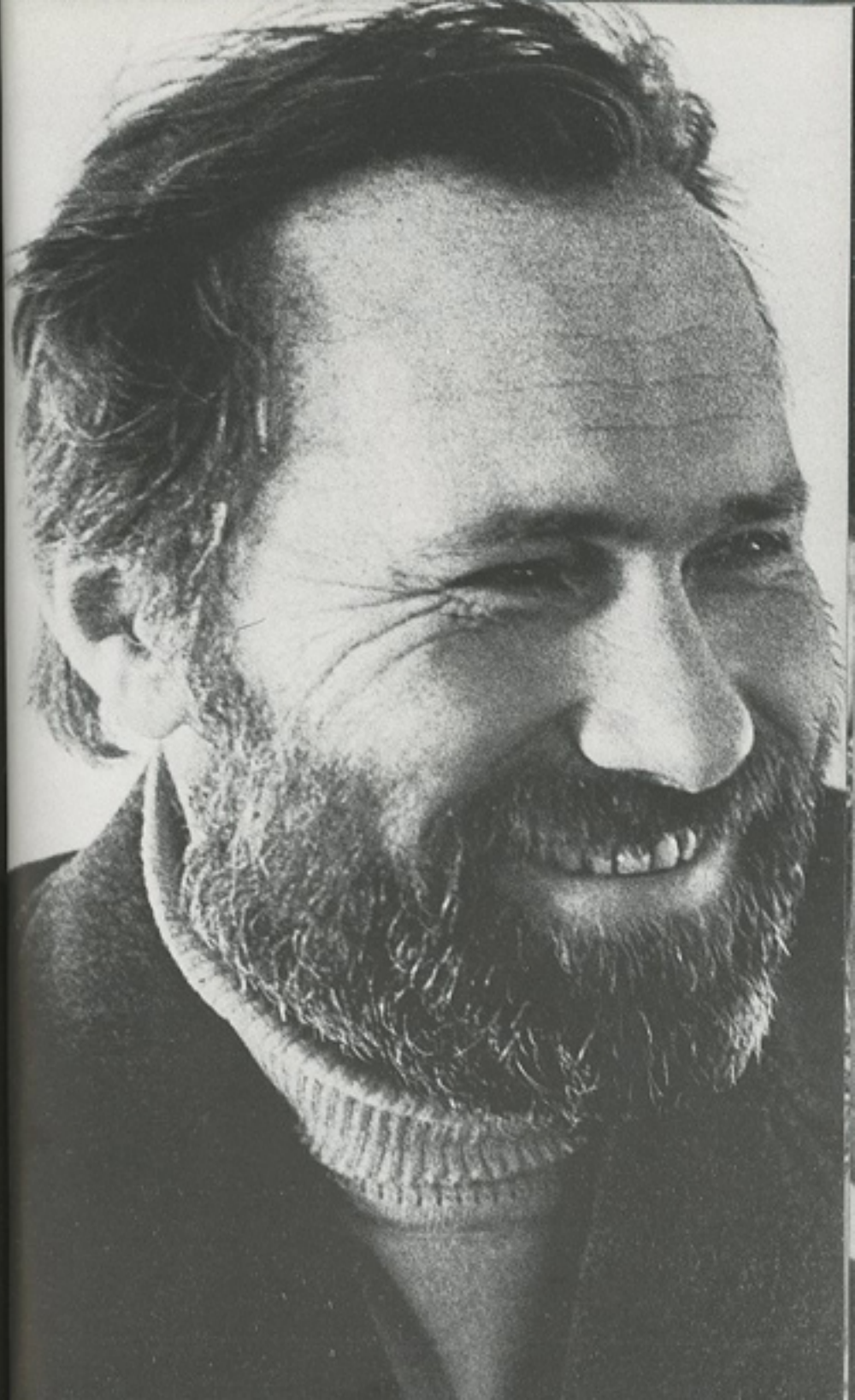

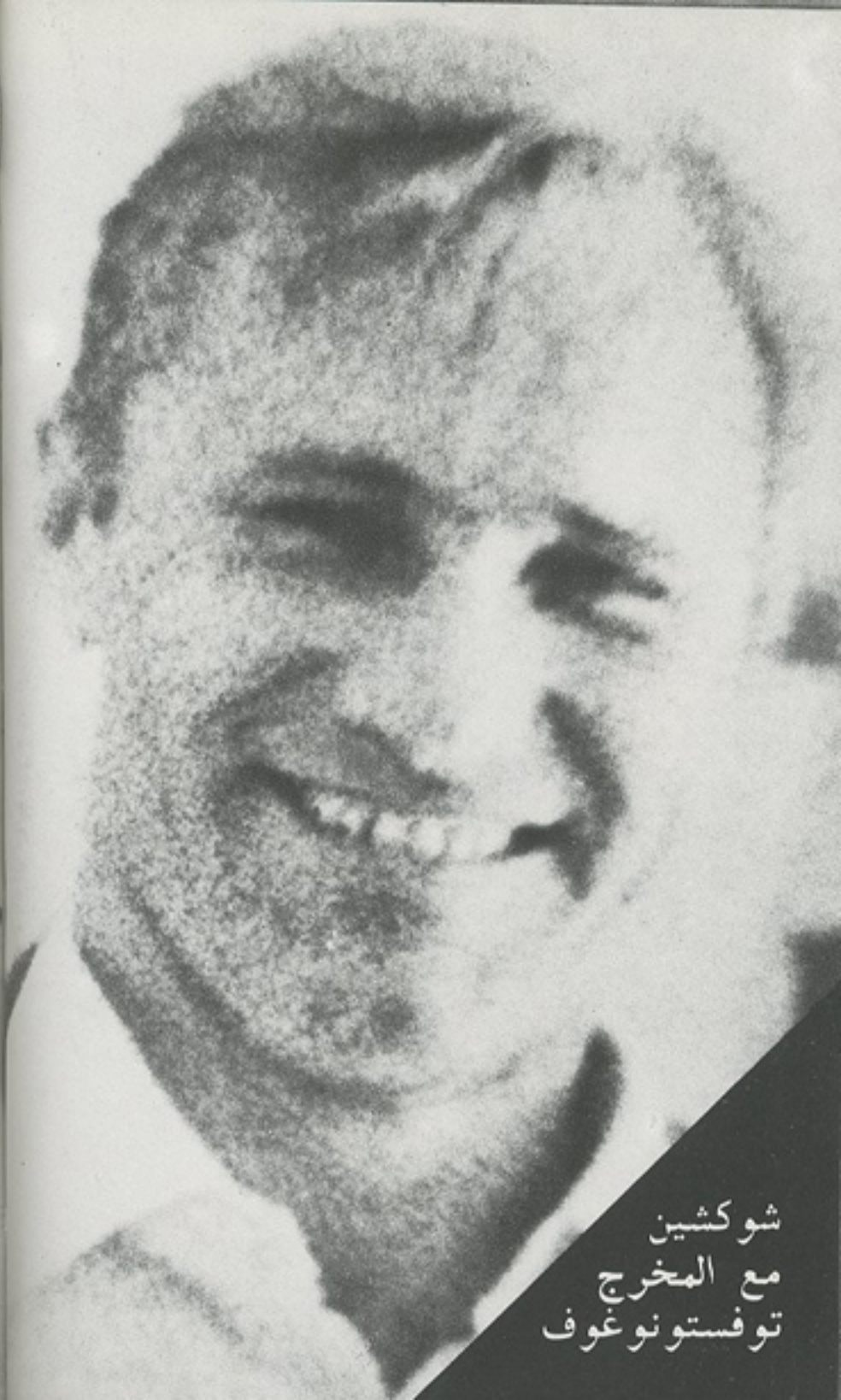

شوكشين
مع المخرج
توفستونوغوف

على نهر
كاتون حيث
ترعرع الكاتب
المقبل.

كان فيتكا قد خبأ ورقة من فئة عشرة روبلات فى مكان خفى ، فى جيب داخلى . دسها فيه تحوطا للطوارىء منذ ان كان فى السوق . تحسسها فوجدها هناك . سار على غير هدى حتى قابل اول عابر سبيل وسأله عن موقف الباصات . فاوضح له عابر السبيل العجوز كيف يصل الى الموقف . واتضح ان الموقف ليس بعيدا . فعليه ان يسير الى الامام ثم يستدير الى الزقاق على اليسار ، وبعد ذلك يتوجه الى شارع على اليمين ثم الى الامام . وهناك ، كما قال العجوز «ترى الموقف رأسا» . سار فيتكا . . . وبينما كان يسير باتجاه موقف الباص طفح صدره بالغيظ على نصابى المدن وكره هؤلاء الملاعين حتى خف عليه الصداع وحل محله وضوح مسعور فى الذهن وثارت فى نفسه قوة انتقامية كبيرة . وتمتم فيتكا :

— لا بأس ، سآخذ ثأرى ، سانتقم منكم .

ولكن لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك . الشىء الوحيد الذى يعرفه هو ان العاقبة غير محمودة .

قرب موقف الباصات خمارة تعمل لساعة متأخرة ، وامامها دوما حشد من الناس . اشترى فيتكا قنينة نبيذ واجهز عليها فى الحال حتى الثمالة دون ان يستخدم قدحا ، ثم قذف بالقنينة الفارغة الى الجنينة . . . وبادره واحد من ثلاثة رجال ثملين بعض الشىء :

— قد يكون فى الجنينة ناس .

خلع فيتكا حزامه البحرى ولفه من طرفه على قبضته وترك ابزيمه الكبير سائبا كمقبض حديدى . لقد جاءه هؤلاء الثلاثة فى الوقت المناسب وكأنه كان ينتظرهم .

— معقول ؟ ! — تظاهر فيتكا بالدهشة — تقول هناك ناس ؟ هل يوجد فى هذه المدينة الجرباء ناس ؟

تبادل الثلاثة النظرات .

— فمن يعيش هنا فى رأيك ؟

— كلاب !

هجم الثلاثة على فيتكا وهجم هو عليهم . . . سقط احدهم فى الحال من ضربة الابزيم على رأسه . ابزيم فيتكا فظيع لانه مزود بسبيكة من الرصاص ملحومة فى قعره الداخلى . وحاول الآخران ان يبلغا فيتكا بالقدم او اليدين ، فقد كانا يحافظان على رأسيهما ، ثم جأرا :

— الحقونا !



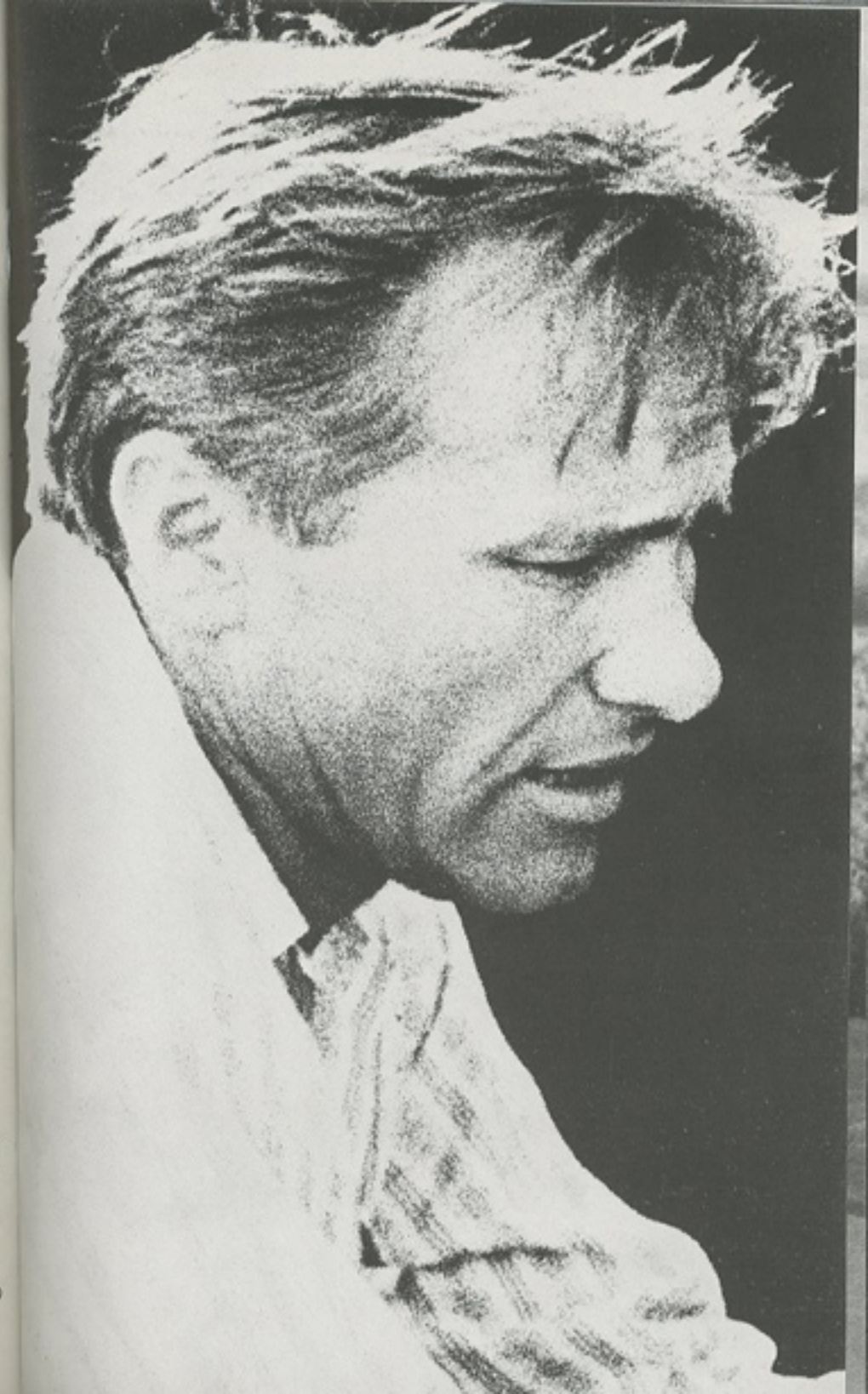

وهرع اليهم خمسة اشخاص . . . فراح الابزيم الثقيل يجول ويصول . فيلطم الابدان بصوت لين مكبوت . وسقط اثنان او ثلاثة آخرون . . . وتلقى فيتكا ضربة من قنينة على رأسه من الخلف ، ولكنها انزلقت فصمد فيتكا . وابتهجت روحه المهانة وحصلت على الاطمئنان المنشود .

اطلق المهاجمون الشتائم وتكوموا بصورة خرقاء وراحوا يشوشون على بعضهم البعض بالنصائح وغيرها ، فانتهز فيتكا هذه الفرصة وراح يكيل لهم الضربات وهو يصيح :

— هل كنتم بهلوانيين ؟ ! هل عملتم فى السيركس ؟ !

وهرع اليهم الشرطة . . .

زحف الحشد نحو فيتكا وحاصره فى الركن بين الخمارة والسياج . وكان فيتكا يذب عن نفسه . وافسح الحشد المجال للشرطة فتقدموا الى الامام ، الا ان فيتكا انهال على رأس احدهم بضربة عشوائية من الابزيم فاوقعه ارضا . ندت عن الجميع آهات واستولى عليهم الارتباك . وادرك فيتكا انه اقدم على فعلة لا تغتفر فالقى بالحزام . . . واقتادوه الى زنزانة التوقيف .

بلغ نبأ المصيبة ام فيتكا فى اليوم التالى . فقد استدعاها شرطى القرية فى الصباح واخبرها بما اقترفه فيتكا فى المدينة . فارتعبت الام :

— يا الهى ! باى عقوبة سيحكمون عليه ؟

— بالسجن . من كل بد . اصابة الشرطى شديدة . وهو فى المستشفى الآن . عقوبة هذه الافعال هى السجن الاكيد . يمكن ان يحكموا عليه بالسجن خمس سنوات . فهل جن يا ترى ؟

— يا عزيزى ، يا ملاك الرحمة ! — ابتهلت اليه الام — ساعده بشكل ما !

— ماذا تقولين ؟ كيف استطيع مساعدته ؟

— ربما شرب ، فهو يتعارك عندما يشرب . . .

— لا استطيع ان افعل شيئا ، هل انت فاهمة ؟ وهو الآن فى التوقيف وقد اقاموا عليه الدعوى من كل بد .

— من الذى يستطيع ان يساعده ؟

— لا احد . من يستطيع ؟ اذهبى الى دائرة الشرطة لتعرفى التفاصيل على الاقل . وهم ايضا . . . كيف يستطيعون مساعدته هناك ؟

ام فيتكا عجوز نحيفة نشيطة وخفيفة الحركة راحت تجوب القرية ، فاسرعت



الى رئيس المجلس الادارى الذى بسط يديه يائسا هو الآخر وقال :

— كيف استطيع مساعدته ؟ يمكننى ان اكتب له صحيفة اعمال فقط . . . فيتعين على فى كل الاحوال ان اكتبها . وسأكتب له صحيفة جيدة .

— اكتبها ، اكتبها بافضل لهجة يا رئيسنا الحكيم . اذكر فيها انه فعل ذلك بسبب السكر ، وانه عندما لا يشرب لا يمس احدا بسوء . . .

— لن يسألوا هناك عما اذا كان السبب هو السكر ام لا ؟ فقد هشم رأس الشرطى . . . اعتقد الافضل ان تذهبى الى ذاك الشرطى ، فربما اصابته ليست شديدة ، ولكننى اشك فى ذلك . . .

— شكرا لك ، يا ملاك الرحمة ، شكرا لك .

— لا شكر على الواجب .

واسرعت ام فيتكا الى مركز الناحية . كانت قد ولدت خمسة اطفال وترملت فى وقت مبكر . (كان فيتكا رضيعا عندما وصلها اشعار بمقتل ابيه فى عام ١٩٤٢) وقتل ابنها البكر ايضا اثناء الحرب عام ١٩٤٥ ، وفى العام التالى ماتت ابنتها بسبب الهزال والجوع . اما ابناها الآخران فقد ظلا على قيد الحياة . التحقا بالمدرسة المهنية ضمن وجبات التعبئة ، هربا من المجاعة المرعبة منذ ان كانا صبيين . وهما يعيشان الآن فى مدينتين مختلفتين . بذلت الام قصارى جهدها فى السهر على فيتكا . باعت كل ما عندها فظلت فى فقر مدقع ، ولكنها ربت ابنها حتى ترعرع قويا وسيما طيب القلب . . . كل شىء فيه جيد ، لولا عيب واحد . فهو حالما يسكر يغدو فى منتهى الحماقة . وهو شبيه بابيه من هذه الناحية . فالمرحوم ابوه لم يفوت اى شجار فى القرية .

وصلت الام الى دائرة الشرطة عندما كانوا يناقشون حادثة البارحة فى موقف الباصات . كانت الضربة التى سددها فيتكا الى الشرطى شديدة . فهو بالفعل راقد فى المستشفى خائر القوى كليا . وفى المستشفى كذلك اثنان من السكارى الذين تعرضوا لضربات ابزيم فيتكا الفظيع .

وكانوا يتفحصون الابزيم باهتمام . .

— وغد لعين . حول الحزام الى قبضة حديدية . فمن يتصور ان فى هذا الحزام كتلة معدنية ثقيلة ؟ من حسن الحظ ان الضربة لم تكن عمودية .

وفى تلك اللحظة دخلت عليهم ام فيتكا . . . حالما اجتازت العتبة ركعت على ركبتيها وندبت مولولة :

— يا ملائكة الرحمة والحكمة والتعقل ! . . تحملوا الاهانة التى تعرضتم لها ، تحملوها بشكل ما ، وسامحوا هذا الملعون ! فقد كان سكران . . . وهو عندما لا يسكر لا يبخل بآخر ما عنده ، ولم يعتد على احد مطلقا وهو صاح . . .

وتكلم اكبرهم رتبة . وكان حزام فيتكا فى يده . تكلم بوقار وهدوء وبلهجة ابسط كى تفهم الام كل ما يقول .

— تمهلى يا ام . انهضى ، انهضى ، فهذه ليست كنيسة . تعالى وانظرى . . .

نهضت الام واطمأنت بعض الشىء للنبرة الطيبة فى صوت مفوض الشرطة .

— انظرى الى حزام ابنك . خدم فى البحرية ، اليس كذلك ؟

— فى البحرية ، فى السفن التى . . .

— والآن انظرى ، هل ترين ؟ — قلب المفوض ابزيم الحزام ووزنه بيده — يمكن قتل انسان به . هذه حقيقة لا جدال فيها . ولو سدد البارحة ضربة عمودية من هذا الابزيم لاحد لحلت النهاية . جريمة قتل . فهو حتى بضرباته الاقفية صرع ثلاثة اشخاص يكافح الاطباء الآن لانقاذ حياتهم . وانت تقولين : سامحوه ! كيف نسامحه وقد اصاب ثلاثة اشخاص وجعلهم من المعوقين ان صح القول ؟ وكان احدهم يؤدى واجبه الرسمى . فكرى بنفسك : كيف يمكن ان نسامحه على هذه الافعال ؟

قلب الام مفعم بالحكمة . ولكن عندما تهدد الكارثة فلذة كبدها تعجز هى عن الانصات الى حكمة الآخرين ، ولا تعود للمنطق اية قيمة .

— يا ابنائى الاعزاء ! — هتفت الام وانتحبت — الا تحدث مثل هذه الامور بسبب السكر ؟ ! كل شىء يمكن ان يحدث . فتشاجر . . . اعطفوا عليه !

كان منظر الام يثير الشفقة . فان صوتها المشوب بالكآبة والاسى والقنوط يجعل السامع يرتبك ويتأثر . ومع ان الشرطة اناس شديدو المراس ولا تؤثر الشفقة فيهم فان بعضهم اشاح بوجهه وبعضهم الآخر اشعل سجائر .

— ليس عندى غيره . وهو معيل . ثم انه عازم على الزواج ، فماذا سيحدث للبنت اذا سجن ؟ هل يعقل ان تنتظره ؟ لن تنتظره ، ويا للاسف ، مع انها فتاة طيبة ومن عائلة محترمة .

— لماذا جاء الى المدينة ؟ — سأل المفوض .

— ليبيع الشحم فى السوق . نحن بحاجة الى النقود طالما نريد اقامة حفلة



الزفاف . فمن اين نحصل على النقود ؟ . .

— لم تكن عنده اية نقود .

— كيف ؟ يا الهى ، اين النقود ؟ سألت مرتعبة .

— هذا السؤال يجب ان يوجه اليه .

— يمكن انهم سرقوها منه . اسمع ، يا ولدى العزيز ، ربما . . . اللصوص سرقوها منه . . .

— اللصوص سرقوها ، فما ذنب شرطينا ؟ لماذا ضربه ؟

— بالصدفة . ضربه بالصدفة ولا بد . . . مع باقى المتشاجرين .

— اذا كان كل شرطى يضرب بالصدفة هكذا فلن يبقى عندنا شرطة فى القريب العاجل . يبدو ان اولادك يحبون الشجار كثيرا . — حاول المفوض التكلم بلهجة صارمة — لن يسامح على هذه الافعال . سيتلقى جزاءه بموجب القانون .

— يا ملائكة الرحمة الطيبين ! — ترجتهم الام من جديد — اعطفوا على انا العجوز على الاقل ، فانا لم ار شيئا من خيرات الدنيا الا فى الفترة الاخيرة . . . وهو فتى شغيل ، ولو تزوج لصار رجلا صالحا تماما ، ولتمكنت انا من تربية احفادى . . .

— افهمى ، يا امى . القضية لا تتوقف علينا . فهناك المدعى العام ! ولو اطلقنا سراحه لسألونا : باى سبب ؟ ليس لدينا حق فى اطلاق سراحه . ليس ذلك من صلاحيتنا . فهل ادخل السجن انا بدلا عنه ؟

— الا يمكن ارضاء ذاك الشرطى بشىء ؟ فعندى اقمشة . نسجت فى الفترة الاخيرة اقمشة كثيرة ، اعددتها لهما . .

— لن يأخذ منك شيئا . لن يوافق ! — قال المفوض بصوت يقرب من الصياح — لا تجعلى الناس اضحوكة . فليس ذلك شجارا بين صهر وحميه . انه اعتداء على هيئات السلطة !

— الى من اذهب الآن يا ولدى ؟ هل يوجد من هو اعلى منك مرتبة ام لا ؟

ونصح احد الحاضرين بان تراجع المدعى العام .

— يا ميلنيكوف ، خذها الى المدعى العام — امر المفوض . والتفت الى الام من جديد واخذ يكلمها مرة اخرى وكأنه يخاطب امرأة صماء او غبية :

— راجعى المدعى العام . فهو اعلى منا . ثم ان الدعوى امامه الآن .

فليوضح لك هل نستطيع نحن ان نفعل شيئا ام لا ؟ لا احد يريد ان يخدعك ، هل انت فاهمة ؟

وذهبت الام مع الشرطى ميلنيكوف الى المدعى العام .

فى الطريق حاولت ان تستدرج الشرطى .

— قل لى يا ولدى ، هل الضربة شديدة ؟

ظل الشرطى صامتا متأملا .

— كم سنة ستكون عقوبته اذا حكموا عليه ؟

واصل الشرطى الطويل سيره صامتا بخطوات واسعة .

وسارت الام جنبه بخطوات قصيرة متلاحقة وهى تتطلع فى وجهه متلهفة الى ما قد يقوله .

— لا تصمت ، يا ولدى ، اوضح لى . . . انت ايضا عندك ام ولا بد . اننى متألمة لكم ، متألمة جدا . فانا اتكلم وكل كلمة توجع قلبى . هل سيحكمون عليه بمدة طويلة ؟

واجاب الشرطى ميلنيكوف بصيغة غامضة :

— عندما يزينون القبور فيتصبون الاسيجة حولها ويغرزون الشواهد ويضعون الاكاليل عليها . . . هل الموتى بحاجة الى ذلك ؟ انه ضرورى للاحياء ، اما الموتى فليسوا بحاجة الى شىء .

انتاب الام رعب شديد جعلها تتحجر فى مكانها :

— ماذا تقصد بهذا الكلام ؟

— هيا . اقصد انهم سيحاكمونه طبعا . يمكن ان يسامحوه بالطبع . فقد كان سكران ، وسرقت نقوده ، اى انه تعرض لاهانة . ولكنهم سيحاكمونه مع ذلك ، كى يكون عبرة لغيره . فيجب ان يأخذ الآخرون درسا . . .

— انت بنفسك تقول انه كان سكران !

— هذه قضية لا تؤخذ الآن بالاعتبار . فلم يسقه احد قسرا . شرب بمحض ارادته . وسيكون ذلك عبرة للآخرين . فهو سيقضى مدة محكوميته من كل بد ، اما الآخرون فسوف يأخذون درسا من ذلك . والا فليس بالامكان توعيتكم .

وفهمت الام ان هذا الطويل يكن لابنها العداء ، فلاذت بالصمت .

اعجبت الام بالمدعى العام من اول نظرة . فهو متأن . استمع اليها بصبر واهتمام رغم اسهابها فى الكلام وتشوش افكارها . قالت له ان ابنها فيتكا شاب



حسن الاخلاق طيب القلب ، لا يهين احدا عندما يكون صاحيا . فكيف ستبقى بدونه الآن ؟ ثم ان الفتاة ، خطيبة فيتكا ، لن تنتظره . فهى فتاة طيبة وسيتهافت عليها الخطّابة . . . اصغى المدعى العام اليها باهتمام وطرق باصابعه على الطاولة . . . ثم تكلم بغموض ايضا وهو يتناول القضية من طرفها البعيد :

— انت فلاحة ، كانت عائلتكم كبيرة ولا بد . . .

— نعم يا عزيزى ، ستة عشر شخصا . ظل منا على قيد الحياة اربعة عشر ، ومات اثنان فى سن الطفولة . مات بافل ، وبعده مات صبى آخر سماه ابى بافل ايضا . . .

— ستة عشر . مجتمع مصغر وعلى رأسه الاب . اليس كذلك ؟

— نعم ، يا عزيزى ، نعم . كنا نطيع ابى . . .

— هكذا اذن ! كنتم تطيعونه ! — ادان المدعى العام الام من فمها — فلماذا ؟ عندما يشاكس طفل يضربه ابوه بالحزام . وينظر اخوه او اخته كيف يلقن الاب الطفل المشاكس ويفكر : هل اشاكس انا ام لا ؟ بهذه الصورة تحافظ العائلة الكبيرة على النظام . بهذه الصورة فقط . ولو سامح الاب هذا الطفل او ذاك فماذا سيحدث للعائلة ؟ ستتفكك . انا افهمك ، فالامر صعب عليك . . . والحقيقة انه صعب على انا ايضا . فسيرسلونه ليس الى المصيف . وسيذهب الى هناك ، على ما يبدو ، لاكثر من موسم . من الناحية الانسانية كل شىء مفهوم . الا ان هناك اعتبارات عليا نحن عاجزون امامها . . . سوف يحكمون عليه . ولا ادرى كم ستكون العقوبة ، فالمحكمة هى التى تقرر .

وفهمت الام ان هذا ايضا يكره ابنها . «اغتاظوا لاهانة شرطيهم» .

— قل لى ، رجاء ، هل هناك من هو اعلى منك ؟

— كيف ؟ — لم يفهم المدعى العام قصدها رأسا .

— هل انت المسؤول الرئيسى ام هناك من هو اعلى منك ؟

ضحك المدعى العام عفويا ثم ادرك ان الضحك لا يليق فى مثل هذه الاحوال .

— طبعا ، يا امى ، هناك كثيرون .

— اين هم ؟

— اين ؟ فى دوائر الاقليم . . . هل تريدين السفر الى هناك ؟ انا لا انصحك .

— قال لى اهل الخير : الافضل ان تطلبى المرحمة الآن قبل ان يصدر

الحكم عليه ، ففيما بعد تكون القضية اصعب . . .

— قولى لاهل الخير هؤلاء انهم . . . ليسوا من اهل الخير . فهم اخيار طيبون اذا كان الامر لا يمسهم شخصيا . من الذى نصحك ؟

— نصحونى . . .

— سافرى اذا كنت مصرة . ستنفقين نقودك على السفر ، اما النتيجة فستبقى هى هى . اقول لك رسميا وبمنتهى المسؤولية : سوف يحاكم . سيحاكم من كل بد . فليس لدينا حق فى عدم محاكمته . ولن يستطيع احد الغاء المحاكمة .

اعتصر الالم قلب الام . . . ولكنها حملت غيظا على المدعى العام ، فتمالكت نفسها ولم تبد ما يشير الى انها تكاد تخر امامه وتندب مولولة . وكانت ساقاها ترتعشان .

— اسمح لى على الاقل بمقابلته . . .

— ممكن — وافق المدعى العام فى الحال — يقال انه كان معه مبلغ كبير . فهل ذلك صحيح ؟

— صحيح . . .

كتب المدعى العام شيئا على قصاصة ورق وسلمها الى الام .

— اذهبى الى الشرطة .

وجدت الام الطريق الى الشرطة لوحدها ، بدون الشرطى الطويل الذى انصرف . سألت المارة فدلوها على الطريق . انسدلت على عينيها غشاوة سبح فيها كل شىء واختلط . . . وانسابت الدموع على خديها بصمت فراحت تمسحها بطرف منديلها ، ولكنها ظلت تسير بسرعتها المعتادة وتتعثر احيانا على الواح الرصيف التالفة . . . بيد انها كانت تغذ السير مستعجلة . فهى تفهم ان عليها الآن ان تسرع قبل ان يصدر الحكم على ابنها . والا سيكون الاسترحام صعبا . انها واثقة من ذلك . فقد قضت حياتها كلها تدارى المصائب وتتغلب على النكبات ، وتفعل ذلك كما تفعله الآن ، سائرة على عجل وهى تكفكف دموعها بطرف منديلها . الا ان ايمانها بأهل الخير الذين لا يبخلون بالنجدة ظل يعيش فى دخيلتها ولا يفارقها . فهؤلاء حملوا غيظا لاهانة شرطيهم . هذا شىء مفهوم ، اما اولئك ، اولئك الابعد ، فسوف يساعدونها . كيف لا يساعدونها ؟ ستحكى لهم كل التفاصيل وسيساعدونها . من الغريب ان الام لم تفكر بتاتا بان ابنها ارتكب جريمة . فهى تعرف شيئا واحدا ، هو ان مصيبة كبيرة حلت به . فمن يخلصه من المصيبة غير امه ؟ يا



الهى ، انها مستعدة للذهاب الى دوائر الاقليم سيرا على الاقدام ، انها مستعدة للسير ليل نهار . . . وسوف تجد اهل الخير هؤلاء .

وسألها مفوض الشرطة .

— ماذا ؟

فاجابت بتحايل :

— امرنى بالذهاب الى دوائر الاقليم . وسمح لى بمقابلة — وسلمته قصاصة الورق .

دهش المفوض بعض الشىء ، ولكنه حاول ان يخفى دهشته . قرأ القصاصة . . . فلاحظت الام امارات الدهشة عليه وفكرت : «ربما . . .» وخف الالم عليها قليلا .

— رافقها ، يا ميلنيكوف .

ظنت الام انها ستسير طويلا الى مسافة بعيدة ، وان ابوابا حديدية ستفتح ، وسترى ابنها من وراء القضبان ، وستتحدث معه من اسفل وهى واقفة على اطراف اصابعها . . . ولكن ابنها كان قابعا هنا ، تحت ، فى القبو . كان رجال حليقو الرؤوس يلعبون الدومينو فى دهليز القبو ، فحملقوا بالام والشرطى . ولكن فيتكا لم يكن معهم . وسأل رجل بوجه غليظ :

— ماذا ، يا امى ، هل حكموا عليك انت ايضا بالسجن اسبوعين ؟

وضحكوا .

رافق الشرطى الام الى زنزانة من الزنزانات الثلاث او الاربع الموجودة على امتداد الدهليز ، وفتح بابها . . .

كان فيتكا وحيدا فى الزنزانة الكبيرة . وكان راقدا على تخت عريض . . . لم ينهض عندما دخل الشرطى ، ولكنه قفز حالما لمح امه من خلفه . وقال الشرطى الطويل محذرا :

— عشر دقائق .

وخرج .

جلست الام على حافة التخت وكفكفت دموعها بالمنديل على عجل . وقالت :

— عجيب ! تحت الارض ، والجو دافىء وغير رطب .

كان فيتكا صامتا يتطلع الى الباب وقد تشبث بداه بركبتيه . بدا وجهه نحيفا بعد تلك الليلة ، ونبت الشعر كثيفا عليه وكأنما ظهر عمدا دفعة واحدة . منظره يثير الشفقة والالم . فهو يرتعش ، ويحاول ان يضبط نفسه كيلا تلاحظ امه ارتعاشاته . وسألته :

— سرقوا النقود ، اليس كذلك ؟

— سرقوها .

— الله معها ، ولكن لماذا تعاركت بسببها ؟ نحن نكسب النقود وليست هى التى تكسبنا .

ما كان بوسع فيتكا باية حال ان يحكى قصة السرقة . فذلك مخجل للغاية . عاهرتان . . . شىء مخجل الى حد الالم ! ثم انه متألم لامه . فهو يعرف بانها ستأتى اليه ، ستخترق جدار القوانين وتأتى اليه . كان ينتظر ذلك ويخشاه .

فى تلك اللحظة طفح صدر الام بشىء آخر . فلم تعد تفهم اطلاقا ان فى الدنيا شرطة وادعاء عاما ومحاكم وسجونا . . . يجلس قربها طفلها المذنب الاعزل . . . فمن يستطيع ان ينتزعه منها الآن ، وهى الكائن الوحيد الذى يمكن ان ينجده ؟

— الا تعرفين ؟ ضربته شديدة ام لا ؟ . .

— ليست شديدة . فهى اقفية . . . ولكنه طريح الفراش .

— لا بد وانهم اجروا الكشف العدلى . . . سيعطونه اجازة مرضية . . . اما انا — وتطلع فيتكا الى امه — فسيعطوننى سبع سنوات .

— اعوذ بالله ! — هبط قلب الام — مدة طويلة جدا .

— سبع سنوات ! . . — قفز فيتكا من التخت وراح يجوب الزنزانة — ضاع كل شىء . انقلبت حياتى كلها رأسا على عقب .

ادركت الام بفؤادها وبحكمتها ان يأسا قاتلا يثقل على ابنها ويكاد يخنقه . . . فلامته قائلة :

— لماذا تتكلم وكأن الحكم قد صدر ، فانقلبت حياتك رأسا على عقب ؟

— ماذا انتظر ؟ كل شىء واضح . . .

— عجيب ! كل شىء واضح له ! الاجدر ان تسأل فى البداية : اين كنت ومن راجعت ؟

— من راجعت ؟ — سأل فيتكا وكف عن السير .

— راجعت المدعى العام . . .

— وماذا قال ؟

— طبعا ، الافضل ان تسأل فى البداية : ماذا قال ؟

وبعد ذلك يمكنك ان تفكر : هل انقلبت حياتك رأسا على عقب ام لا ؟



انتم ضعفاء . . . تدور الافكار السوداء فى رؤوسكم قبل ان يبدأ شىء .

— ماذا قال المدعى العام ؟

— قال : لا داعى للقلق . وليترك كل الافكار السوداء . . . وقال : نحن لا نستطيع بانفسنا ان نفعل شيئا ، فليس عندنا صلاحية ، ولكن لا تضيعى الوقت وراجعى دوائر الاقليم . من هناك يأمروننا فنطلق سراحه رغما عنا . وعند ذاك لا يؤنبنا ضميرنا امام شرطتنا ، فيبدو وكأننا نريد محاكمته ولكننا لم نستطع . ذلك تدبير جيد . وقال لى انه هو ايضا يشفق عليك . . . ولكنهم ، كما يقول ، موظفون صغار ليست عندهم صلاحية . ونصحنى بان اذهب الى دوائر الاقليم واوضح لهم القضية هناك بالتفصيل . . . كم سرقوا منك ؟

— مائة وخمسين .

— يا للشيطان ! اغتنوا رأسا . . .

وظهر الشرطى الطويل فى الباب .

— انتهت المقابلة .

— دقيقة ، ارجوك — قالت الام باستعجال — تحدثنا عن كل ما يلزم . . . سأذهب ، اذن ، الى القرية . وسوف يكتب ميشكا بيتشكوف صحيفة اعمال لك . . . قال انه سيكتب صحيفة جيدة .

— هناك . . . عندى . . . فى الحقيبة شهادات تقدير من البحرية . . . خذيها معك على كل حال . . .

— اى شهادات ؟

— فى الحقيبة . خذيها . فقد تفيد .

— سآخذها . وبعد ذلك اذهب الى المكتب ، وآخذ منهم ايضا صحيفة اعمال . . . فلن اسافر خالية . وربما ابيع القماش . ارادت سرغيبفنا ان تشتريه . فما رأيك ؟

— لماذا ؟

— اريد ان آخذ معى نقودا . فقد احتاج الى ارضاء خاطر احد هناك .

— لا داعى لذلك . فقد يؤدى الى الاسوأ .

— طيب ، ساتصرف حسب الظروف .

ظهر الشرطى فى الباب من جديد .

— انتهت المقابلة .

— انا ذاهبة . ذاهبة — قالت الام باستعجال . وعندما اصطفق الباب

اخرجت من عبها رغيفا وبيضة — خذ ، كل . . . ولا تشغل بالك . فالدنيا لم تنقلب بعد رأسا على عقب . سيساعدنا اهل الخير . الرؤساء الكبار افضل ، فهم لا يخافون . هؤلاء يخافون ، اما اولئك فلا يخافون احدا . فى يدهم الحل والربط . وسوف اصل اليهم مهما كلف الثمن . شد حيلك وفكر فى امور اخرى ، فكر فى فيركا مثلا . . . فهى ايضا قلقة جدا عليك . عرجت عليها لاخبرها ، ولكنها سمعت الخبر . . .

— وماذا . . .

— انها حزينة جدا .

لم يشعر قلبه بالدفء لان خطيبته حزينة عليه . لم يشعر بالدفء ولا بشىء مما يشعر به القلب فى مثل هذه الاحوال .

وهمست الام :

— اوصيك ايضا . . . بان تبتهل فى نفسك . فانت معمد . وسنعالج القضية من جميع الوجوه . ساخرج من البيت فى وقت مبكر ، قبل وصول القطار ، وساعرج على الكنيسة فاشعل شمعة للقديس نيكولا وابتهل اليه هو ايضا . لا بأس . سيعطفون علينا . وسآخذ معى وثيقة استشهاد ابيك فى الحرب . . .

— لا تخبرى اخوانى الآن . . .

— لن اخبرهم . فما الداعى لتعذيبك من جديد ؟ ولكن الاهم هو ان لا تفكر بان حياتك انقلبت رأسا على عقب . وحتى لو حكموا عليك فلن تكون المدة اكثر من سنة . سنة واحدة لذر الرماد فى العيون ، وليس سبع سنوات كما تقول . ومن يحكم عليهم بسنة يطلق سراحهم بعد ستة اشهر ، قبل انتهاء المدة ، اذ عملوا هناك جيدا . وربما يحكمون عليك باقل من سنة .

دخل الشرطى الزنزانة وكان واضحا انه لن يخرج منها وحيدا .

— انتهت المقابلة . خلاص . . .

— انا ذاهبة — نهضت الام من التخت وادارت ظهرها للشرطى فرسمت شارة الصليب على ابنها وهمست بشفتيها :

— المسيح يخلصك .

وخرجت من الزنزانة . . . سارت فى الدهليز ، ولم تر شيئا ، هذه المرة ايضا ، بسبب الدموع . فما اشد شفقتها على ابنها فيتكا ! عندما يمرض الابناء تشتد الشفقة عليهم . الا ان شفقتها الآن تختلف عن تلك . فهى تستعطف الناس وترجو المساعدة منهم ، ولكنهم يشيحون بوجوههم ويغضون بصرهم ، فيخيفها ذلك



الى حد الفزع احيانا . . . الا انها كانت ماضية فيما عزمت عليه . فهى الآن تتصور نفسها فى القرية ، وتفكر فيمن يتعين عليها ان تراهم قبيل السفر وفى الوثائق التى ينبغى ان تأخذها معها . وكان ايمانها الراسخ بمساعدة اهل الخير لها يقودها ويستحثها ، فلم تتأخر لحظة ولم تتوقف لتبكى ما شاء لها البكاء ، ولم تسمح لليأس ان يستولى عليها ، فهى تعلم جيدا ان اليأس يعنى الهلاك . ولذا فهى ماضية فيما عزمت عليه .

وبعد الثانية ظهرا غادرت الام القرية فى رحلة طويلة الى دوائر الاقليم .

كانت تردد مع نفسها طوال الوقت : «يا الهى ، ساعدنا ، يا ربى ، لا تجعل ولدى فريسة للافكار السوداء ، امنحه العقل يا الهى ، فهو متهور قليلا ، وقد يحاول الانتحار» .

وفى ساعة متأخرة من الليل تحرك بها القطار .

«لا بأس . اهل الخير سيساعدوننا» .

وكانت واثقة بانهم سيساعدونها .

١٩٦٩

# الجزمة

توجهوا الى المدينة لجلب قطع الغيار . . .

وهناك رأى سرغى دوخاتين جزمة نسائية فى احد الحوانيت ، ففارقه الهدوء والاستقرار واستولت عليه رغبة عارمة فى شراء هذه الجزمة لزوجته . وفكر فى نفسه : ينبغى ان اقدم لها هدية فاخرة ولو مرة واحدة ، لا سيما وانها هدية جميلة . . . فهى لم ترتد مثل هذه الجزمة حتى فى احلامها .

اطال سرغى النظر الى الجزمة باعجاب بالغ ، ثم نقر بظفره على زجاج رف الحانوت وسأل بلهجة مرحة :

— ما ثمن هذه القطّارة ؟

— اى قطارة ؟ — سألت البائعة دون ان تفهمه .

— اعنى هذه الجزمة . . .

— خمسة وستون روبلا — اجابت البائعة بنبرة ساخرة .

صعق سرغى وكادت تند عنه : «يا بنت الـ . . .» ، الا انه قال :

— عجيب . ثمن يلسع .

القت عليه البائعة نظرة احتقار . فما اغرب هؤلاء البائعات ! تبيعك احداهن كيلوغراما من جريش الدخن وكأنلسان حالها يقول : ها انا اعيد لك دينا منسيا .

فلنترك البائعات لحالهن ، وليذهبن الى الشيطان . فالشىء الاهم هو ان سرغى يمتلك خمسة وستين روبلا ، بل واكثر : فى جيبه خمسة وسبعون . ولكن . . . خرج الى الشارع فاشعل سيجارة وراح يفكر . هذه الجزمة ، اذا اردنا الحقيقة ، لا تصلح على العموم لاوساخ الريف . وهى ، بالطبع ، ستحرص عليها . . . فلا ترتديها الا مرة فى الشهر عندما تذهب لزيارة احد ، ولن ترتديها فى الوحل ، بل حينما يتحسن الطقس . ولكن ما اعظم فرحتها ! فالله وحده يعلم مدى فرحتها عندما يفتح سرغى الحقيبة ويقدم لها هذه الجزمة ويقول : «خذيها والبسيها» .

ذهب سرغى الى الكشك القريب من الحانوت ووقف فى طابور هواة البيرة .

تصور سرغى كيف ستلمع عينا زوجته حالما تقعان على الجزمة . فهى تفرح احيانا ، كالطفلة الصغيرة ، حتى تدمع عيناها . وهى ، على العموم ، امرأة طيبة . فما اعظم صبر المرأة على تحمل العيش معنا — فكر سرغى . وما اكثر المشاكل بسبب الكحول اللعين . ومشاكل الاطفال ، وشؤون المنزل . . . كلا ،



انهن بسبعة ارواح . والا لما تحملن ذلك كله . فنحن نرفه عن انفسنا بشكل ما ، عندما نشرب احيانا ، وتسهل الامور علينا بعض الشىء . اما هن فيعملن من الصباح حتى المساء كالنابض المشدود .

كان الطابور يتحرك ببطء ، فالرجال يعبون البيرة قدحا بعد آخر . وكان سرغى غارقا فى افكاره .

صحيح انها ليست حافية . فما الداعى للتظاهر بالفقر ؟ انها تسير بما يسير فيه الجميع فى القرية . . . والجزمة جميلة دون شك ، ولكنها تسدد ضربة قاضية الى الجيب . واذا جلبتها ، ربما ستكون هى اول من يلومنى على ذلك . وستقول : ما حاجتى اليها اذا كانت غالية الى هذا الحد ؟ ! حبذا لو اشتريت شيئا للبنتين ، معطفين ، مثلا ، فالشتاء على الابواب .

واخيرا تسلم سرغى قدحين من البيرة وانتحى جانبا وراح يحتسيها ببطء جرعة جرعة . ويفكر .

هكذا نعيش . خمسة واربعون عاما انقضت وانا افكر : لا بأس ، ساعيش فى وقت ما حياة رغيدة هانئة . ولكن الوقت يمر . . . وعلى هذا النحو ساقترب من الحفرة التى يتعين على الرقاد فيها ، بينما كنت طول العمر انتظر شيئا ما . يا للشيطان ! فلأى غرض عشت يا ترى دون ان احقق الفرحة التى يمكن تحقيقها ؟ عندى نقود ، والجزمة الرائعة هناك ، فما الذى يمنعنى من منح الفرحة للانسان ؟ ! ربما لن تتهيأ فرصة اخرى كهذه . بنتاى ليستا فى سن الخطوبة ، ويمكن ان ترتديا ما قسم الله . اما الجزمة فمرة واحدة فى العمر . . .

دخل سرغى الحانوت .

— اعطنيها لأراها جيدا .

— ماذا ؟

— الجزمة .

— ما الداعى لرؤيتها ؟ اى قياس تريد ؟

— ساقدر القياس بالنظر . فانا لا اعرفه بالضبط .

— عجيب ، يريد ان يشترى ولا يعرف القياس ! يجب ارتداؤها للتجريب ، فهى ليست بابوجا .

— واضح انها ليست بابوجا . واضح من الثمن ، خا — خا . . .

— فلا داعى لرؤيتها اذن .

— كيف لا وانا اريد ان اشتريها ؟

— كيف تشتريها وانت لا تعرف حتى القياس ؟

— وما شأنك انت ؟ اريد ان اراها وكفى .

— كلا ، ابدا . اذا كان كل شخص يراها . . .

— اسمعى ، يا عزيزتى — غضب سرغى — انا لا اطلب منك ان تعرضى على لباسك التحتانى ، فانا لا اريد ان اراه ، بل ارجو ان تعرضى على هذه الجزمة الموجودة على الرف .

— أمسك لسانك يا وقح ! يشربون الخمر ويبدأون . . .

— بماذا يبدأون ؟ من الذى بدأ ؟ هل سقيتنى انت حتى تتكلمى معى بهذه اللهجة ؟

قذفت اليه البائعة بالجزمة ، فاخذها وتفحصها ولمس جلدها الصقيل ونقر بظفره على نعلها اللماع المطلى بالملك . . . ودس يده بحذر فى داخلها . . . وفكر بسرور : «ستكون مريحة جدا فى السير» . وسأل :

— خمسة وستون بالتمام ؟

القت عليه البائعة نظرة حاقدة صامتة . ففكر سرغى مندهشا : — «يا الهى ! انها تحقد على . فلماذا ؟» .

— سأشتريها — قال على عجل ليخفف من غضب البائعة . فهو لم يشغلها عبثا ، وها هو يشترى الجزمة اخيرا . — الدفع لك ام لامينة الصندوق ؟

— لامينة الصندوق — قالت البائعة بصوت خافت وهى تواصل التحديق فيه .

— خمسة وستون بالتمام ام اكثر بكوبيكات ؟

ظلت البائعة تنظر اليه ، ورأى سرغى ، عندما تطلع اليها بمزيد من الانتباه ، حقدا اعمى يطفو على عينيها بالفعل . ارتعب بعض الشىء . . . فوضع الجزمة صامتا وذهب الى امينة الصندوق . «ماذا بها ؟ هل جننت ؟ لماذا تحقد على ؟ بهذه الصورة ستجف عروقها قبل ان يحين اجلها» .

واتضح ان الثمن خمسة وستون روبلا بلا زيادة ولا نقصان . مد سرغى يده بايصال الدفع الى البائعة ، ولم يتجرأ على التطلع الى عينيها ، فوقع بصره على اعلى صدرها الاعجف . وشعر بالاسف عليها : «ربما هى مريضة» .

الا ان البائعة لم تستلم منه الايصال . رفع سرغى بصره . . . فرأى فى عينيها هذه المرة حقدا ممزوجا بارتياح غريب .

— ارجو ان تعطينى الجزمة .

— فى ركن التسليم — قالت البائعة بصوت خافت .



— اين هو ؟ — سأل سرغى بصوت خافت ايضا واحس بانه هو الآخر بدأ يحقد على هذه البائعة النحيفة .

لم تجب البائعة ، وظلت تنظر اليه .

— اين ركن التسليم ؟ — ابتسم سرغى متحديا نظرتها — اين هو ؟ لا تنظرى الى ، يا عزيزتى ، لا تنظرى ، فانا متزوج . انا افهم بان من السهولة الوقوع فى حبى ، ولكن . . . ماذا استطيع ان افعل ؟ تحملى ، فما العمل ؟ اين هو ركن التسليم اذن ؟

بهتت البائعة وانفتح فمها الصغير تلقائيا . . . فهى لم تكن تتوقع ذلك .

وانصرف سرغى ليبحث عن ركن تسليم المشتريات . وقال فى نفسه مندهشا : «عجيب ! من اين جاءنى هذا الالهام ؟ ! وهل يجوز جرح شعور المرأة الى هذا الحد ؟ ! حسنا فعلت . فلن تجن بلا سبب بعد الآن ، ولن تقف غاضبة حاقدة» .

اخذ الجزمة من ركن التسليم وتوجه الى رفاقه فى حظيرة السيارات كى يعودوا الى القرية (فقد جاء معه ميكانيكى وسائقان بسيارتين) .

دخل سرغى غرفة المناوبة متوقعا ان الجميع سيهتمون فى الحال بعلبة الكرتون ليطلعوا على ما فيها . الا ان احدا لم يبد اى اهتمام حتى بسرغى نفسه . فقد كانوا ، على عادتهم ، يتجادلون . شاهدوا فى الشارع قسا شابا فراحوا يتجادلون الآن حول راتبه . كان اعلى الاصوات صوت فيتكا كيبياكوف بوجهه المجدر الشاحب وعينيه الواسعتين الكئيبتين . وحتى عندما كان فيتكا يجأر باعلى صوته ، ويهين الجميع ، كانت عيناه تحافظان على كآبتهما وفطنتهما وكأنهما تنظران الى فيتكا نفسه بحزن لا اثر فيه للامل .

— هل تعرف بان لديه سيارة «فولغا» خصوصى ؟ ! — صرخ المبرد («المبرد» كنية فيتكا) — وهم يستلمون اثناء الدراسة منحة قدرها مائة وخمسون روبلا فى الشهر . هل انت فاهم ؟ منحة !

— صحيح . لديهم سيارات خصوصى ولكن ليس عند الشباب . فلماذا تهذر ؟ السيارات الخصوصى عند هؤلاء . . . لا ادرى ما اسمهم ؟ عند الرسل ، لا ليس عند الرسل ، بل عند هؤلاء . . . ما اسمهم ؟

— هل فهمت ؟ سيارات «الفولغا» الخصوصى عند الرسل ! انت اغبى من قرمة الشجرة ، ايها الرسول !

— المنحة مائة وخمسون روبلا ! فما مقدار الراتب اذن ؟

— هل تريده ان يتعرض للملاحقة مجانا ؟ لا اقل من خمسمائة روبل .

— يجب ان يكون مؤمنا .

لم يرغب سرغى فى التورط فى الجدال ، مع انه مستعد للمراهنة بان الخمسمائة روبل كثيرة على القس الشاب . ولكن سرغى لا يريد المجادلة بهذا الخصوص . . . فهو راغب فى عرض الجزمة . اخرجها من العلبة واخذ يتفحصها . وسوف تسكت الافواه عن مناقشة قضية القس . ستسكت جميعا الآن . ولكنها لم تسكت . اكتفوا بالقاء نظرة خاطفة على الجزمة . ومد واحد منهم فقط يده ليتفحصها . سلمها سرغى اليه . دعك السائق (وهو شخص لا يعرفه سرغى) الجلد الصقيل ونقر بظفره الحديدى على النعل . . . ودس يده الضخمة الوسخة فى الجزمة الرقيقة الناصعة البياض من الداخل . فسحبها سرغى منه .

— اين ادخلت يدك الوسخة ؟

ضحك السائق .

— لمن اشتريتها ؟

— لزوجتى .

وعند ذاك فقط سكت الجميع .

— لمن ؟ — سأل المبرد .

— لزوجتى كلافديا .

— ارني اياها .

ودارت الجزمة على الجماعة ، فراحوا يدعكون جلدها وينقرون على نعلها . . . ولكنهم لم يتجرأوا على مد ايديهم فى داخلها ، بل اكتفوا بفتح ساقها والقاء نظرة على عالمه الابيض الازغب ، حتى ان احدهم نفخ اليه بنفخة لسبب ما . وشعر سرغى باعتزاز لم يكن يعرف له مثيلا فى السابق .

— كم ثمنها ؟

— خمسة وستون .

التفتوا جميعا الى سرغى بنظرة استغراب ، فارتبك هو بعض الشىء .

— ماذا ؟ هل تخبلت ؟

اخذ سرغى الجزمة من يد المبرد الذى هتف :

— ما اغربك ، يا سرغى . . . فما حاجتها اليها ؟

— لتلبسها .

كان سرغى يريد الكلام بلهجة هادئة واثقة ، الا ان قلبه اخذ يتقافز بين



ضلوعه . والتصقت بذهنه فكرة بليدة . «نصف ثمن الدراجة النارية ، نصف ثمن الدراجة» . ومع انه كان يعرف ان الخمسة وستين روبلا ليست نصف ثمن الدراجة النارية ، فقد ظلت هذه الفكرة تلاحقه بعناد : «نصف ثمن الدراجة» .

— هل طلبت منك ان تشترى جزمة ؟

— ما اهمية ذلك ؟ اشتريتها وكفى .

— متى سترتديها ؟ باية مناسبة ؟ — راحوا يعذبون سرغى مرحين — الوحل لحد الركبة ، اما هو فيشترى جزمة بخمسة وستين روبلا !

— الجزمة لثلج الشتاء ، يا جماعة !

— والى اين ستذهب بها فى الشتاء ؟

— ثم ان هذه الجزمة تناسب اقدام نساء المدن . ولن تدس كلافديا قدمها فيها ابدا . . . فما هو قياسها ؟ هذه الجزمة بحجم انفها .

— اى قياس تلبس ؟

— اذهبوا الى الشيطان ! . . — غضب سرغى اخيرا — فلماذا انتم مهتمون الى هذا الحد ؟

وضحكوا .

— شىء مؤسف يا سرغى . فانت لم تعثر على الخمسة وستين روبلا فى الطريق .

— كسبتها بنفسى وانفقتها كما اردت . فما الداعى للثرثرة ؟

— ربما طلبت منك ان تشترى لها جزمة مطاطية .

مطاطية . . . اشتاط سرغى غضبا .

— الافضل ان تناقشوا مسألة القس . فكم راتبه ؟

— اكثر من راتبك .

— اولاد القحاب . . . جلسوا يحسبون نقود الآخرين — نهض سرغى — أليس لديكم ما تشغلون به انفسكم غير هذا ؟

— لماذا انفعلت ؟ تصرفت بحماقة ، وقلنا لك انك تصرفت بحماقة . فلا داعى للانفعال الى هذا الحد . . .

— لست منفعلا . ولكن لماذا تهتم انت بدلا عنى ؟ ! ولماذا تشغل بالك ؟ هل استدنت منك نقودا ، ام ماذا ؟

— انا مهتم ، لانى لا استطيع ان انظر باعصاب هادئة الى الحمقى . فانا متأسف لهم ، بل يلسعنى الالم عليهم .

— خذ الابرة من دير النحلة ، حتى تلسعك اكثر .

تجادلوا برهة ثم توجهوا الى قريتهم .

فى الطريق اثقل الميكانيكى على سرغى (وكانا معا فى احدى السيارتين) .

— لاى غرض اعطتك النقود ؟ — سأله الميكانيكى . سأله بمشاطرة خالية من التهكم — لتشترى بها شيئا آخر ؟

كان سرغى يحترم هذا الميكانيكى فلم يلجأ الى الشتائم .

— كلا . كفاية ، فلنطو صفحة .

وصلوا الى القرية عند المساء .

لم يودع سرغى احدا منهم . . . ولم يذهب معهم ، بل انفرد عنهم ، وذهب لوحده ، الى البيت .

كانت كلافديا وبناتها يتناولن طعام العشاء .

— لماذا تأخرت ؟ — سألته كلافديا — ظننت انكم ستقضون الليل هناك .

— كنا ننتظر حتى استلموا قطع الغيار ونقلوها الى حظيرة السيارات . . . ووزعوها هناك على النواحى . . . فانقضى الوقت .

— بابا ، الم تشتر لنا شيئا ؟ — سألته ابنته الكبرى غروشا .

— ماذا ؟ — فى الطريق الى البيت فكر سرغى بعزم وتصميم : اذا لامتنى كلافديا وقالت — الجزمة غالية والافضل لو اشتريت بدلها كذا وكذا . . . «ساذهب والقى بالجزمة فى البئر» .

— اشتريت .

التفتت الثلاث اليه واخذن يحدقن فيه . فقد تلفظ كلمة «اشتريت» بلهجة غدا واضحا منها ان هذا الزوج والاب لم يشتر منديلا باربعة روبلات ولم يشتر مفرمة لحم . التفتن اليه . . . فى انتظار لجوج .

— هناك ، فى الحقيبة — جلس سرغى على الكرسى ودس يده فى جيبه بحثا عن سيجارة . كان فى منتهى الارتباك ، حتى ان اصابعه ترتجف .

اخرجت كلافديا العلبة من الحقيبة ، فلاحت الجزمة من العلبة . . . كانت اكثر جمالا فى ضوء الكهرباء . فقد بدت وكأنها تبتسم وتضحك فى العلبة . قفزت البنتان من وراء المائدة . . . وندت عن الجميع آهات الاعجاب وتأوهات الدهشة . وقالت الزوجة :

— ما احلاها ! . . لمن هذه ال . . . ؟



— لك طبعا .

— ما احلاها ! — جلست كلافديا على السرير فانبعث منه صرير . . . حشرت المرأة قدمها الريفية المتينة فى الجزمة المخصصة لبنات المدن . حشرتها بقوة . ولكنها تلكأت . واحس سرغى بالألم . فالجزمة ضيقة . . . ضيقة عند الساق .

— اى قياس ؟

— ثمانية وثلاثون . . .

واضح انها ضيقة . نهض سرغى ليساعد زوجته ، ولكن دون جدوى .

— القياس قياسى . . .

— ضيقة هنا ، عند الساق .

— ساق لعينة !

— تمهلى ! البسى جوربا خفيفا .

— لا فائدة ! الا ترى ؟ . .

— ن . . . نعم . . .

— آه ! ما اتعسنى بهذه الساق اللعينة !

خف الحماس وتضاءل الانفعال . وقالت كلافديا وكأنها تندب وتنوح :

— آه ! من اين لى هذه الساق ؟ كم ثمنها ؟ . .

— خمسة وستون — اشعل سرغى سيجارة ، وخيل اليه ان كلافديا لم تسمع الثمن جيدا ، فكرر : ثمنها خمسة وستون روبلا .

كانت كلافديا تتطلع الى الجزمة وتمسد الجلد الصقيل براحتها تلقائيا . ولمعت الدموع على رموشها . . . كلا ، لقد سمعت الثمن جيدا . وقالت :

— فلتذهب قدماى الى الشيطان ! مرة واحدة فى العمر . . . يا لحظى التعيس !

داهم ألم ممض قلب سرغى من جديد . . . الم مشوب بالاسف ، والحب المنسى بعض الشىء . لمس يد زوجته التى تمسد الجزمة . وعصرها ، فتطلعت اليه كلافديا . . . والتقت نظراتهما . وابتسمت كلافديا مرتبكة ونفضت شعرها مثلما كانت تنفضه فى فتوتها ، على نحو فيه شىء من خشونة الرجال وبساطة الريف ، ولكن فيه ايضا شمما واعتزازا .

ومدت يدها بالجزمة الى ابنتها :

— حالفك الحظ يا غروشا . خذى . جربيها .

ارتبكت البنت ، فقال سرغى الذى نفض شعره هو الآخر :

— خذيها . ستكون لك عندما تنهين الثانوية بنجاح .

وضحكت كلافديا .

. . . قبيل المنام اعتاد سرغى الجلوس على مصطبة واطئة عند باب المطبخ ليدخن السيجارة الاخيرة . وجلس كالعادة هذه المرة ايضا . . . اخذ يدخن ويفكر ويستعيد مرة اخرى حادثة اليوم ، ليدرك مغزاها العفوى ، العميق كما خيل اليه الآن . وكان يشعر بالارتياح . ومن المؤسف طبعا ان يعكر الآن شىء ما هذا المزاج الحسن ، ويخيف هذا الطيف العابر .

فرشت كلافديا الفراش فى الغرفة الكبيرة . ونادته :

— تعال . . .

لم يجبها سرغى عمدا ، فهو ينتظر ما ستقول .

— سرغون ! — دعته برقة وتحبب .

فنهض واطفأ عقب السيجارة وتوجه الى هناك . ابتسم لنفسه وهز رأسه . . . ولم يخطر على باله «انها اصبحت رقيقة لانى اشتريت الجزمة» . ليست القضية فى الجزمة بالطبع ، القضية . . .

لا بأس . كل شىء على ما يرام .

## الجنرال مالافيكين

ميشكا تولستيخ ، النجار فى دائرة البناء والانشاء رقم ٧ ، رجل قمىء طويل اليدين نائىء الوجنتين ، يعيش فى موسكو ولكنه بالاصل من منطقة ما وراء البايكال ، كان قد زار اخاه الساكن فى لينينغراد ، وها هو عائد منه . استقبله اخوه بفتور ، وانهال عليه فورا بوابل من النصائح . . . فزعل ميشكا ، وافرط فى الشراب وتشاجر مع زوجة اخيه وغادر لينينغراد الى موسكو .

جاء الى القطار قبل الآخرين ، فدخل القمرة والقى بحقيبته على رف العفش وطلب من مضيفة العربة شراشف وبطانية . فقالت له «توزع الشراشف عندما يتحرك القطار» . خلع ميشكا حذاءه ورقد على الحشية العارية فى الرف العلوى . وغفا .

استيقظ فى الليل . وكان اثنان يتحدثان بخفوت فى الظلمة تحته . خيل لميشكا انه يعرف احد الصوتين . وكان هذا الصوت الذى يعرفه يتكلم اكثر من محدثه . فأنصت ميشكا باهتمام .

— غير معقول ، غير معقول — قال الصوت بخفوت — لا اوافقك فيما تقول . غالبا ما ادعو هذا السافل الى مكتبى وأسأله : «ماذا تنوى ان تفعل ؟» فلا يرد بشىء . «ماذا نفعل ؟» ، يهز كتفيه ، ولا يجيب . «هل ستظل على نفس الاسلوب ؟» . صمت كصمت القبور .

— انهم يجيدون الالتزام بالصمت — ايده الصوت الثانى ، وهو صوت متعب تلوح عليه سمات الكهولة . — انهم ماهرون فى ذلك .

— بالفعل . فهو صامت وكأنه يخشى ان يفتح فمه . وسألته : «هل ستظل على صمتك طويلا ؟» .

تذكر ميشكا الشخص الذى يشبه صوته الصوت الذى يسمعه من تحت . انه سيمبون ايفانوفيتش مالافيكين جاره من الدار رقم ٣٧ فى حارتهم بموسكو . وهو عامل طلاء متقاعد منطو على نفسه ويعتبر من المعوقين ، الا انه يكسب رزقه فضلا عن ذلك بممارسة الطلاء على الماشي . وقد اشتغل ميشكا ذات مرة مع سيمبون هذا حيث قاما بالاعمال التكميلية فى شقة احد الموظفين الكبار لقاء اجرة اضافية . عملا زهاء عشرة ايام ، وخلال هذه المدة كلها لم يتجاوز ما قاله مالافيكين عشر كلمات فى اغلب الظن ، حتى انه لم يتلفظ بالتحية المعتادة عندما كان يأتى

الى العمل . وعندما سئل عن السبب فى سكوته اجاب : «صدرى يؤلمنى من الثرثرة معكم» . الا ان هذا الجالس تحت ليس مالافيكين بالطبع . . . ولكن صوته يشبه صوت مالافيكين الى حد مدهش .

— واقول له : «استطيع ان اطردك من موسكو يا ساقل ! سينفد صبرى واطردك !» — فيرجونى قائلا «لا داعى لذلك» . «هكذا اذن . فتحت فمك ! . . تكلمت ؟» .

— هل حدث وطردتم احدا ؟

— نادرا . فهؤلاء السفلة يثيرون الشفقة . ثم ماذا يمكنهم ان يعملوا هناك ؟

— يا الهى ! نحن بحاجة الى الكثير من العاملين !

— ما الذى ستفعلونه بهم هناك ؟ فهم لا يصلحون حتى لصنع العرق المنزلى !

وضحك الاثنان اللذان تحت ، كما يضحك الرؤساء عادة ، بصوت واطىء يشوبه انشغال البال ويتميز بالاستعلاء .

— نعم . . . عندنا ايضا الكثير من امثال هذه الحثالات . . . ولكن كيف تكافحونهم ؟

— كيف . . . بالوقاية زائدا المليشيا . انه عذاب وليس مكافحة . نحن نتعب كثيرا بسبب ذلك . فعندما اصل الى الفيلا واشعل النار فى المدفأة الحجرية واتطلع الى اللهيب — فأنا ، بالمناسبة ، مغرم بمنظر اللهيب — يطل علىّ منه بوز من ابوازهم . . . وافكر : «يا الهى ، متى يتركنى هؤلاء ؟ !» .

— كيف يطل عليك ؟ — بالخيال ؟ — استفسر الصوت المتعب .

— طوال النهار اراهم كل لحظة . . . وفيما بعد اتخيلهم اينما ذهبت . الفيلا عندك من الطابوق ؟

— ليس عندى فيلا . حالما اتفرغ من الاشغال احيانا اذهب الى اهلى فى القرية . قريتنا قريبة . والفيلا عندك من الطابوق ؟

— نعم . بطابقين . عبثا ترفض استلام فيلا ، فهى مريحة . وانا ، مثلا ، اجىء اليها واشعل المدفأة فترتاح النفس مهما كان التعب شديدا خلال النهار .

— هل هى ملكك ؟

— تقصد الفيلا ؟

— نعم .

— كلا بالطبع ! فهى ملك للدولة . وعندى سائقان يعملان مناوبة ،



احدهما اعتاد ان يتلفن لى فى الخامسة الا ربعا ويسأل : «الى البيت ، يا سيميون ايفانوفيتش ؟» — فأقول : نعم ، يا بيتكا ، الى البيت» . ونقصد بالبيت الفيلا .

تململ ميشكا على رفه العلوى . فالمتحدث ، تحت ، اسمه سيميون ايفانوفيتش . وهذا هو اسم مالافيكين . يا للمصادفة الغريبة ؟ وواصل سيميون ايفانوفيتش حديثه :

— واقول له : «الى البيت ، يا بيتكا ، الى البيت . فلتذهب موسكو هذه الى الشيطان بضجيجها وصخبها !» وحالما نصل الى الفيلا نضع الحطب فى المدفأة . . .

— كيف ؟ اليس هناك احد غيركما ؟

— تقصد الخدم ؟ الخدم كثيرون ! ولكننى احب ان اضع الحطب بنفسى . واشعله . . . فما اروع ذلك ! هل تعلم باننى افكر احيانا : «ما حاجتى الى كل هذه الاوسمة والتكريمات والامتيازات الفخرية ؟ . . اليس من الافضل ان اعيش على هذه الصورة فى الريف واشعل المدفأة ؟» .

اطلق الرجل المتعب ضحكة خافتة مرتابة .

— ماذا ؟ الا تصدق ؟ — هتف سيميون ايفانوفيتش ، ولعله ابتسم هو الآخر . — اقول لك كلمة شرف انا مستعد للتنازل عن ذلك ، مستعد للتنازل عن كل شىء !

— فلماذا لا تتنازل اذن ؟

— ليس ذلك بالبساطة التى تتصورها . فمن يسمح لى ؟

— تلك هى المشكلة — تنهد الرجل . — وانا ايضا لا ارغب فى ذلك . . .

— بالعكس ، فهم يعرضون علي ترقية ، ولكننى اقول فى نفسى : كلا ، فقد داخ رأسى من هذه الاعمال . شكرا ، كفاية .

— يخيل الى انك شاركت الآن فى هذا الاجتماع بخصوص . . . طرق سمعى عرضا . . .

— كلا . كانت عندى اشغال اخرى . فالاجتماعات كثيرة عندنا ايضا . . . ولكن هل تقضى الاجازة فى القرية كذلك ؟ حتى فى الصيف ؟

— على طول تقريبا . فأنا وابى نمارس صيد السمك هناك . . .

— اما انا فأرتاح فى المصح .

— اين ؟ فى مصح كيسلوفودسك ؟

— فيه وفى غيره .
— فى المبنى الرئيسى ؟
— كلا . فعندنا هناك مبنى خاص .
— اين ؟
— قريبا من كيسلوفودسك . . .
— اين بالضبط ؟ فأنا اعرف كل تلك الانحاء .
ضحك سيمبون ايفانوفيتش .
— كلا ، انت لا تعرف ذلك المبنى . فهو لا يرى من الطريق العام .
صمتا برهة ، ثم اوضح سيمبون ايفانوفيتش قائلا :
— انه وراء سياج عال .
— آ . . . — قال الرجل المتعب بنبرة غامضة . ولاذا بالصمت من جديد .
يبدو ان سيمبون ايفانوفيتش شعر بشىء من القلق لهذا الصمت . فقد واصل كلامه قائلا :
— اذا اردنا الحقيقة فالانسان يشعر هناك بالضجر بعض الشىء . صحيح ، يوجد بار : شمبانيا وفواكه وغيرها . . . ولكن ذلك لا يكفى ! فهو ممل .
— طبعا — قال الرجل المتعب بنفس النبرة الغامضة — مفهوم . . . هل يعرضون عليكم افلاما ؟
— كيف لا ؟ . . ولكن هل تعرف ماذا نفعل ؟ نهمل الافلام العادية ، فنجتمع لوحدنا ، نحن الرجال ، ونطلب فلما . . . من افلام . . . العراة . . . الا تعجبك ؟ — اطلق سيمبون ايفانوفيتش ضحكة مترددة — الافلام الخلاعية ممتعة على العموم !
لم يجد هذا الكلام اى صدى عند الرجل . فقد ظل صامتا . وهتف سيمبون ايفانوفيتش قلقا : — آ ؟
— ماذا ؟ — سأل الرجل .
— الا تعجبك تلك الافلام ؟
— لا ادرى . . . انا لم اشاهد الكثير منها .
— كيف ؟ تلك متعة تفوق الوصف . تظهر الواحدة منهن عارية . . . يا للشيطان . . . وهى تهز ذلك . . . تهزه ، وتتمايل وتتلوى وو . كلا ، تلك متعة تفوق الوصف حقا .



— عارية تماما ؟
— تماما .
— كيف ؟ . . هل تصور مثل هذه الافلام عندنا ؟
ضحك سيمبون ايفانوفيتش بملء رئتيه دون خوف او وجل .
— ليست افلامنا . فهى من الغرب .
— آ . . . طبعا ، فهى كثيرة هناك .
— انهم يجيدون صنعها ، اولئك الشياطين . هذه الحقيقة لا جدال فيها . واقول لك عن هذا كله : انه جميل !
— لا اعترض ! — قال الرجل مرتعبا .
— ربما تلومنى فى قرارة نفسك .
— انا ؟ لماذا ؟
— تلومنى ، فهذا واضح . ولكن لا تستعجل ولا تلمنى . لا تحسد سيمبون ايفانوفيتش . . . فأنت لا ترى كيف يغفو سيمبون ايفانوفيتش فيما بعد على الطاولة بكل معنى الكلمة . فأنا اقضى ساعات طويلة فى مراجعة الاضبارات . . . هل يمكننى ان اكون صريحا معك ؟
— وهل هناك داع لذلك ؟ — قال الرجل باستعجال وبدون اثر للتعب فى صوته — فأنا افهم ذلك جيدا . اذ يصادف ان ابقى بنفسى . . .
— طبعا ، طبعا . يصادف ان تبقى انت ايضا بدون نوم وبدون طعام . . . يا لكم من شياطين ! تتظاهرون بالمسكنة ، ثم تلتفتون وتومئون بأصابعكم وتقولون : ما اضخم كرش الجنرال ! هل ترى عندى كرشا ؟
— كلا ، طبعا ، من اين ؟! — ارتبك الرجل اشد الارتباك . — انا بالذات لا اعترض على ذلك . . . ليست القضية فى ذلك .
— فيم اذن ؟ — سأل سيمبون ايفانوفيتش بحدة .
— ليست فى . . .
— فى ماذا ؟
— ليست القضية فى ان هذا جنرال وذاك ليس بجنرال . فنحن جميعا نؤدى عملا واحدا فى آخر الامر .
— عجيب ! لماذا لم اكن اعرف هذا من قبل ؟ هل صحيح ان الجميع يؤدون عملا واحدا ؟
صمت الرجل . فسأله سيمبون ايفانوفيتش مجددا : — آ ؟ — ولم يكن

واضحا السبب الذى جعله يغضب .

ظل الرجل صامتا .

— لماذا انت صامت ؟ وانت ايضا صامت مثل اولئك ؟

— كفاية — يبدو ان الرجل نهض — هل أسأت اليك ؟ ما الذى اثارك علىّ ؟

— اعوذ بالله ! — اجاب سيميون ايفانوفيتش بصدق على الفور — لست ثائرا عليك اطلاقا . سألتك مجرد سؤال . خيل الى انك انت ثائر علىّ . اليس كذلك ؟

— اطلاقا . وعلى العموم حان موعد النوم . كم الساعة الآن ، بصورة تقريبية ؟

— بصورة تقريبية ؟ مع الاسف انى تركت ساعتى الفوسفورية . . . الساعة الثانية تقريبا .

— ربما كانت الثانية حقا . ينبغى ان ننام على ما اعتقد . اليس كذلك ؟

— طبعا . ثم انى شربت اليوم . . . إثناء تـوديـع الرفاق . طيب . لا بد من النوم .

صمتا فى الحال ، ولم يتحدثا بشىء .

تحير ميشكا ، فلم يعد يعرف من ذلك الذى تحت ؟ الصوت شبيه بصوت مالافيكين الى حد مدهش . واسمه ايضا سيميون ايفانوفيتش . . . ولكن ، كيف ذلك ؟ ميشكا يعرف عن مالافيكين تقريبا كل ما يمكن ان يعرفه المرء عن جاره حتى وان لم يتعمد خصيصا فى معرفة شىء عنه . ذات مرة سقط مالافيكين من صفالة الترميم واصيب برضوض وكسور . . . وكان آنذاك اعزب ، وقد ظل على هذه الحال . كان هادئا صموتا . وفى الآحاد تأتى اليه امرأة اكبر منه سنا ومعها طفلة . ميشكا لا يعرف صلة القربى التى تربطهما بمالافيكين ، ولكنه شاهده مع الطفلة مرارا فى الباحة : الطفلة تلعب فى الرمل ، ومالافيكين يقرأ جريدة . ربما كانت تلك اخته وابنتها ، فليس هناك ما يشير الى علاقات اخرى . هذه على العموم هى الصورة الكاملة لمالافيكين . اما الجنرال تحت . . . كلا ، فذلك مجرد تشابه . وتلك حالات نصادفها !

نزل ميشكا من رفه بهدوء وذهب الى المرحاض وعاد الى مكانه واغلق عينيه . خيم السكون على القمرة ، فغفا ميشكا .

كان ميشكا آخر من استيقظ فى الصباح بعد ان اقترب القطار من موسكو . فتح عينيه وتطلع الى تحت ، فرأى ، ويا للعجب ، سيميون ايفانوفيتش مالافيكين



جالسا قرب النافذة . وكان هناك شخص آخر قرب النافذة قبالته . وهو رجل مورد الخدين فى حوالى الخمسين من العمر . كلاهما ينظران عبر النافذة . وهناك فتاة ترتدى بنطالا وقد انزوت لتطالع كتابا . والكل صامتون .

نسى ميشكا الحوار الليلى فاراد ان يقول من فوق : «مرحبا ، يا جارى !» الا انه تذكر . . . فانكمش الى الداخل متحيرا . ظل راقدا يتذكر : فلربما سمع ذلك الحوار الليلى فى المنام ؟

وبينما كان يتذكر على نحو ممض سمع الرجل المورد الخدين يعدل قوامه ويقول بصوت مَنْ قضى وقتا طويلا فى صمت :

— يبدو اننا سنصل قريبا .

خشخشت ورقة على المائدة الصغيرة ، ولعلها جريدة ملفوفة ، ثم نهض وخرج من القمرة .

اطل ميشكا برأسه من فوق . . . فتطلعت اليه الفتاة ، ثم نظرت الى النافذة وغرزت انفها من جديد فى الكتاب . كان مالافيكين بانفه الافطس وعينيه الصغيرتين الخاليتين من الرموش وربطة عنقه وتسريحة شعره المفروق ، يتطلع عبر النافذة وينقر نقرات خفيفة على المائدة باصابع يده اليمنى .

— مرحبا يا جنرال ! — قال ميشكا بصوت خافت من فوق رأس مالافيكين

رفع مالافيكين رأسه بحدة . . . فالتقت نظراتهما . بهت الرجل وغدت عيناه الصغيرتان دائريتين ، حتى خيل لميشكا انهما ارتعبتا .

— اوه ! — قال مالافيكين باستهجان — من اين جاءنا الحلو ؟ . .

صمت ميشكا وتطلع الى جاره بنظرة اراد لها ان تكون ساخرة .

— لاى غرض . . . ترتحلون ؟ — سأل مالافيكين بلهجة فيها شىء من الحقد والتفت بسرعة نحو الباب .

بالضبط ، انه هو الذى الف البارحة اكذوبة الفيلا الحجرية ، وهو الذى تعب من الاوسمة والتكريم !

— لماذا كنت تهذر بالاكاذيب البارحة . . . — بدأ ميشكا كلامه ، الا ان الرجل المورد الخدين دخل القمرة فالتفت اليه مالافيكين مذعورا . . . ونهض على عجل وطفق يتكلم :

— ماذا ؟ سنصل قريبا ؟ — اشرأب بعنقه نحو النافذة مرتبكا ومسح فرق الشعر على رأسه — نعم . وصلنا تقريبا . هذا نهر ياوزا . هكذا اذن . . .

وصلنا — طبطب بقدمه لسبب ما ، وهم بالخروج من القمرة ، ولكنه عاد وانحنى على حقيبته .

وفكر ميشكا مندهشا : «يا سلام !» فقد رأى من فوق كيف احتقنت اذنا عامل الطلاء المتقاعد . وقرر ان لا يثقل عليه بعد الآن . واكتفى بمراقبته من فوق بمنتهى الاهتمام .

— هل انت ذاهب الى مركز المدينة ؟ — سأل المسافر المورد الخدين وتطلع باحترام الى مالافيكين .

— ماذا ؟ — انتفض مالافيكين — انا ؟ كلا ، كلا . . . السائق . . . انا ذاهب باتجاه آخر .

— اردت ان اذهب معك .

— كلا ، كلا . . . انا باتجاه آخر .

— وجهتنا محلة سفيبلوفو — قال ميشكا بصوت عال ، ثم تمطط وجلس على الرف . واستولت عليه نوبة من الضحك . فقال الرجل المورد الخدين :

— هل استيقظ رفيق الطريق ؟ صباح الخير ، يا فتى ! احسدك على نومك العميق ، فأنا ، عادة ، اتململ فى السفر ، والوم نفسي : لماذا لا انام ؟ الامكانية متوفرة فلماذا لا انام ؟

تطلع ميشكا الى مالافيكين باسما .

— كلا . لو نمت اكثر لتحسنت حالى تماما . . .

— النوم من نصيب الشباب .

اغلق مالافيكين حقيبته الصفراء وشد سيورها فانبعث منها صرير ، ثم حملها ووضعها فى دهليز العربة . . . ومد يده من الدهليز ، دون ان يدخل القمرة ، فخلع من المشجب معطفه الجلدى واخذ قبعته من الرف وذهب ليرتديهما هناك بعيدا عن الآخرين .

وفكر ميشكا : «يخاف ان افضحه . ما حاجتى الى فضحه ؟!» لم يدخل مالافيكين القمرة فيما بعد . فقد ارتدى معطفه وقبعته واخذ حقيبته وذهب الى مدخل العربة .

الا ان ميشكا كان يتربص به على رصيف المحطة . لحق به وسار جنبه . ثم سأله بلهجة مصالحة :

— هل شربت كثيرا امس ؟ لماذا كذبت الى هذا الحد البارحة ؟ لماذا ؟

— ابتعد عنى ! — جأر مالافيكين فجأة . واحتقن وجهه فغدا كالشمندر —



لماذا تثقل علىّ ؟ ! الا تزال سكران ؟ اذهب واصح ! لماذا تلاحقنى ؟ ! لماذا ؟ !

التفت المارة اليهما . . . وخفف البعض خطاهم متوقعين نشوب شجار .

تخلف ميشكا كيلا يطرأ شىء غير محمود مما يراقق ، عادة ، الاخذ والرد فى هذه الاحوال . ولكنه ظل يتعقب مالافيكين بنظراته . فقد غضب عليه .

دخلا المترو معا . . . ميشكا يراقب مالافيكين طوال الوقت ، ولكنه لا يدرى كيف يكشف حقيقة هذا الافّاك ! فحالما يتعرض له سيدعو هذا رجال المليشيا .

التفت مالافيكين بحذر فى عربة المترو . . . فوقع بصره على نظرة صريحة ماحقة من ميشكا الذى غمز له بعينه . واحتقنت اذنا مالافيكين من جديد بلون زهر الخشخاش القانى . وارتفعت مؤخرة قبعته بدفعة من ياقة معطفه الجلدى الصلبة . . . ولم يلتفت مالافيكين بعد ذلك .

على السلم المتحرك عند مخرج المترو اقترب ميشكا مجددا من مالافيكين . . . وهمس فى اذنه :

— ارجوك ، لا تصرخ ، لا تصرخ . . . سأسألك سؤالا واحدا لا غير . عندى اخ فى لينينغراد مثلك . . . احمق يحب التباهى . فلماذا تتباهون ؟ ما الذى تريدونه من ذلك ؟ انى اسألك بجد .

لم يجب مالافيكين ، وراح ينظر الى اعلى والى امام .

— هل تسهل الحياة عليكم عندما تتباهون ؟

لم يجب مالافيكين .

— لماذا كذبت البارحة على الرجل ؟ لماذا ؟

حالما استوت درجات السلم المتحرك استعدادا للفظهما من داخله ، بدأت نظرات مالافيكين تبحث عن احد رجال المليشيا . سبقه ميشكا وهو يتلفت ، فوصل الى موقف الباصات قبله . وقرر فى نفسه : «سانتزع الجواب منك فى باحة المنزل» .

عندما نزلا من الباص قرب المنزل همّ ميشكا بالتوجه الى مالافيكين ، الا ان هذا هز رأسه فجأة بعصبية حتى كادت قبعته تسقط وانكمش وجهه وتجعد بشكل مؤلم وضرب الارض بقدمه وصاح بأعلى صوته :

— لا تقترب منى ! لا تقترب ! — صاح واستدار واسرع نحو المنزل ، حتى كاد يركض . وكانت الحقيبة الكبيرة الصفراء المشدودة السيور تضرب ساقه . وتجعد المعطف الجلدى وهو يبعث حفيفا مقبولا . وعدل مالافيكين قبعته على

عجل بيده اليسرى . . . ولم يلتفت ولا مرة واحدة .

واشفق ميشكا فجأة عليه . وقال بصوت خافت وهو يخاطب نفسه :

— مهذار ، كذاب ! عنده فيلا بمدفأة حجرية . . . لا اقل ولا اكثر . . .

يا له من كذاب ! هؤلاء الكذابون يدعون بانهم يعرفون كيف يعيشون . . .

وذهب ميشكا هو الآخر . ذهب الى الحانوت ليشترى علبة سجائر ، فقد نفدت سجائره .

١٩٧٢

# فى الخريف

استمع فيليب تورين الى نشرة الاخبار وجلس بعض الوقت عند الطاولة صامتا متجهما . . . ثم قال بغيظ :

— ملاعين ! لا يهدأون .

— على من انت غاضب هذه المرة ؟ —

سألت زوجة فيليب ، وهي عجوز شمطاء بيدين عريضتين كأيدى الرجال وصوت جهورى كصوت الرجال .

— يقصفون ! — اومأ فيليب الى مكبر الصوت .

— يقصفون من ؟

— الفيتناميين .

العجوز لا تحبذ ولع زوجها بالسياسة . بل ان هذا الولع السخيف يثير سخطها . ويصادف ان يتشاجرا بحدة بسبب السياسة . الا انها الآن ليست راغبة فى الشجار . فالوقت ضيق وهى تستعد للذهاب الى السوق .

ارتدى فيليب المهمدع المتجهم لبسا ادفأ وتوجه الى العبّارة .

فيليب يعمل على العبارة من زمان ، منذ ان جرح فى رأسه اثناء الحرب ولم يعد قادرا على ممارسة النجارة اذ يصعب عليه الانحناء .

الوقت اواخر ايلول . والريح تهب بعد المطر فتحمل الرطوبة والبرد . ويبقبق الوحل تحت القدمين . وتنبعث من مكبر الصوت قرب حانوت القرية موسيقى رياضة الصباح ، فتمزق الريح تلك الموسيقى مع صوت المذيع النشيط ، وتتطاير المزق فتختلط بزعيق خنازير القرية وصياح الديكة الحاد الناشز .

كان ابناء القرية فى الطريق يحيون فيليب بايماءة من الرأس ويغذون السير ، بعضهم الى الحانوت لشراء الخبز ، وبعضهم الى موقف الباص ، فهم ايضا مسرعون الى السوق .

اعتاد فيليب كل صباح على اجتياز المسافة بين المنزل والعبارة بهدوء ، ذلك لانه يفكر بشىء ما ، ولكنه لا يفكر ، مثلا ، بالعبارة او بالذين سيعمل طوال النهار لتأمين عبورهم الى الشاطئ الآخر . فهذا شئ واضح لا يحتاج الى تفكير . انه يفكر الآن بكيفية تهدئة الاميركان واطفاء لهيب الحرب . كان فيليب نشيطا منذ الفتوة . فقد انخرط بهمة فى الحياة الجديدة ، وساهم بنشاط فى اشاعة التعاونيات . . . صحيح انه لم يشارك فى مصادرة اموال برجوازى الريف ، ولكنه كان يجادل كثيرا ويصيح ويتفعل فى محاولاته

لاقناع المترددين . ولم يكن عضوا في الحزب فتلك مسألة لم يتناولها الرفاق المسؤولون ابدا ، الا ان هؤلاء المسؤولين لم يستغنوا عن فيليب مطلقا . فقد كان يساعدهم من صميم القلب . وهو يفتخر في دخيلة نفسه بانهم لا يستطيعون الاستغناء عنه . كان يعجبه في مجلس سوفييت القرية ، مثلا ، ان يناقش مع الرفاق القادمين قبيل الانتخابات ، كيفية اجراء تلك الانتخابات على نحو افضل : من الذي يتعين ان يرسل اليه صندوق الاقتراع وهو في منزله ومن سيأتي الى مبنى المجلس بنفسه ، ولكن يجب تذكيره بذلك في الصباح . . . ويصادف ان يعاند البعض ويحاولون الامتناع عن الذهاب ويقول الواحد منهم : «طلبت حصانا لجلب الحطب فهل اعطوني اياه ؟» . وكانت هذه الاقوال تثير دهشة فيليب ، فيقول لذاك الرجل : «انت تدهشني ، يا ايغور . فهل هناك مجال للمقارنة ؟! الانتخابات قضية سياسية ، بينما تتحدث انت عن الحصان . فلماذا تخلط بين الاخضر واليابس ؟» . ثم يجوب القرية ليثبت هذه الحقيقة للناس . وكانوا يثبتون له حقائق اخرى ويرغبون في مجادلته ولا يزعلون منه ويقولون له «انقل رأينا اليهم . . .» . فيتحسس فيليب اهمية الموقف وينفعل ويتأثر . ويفكر مشغولا بهموم القضية العامة : «يا لهم من جهلة حمقى» . وبمر السنين ضعفت همة فيليب ، وبعد ان جرح في رأسه اثناء الحرب لم يعد يقوى على النشاط السياسي والانفعال . غير انه ظل مهتما بالقضايا العامة فيشغل باله بها ويقلق بسببها .

كانت الريح تصول وتجول على النهر ، وتصفع الناس وتدفعهم . . . وكانت حبال العبارة تدوي . الا ان الشمس طلعت ، وهذا شيء لطيف .

ساق فيليب العبارة جيئة وذهابا فعبّر اول المستعجلين واكثرهم لجاجة ، ثم سارت الامور بيسر وبدون انفعال . واستعد فيليب مجددا للتفكير بالاميركان ، الا ان موكب زفاف قد وصل . . . مراسيم الزفاف الآن حتى في القرى تجرى حسب الموضة : بالسيارات المزينة بالاشرطة والنفاخات الملونة . وصلت ثلاث سيارات . . . فنزل الجمهور منها الى الضفة في صخب وضجيج ، والبعض في سكر خفيف . ذلك زفاف في منتهى التظاهر والفخفخة . صحيح ان الموضة تستدعي استئجار السيارات المزينة بالاشرطة الملونة ، ولكن تلك لا تزال ظاهرة نادرة ، فليس بمقدور الجميع الحصول على السيارات بعد .

تطلع فيليب الى موكب الزفاف باهتمام . وهو لا يعرف هؤلاء الناس ، فهم ليسوا من ابناء هذه الانحاء . لقد جاءوا ليحلوا ضيوفا على احد . وكان اكثر المتبخترين رجل يرتدي قبعة ، ولعله هو الذي تمكن من استئجار السيارات . فكان يسعى



طوال الوقت ليكون الزفاف اكثر فخفخة وابهة . وحمل عازف الاكورديون على العزف حتى في العبارة وصار يرقص ويزعق ويطقطق بقدميه ويوزع نظراته الحادة . الا ان التطلع اليه يثير الخجل ولا يبعث على الارتياح . كان العروسان خجلين لذلك ، فهما اقل الحاضرين سكرا واكثرهم حياء . وبذل الرجل الذي يرتدي قبعة جهدا كبيرا في رقصته الخرقاء حتى تعب دون ان ينجح في اجتذاب احد للمشاركة في مرحه المصطنع . . . بلغت العبارة الشاطئ فانزلقت السيارات منها ، وواصل موكب الزفاف مسيرته .

واخذ فيليب يفكر بحياته . فتذكر قصة زواجه . كانت في قريتهم فتاة حسناء اسمها ماريا يرميلوفا . وهي شابة بشوش موردة الوجنتين لهامحيا كالقمر . . . عروس لا احلى ولا اجمل . فتاة الاحلام بكل معنى الكلمة . كان فيليب متيما بها ، وكانت ماريا تحبه ايضا . وكانت الامور تسير في مجراها باتجاه الزفاف . الا ان فيليب ارتبط باعضاء اتحاد الشبيبة . . . وكعادته ، لم يكن عضوا في هذا الاتحاد ، الا انه يضج ويرفض كل شيء مثل اعضائه . فقد اعجب فيليب بثورة الشباب على شيوخ الريف وتعسفهم . وحدث ان هب كل الشباب الواعين ضد عقد القران في الكنيسة . وثار هرج ومرج لم يسبقهما مثيل . . . اسقط في يد الشيوخ فاشتاطوا غضبا وامتشقوا السياط لعلها تصلح هؤلاء الغلمان ، الا ان ذلك دفعهم الى المزيد من العناد . كانت تلك فترة هياج عام . وهل يمكن لفيليب ان يتخلف عن الركب ؟ فهو ايضا يرفض القران هناك . اما ماريا فلم ترفضه . ابوها وامها متشددان . ثم انها هي نفسها راغبة في هذا القران ، فقد تملصت نهائيا من صفوف الطليعيين . وواجه فيليب موقفا حرجا . بذل قصارى جهده لاقناع ماريا بكل الوسائل (كان يجيد الكلام ، ولعل ماريا تحبه من اجل ذلك ، فهو فن نادر في الريف) وبدد الظلمة القروية الحالكة وقرأ لماريا مختلف المقالات الجادة والساخرة ، وكان يبتسم عبر الدموع . . . الا ان ماريا مصرة على رأيها : لا بد من القران في الكنيسة . والآن يدرك فيليب ، وهو يلقي نظرة على حياته السالفة ، انه اقدم انذاك على حماقة لا تغتفر . فقد افترقا . لم يتغير فيليب فيما بعد . لم يأسف ابدا ، وهو لا يأسف الآن ايضا ، على مشاركته في اعادة بناء الحياة ، على قدر الامكان ، ولكنه يأسف لماريا . ظل فؤاده يتألم ويتلوع طول حياته . ولم يمر عليه يوم دون ان يتذكر ماريا . في بادئ الامر اراد ان ينتحر من شدة الالم . ولم يخف عليه ذلك الالم بمر السنين . انشأ عائلة — حسب اصول الزواج المدني — وانجب اطفالا . . . الا ان فؤاده ظل

يتعذب ويتلوع على ماريا . وعندما عرفت زوجته فيوكلا كوزوفنيكوفا سر حزنه المزمن هذا كرهته ، وصارت هذه الكراهية المكبوتة العميقة تعيش معها وتلازمها على الدوام . اما فيليب فلم يكره زوجته ، ابدا . . . ولكنه اثناء الحرب ، مثلا ، عندما يقال لهم «انكم تدافعون عن امهاتكم وزوجاتكم . . .» كان فيليب يرى فى تصوراته ماريا بدلا من فيوكلا . ولو قدر له ان يقتل لمات دون ان تفارقه صورة ماريا . الالم لم يتلاش بمر السنين ، ولكنه لم يعد يلسعه كما كان فى السنوات الاولى لحياته الزوجية . وبالمناسبة فقد قلل من الكلام آنذاك . ظل نشيطا كالسابق ، وكان يتكلم لان من اللازم اقناع الناس ، ولكنه يفعل ذلك وكأنما يتملص مؤقتا من خواطره المريرة العميقة . فهو يغرق فى تأملاته ، ثم ينتبه الى نفسه ، ويشرع مرة اخرى بتوعية الناس فيفتح عيونهم على كل جديد . اما ماريا . . . لقد غادرت ماريا القرية آنذاك . تعرف عليها شاب موسر نكرة من قرية كرايوشكينو (لم يكن نكرة فى الواقع ، فقد تقابل معه فيليب مرارا فيما بعد) وجاء الخطّابة فخطبوها واخذوها . وعقد القران فى الكنيسة طبعا . وبعد عام سأل فيليب من باڤل زوج ماريا : «الم تخجل من الذهاب الى الكنيسة ؟ . . .» . فتظاهر باڤل بالدهشة ثم قال : «ما الذى اخجل منه ؟» — «تنازلت للعجائز» — «لم اتنازل ، فأنا نفسى كنت اريد القران فى الكنيسة» — «ولذا أسألك — ارتبك فيليب — الم تشعر بالخجل ؟ فالعجائز معذورون . اما انت . . . بهذه الصورة لن تتخلص من الجهالة ابدا» . ورد باڤل على ذلك بشتيمة بذيئة وقال : «ظظ عليك !» . وانقطع الحوار بينهما . الا ان فيليب لاحظ ان باڤل ينظر اليه اثناء مقابلاتهما بحقد دفين ، بل وبألم ، وكأنه يريد ان يفهم شيئا فلا يستطيع . وبلغ مسامعه ان باڤل وماريا يعيشان بفتور ودون وئام وان ماريا كئيبة . وكانت تلك الاشاعة هى الشعرة التى قصمت ظهر البعير . فقد ادمن فيليب على الخمر بسبب الالم الجديد الذى داهمه ، ولكنه كف عن الشراب وظل يحمل فى دخيلته ثعبان الالم الذى يلدغه طوال الوقت ، الا انه الف ذلك .

تلك هى الافكار الحزينة التى استثارها موكب الزفاف . ظلت هذه الافكار تلازم فيليب وهو يعبر النهر جيئة وذهابا ، فرغب ان يشرب قدحا من القودكا اثناء الغداء ، اذ ان الريح تنخر العظام ، والفؤاد بدأ يتعذب ، فقد حز فيه الالم وانتابه قلق شديد .

وفكر فيليب : «ساعبر النهر مرتين او ثلاثا ثم اذهب للغداء» .



عندما اقترب من شاطئ الآخرين (فلدى فيليب شاطئه الذى تقع قريته عليه وشاطئ الآخرين) شاهد بعينه الثاقبة سيارة شحن مسقفة وجمهورا من الناس قربها . وادرك فى الحال ان السيارة تحمل تابوتا . فالناس هنا ينقلون الموتى بطريقة واحدة : قرب العبارة ينزلون من السيارة ويتركون الميت وحده فيها ويقفون واجمين ويتطلعون الى النهر صامتين ، فيغدو كل شىء واضحا فى الحال .

«من يا ترى ؟ — فكر فيليب وهو يحملق فى الناس — لعله من قرية فى اعالى النهر ، فهو لم يسمع بوفاة احد فى القرى القريبة . ولكن لماذا جلبوه ؟ هل توفى فى مكان آخر وهم ينقلونه لدفنه فى قريته ؟»

عندما صارت العبارة اقرب الى الشاطئ شاهد فيليب بين الجمهور الواقف ازاء السيارة باڤل زوج ماريا . فادرك فى الحال من المتوفى . . . ماريا . تذكر ان ماريا سافرت فى مطلع الصيف الى ابنتها فى المدينة . وتحدث فيليب معها اثناء عبور النهر ، فقالت له ان ابنتها المقيمة فى المدينة ولدت ولا بد من مساعدتها . تحدثا آنذاك بطيبة خاطر . وقالت ماريا انهم يعيشون بصورة لا بأس بها ، وان ابناءها الثلاثة على ما يرام ، وهى تستلم معاشا وباڤل يستلم معاشا ايضا ، ولكنه لا يزال يمارس التجارة فى المنزل بين حين وآخر . وليس عندهم ماشية كثيرة ، لكن امورهم على ما يرام . . . وقد اخذوا يربون الدجاج الرومى . ورمموا المنزل فى العام الماضى ، ووصل ابناؤها للمساعدة فى الترميم . وقال لها فيليب ان امره هو الآخر على ما يرام حتى الآن وانه يستلم معاشا ايضا ولا يشكو من اعتلال فى صحته بعد ، مع ان الصداع ينتابه بسبب تغير الطقس . وقالت ماريا ان قلبها يوجعها بين فترة واخرى . فهو يخزها ويوجعها تارة ، ولا يؤلمها تارة اخرى . . . وفى الليل يصادف ان يشتد الالم لدرجة لا تطاق . يبدو ان ماريا قد توفيت . . . حالما رأى فيليب باڤل ندت عنه آهة واقشعر بدنه .

ارتطمت العبارة بالرصيف الخشبى المتضعضع ، وربطوا سلاسلها بحلقات الرصيف وثبتوها بالعتلات . . . وتحركت سيارة الشحن لتدوس بعجلتيها الاماميتين على الواح الرصيف فطقطقت الالواح وصرت وقرقعت . . .

وقف فيليب مصعوقا قرب مقود العبارة واخذ ينظر الى السيارة . يا الهى ، تلك ماريا ، ماتت ماريا . . . كان يتعين على فيليب ان يدل السائق على المكان المخصص لسيارته على العبارة ، فوراءها سيارتان اخريان تنتظران دورهما ، الا ان فيليب تجمد فى مكانه عاجزا عن تحويل بصره عن متن الشاحنة . وصاح السائق متسائلا :

— اين اوقفها ؟

— ماذا ؟

اين اوقف الشاحنة ؟

— اوقفها . . . — لوح فيليب بيده لا على التعيين ، فهو لم يتمكن اطلاقا ان يتصور بانهم ينقلون جثة ماريا . . . الافكار تتراقص مشتتة فى ذهنه وترفض الانتظام فى سياق واحد ، فى دائرة الاحزان . فهو تارة يتذكر ماريا وهى تتحدث اليه هنا ، على هذه العبارة ، وتقول انهم يعيشون حياة لا بأس بها . . . وتارة يراها فى شبابها غضة . . . يا الهى ، يا الهى . . . ماريا . . . هل من المعقول انك ؟ . .

انتزع فيليب قدميه من مكانهما اخيرا وتوجه الى بافل . اناخت الحياة بثقلها على بافل . لا يزال محياه نضيرا وعيناه صافيتين ذكيتين ، ولكنه محدودب الظهر وعيناه الذكيتان تطفحان أسى هادئا . وسأله فيليب :

— ماذا ، يا بافل ؟ . .

القى عليه بافل نظرة خاطفة ، فلم يفهم ، على ما يبدو ، ما سئل عنه ، ثم اخذ ينظر من جديد الى تحت ، الى الواح العبارة . وتحرج فيليب من تكرار السؤال . . . فعاد من جديد الى مكانه عند مقود العبارة ، بعد ان استدار حول السيارة من جهة مؤخرتها والقى نظرة الى داخلها فرأى التابوت . اعتصر الالم فؤاده بشده ، فلمّ شتات افكاره فى سياق واحد : اجل ، انها ماريا .

وانسابت العبارة . فكان فيليب يدير مقودها شارد البال ويكرر فى نفسه «ماريا ، يا حبيبتى ماريا . . .» . اعز انسان عليه ينقل معه على العبارة للمرة الاخيرة . خلال الثلاثين عاما التى قضاها فى العمل هنا يعرف بدقة عدد المرات التى عبرت فيها ماريا النهر معه . كانت بالاساس تقصد المدينة لزيارة ابنائها ، عندما مارسوا الدراسة ، وعندما بدأوا يدبرون امورهم وعندما انجبوا اطفالا . . . اما الآن فهى ليست على قيد الحياة .

بلغت العبارة الشاطئ . وجلجلت السلاسل مجددا ، وزأرت المحركات : ووقف فيليب من جديد عند المقود وهو يتطلع الى الشاحنة . شىء مهول . . . فهو لم يفكر ابدا طوال حياته : ماذا سيحدث لو ماتت ماريا ؟ لم يفكر بذلك ولا مرة واحدة . الشىء الوحيد الذى لم يكن مستعدا له هو موتها . وعندما تحركت الشاحنة لتغادر العبارة احس فيليب بالم فى الصدر لا يطاق . وانتابه القلق . فعليه ان يفعل شيئا . والا فسوف يأخذونها فى الحال . الى الابد .



كيف يجوز ان يشيعها بنظرة لا غير ؟ ما العمل ؟ القلق يستولى عليه ، اما هو فلا يحرك ساكنا . وجعله ذلك يفقد السيطرة على نفسه .

وادرك عندما نزلت السيارة من العبارة ان من اللازم ان يودعها : «اودعها على الاقل ! . . وانظر اليها للمرة الاخيرة . فالتابوت غير مغطى بعد ، ويمكن النظر اليها !» . وتصور فيليب ان هؤلاء الناس الذين جاءوا بماريا ومروا به معها مر الكرام ما كان يجب ان يفعلوا ذلك . فاذا كانت تلك المصيبة من نصيب احد ، فهى مصيبته قبل غيره . ماريا فى التابوت ! فالى اين اخذوها ؟ . . واتهار على فيليب كل ما هو عزيز لحد الالم وكل ما لم يطوه النسيان ولم يمحه الزمن ولم تجتثه الحياة . . . كل حياته الطويلة لاحت امامه ، كل ما هو اساسى وهام مما كان يعيش من اجله . . . ولم يلاحظ كيف انهمرت الدموع من عينيه . وراح يتابع الشاحنة القطيعة التى تحمل التابوت . . . ارتقت الشاحنة الجرف ودخلت الشارع ثم اختفت . ستسير حياته الآن على نحو آخر . فقد تعود بان ماريا موجودة على هذه الارض . وعندما تضيق به الدنيا يتذكر ماريا ولا يشعر بالتيتم . فكيف به الآن ؟ يا الهى ، ما اقسى هذا الخواء ، وما اشد هذا الالم !

ترك فيليب العبارة على عجل . وكانت آخر سيارة نزلت منها قد تلكأت لسبب ما . . . فصعد الى قمرتها وقال للسائق :

— الحق بالشاحنة التى . . . تحمل التابوت .

— لماذا ؟

— ضرورى .

نظر السائق الى فيليب ولم يقل شيئا ، وانطلقت السيارة .

وعندما كانت تسير فى القرية القى السائق مرارا نظرات جانبية الى فيليب وسأله مشيرا الى الشاحنة فى الامام :

— هؤلاء من كرايوشكينو ، اليس كذلك ؟

هز فيليب رأسه بالايجاب صامتا . فسأله السائق من جديد : — اقرباؤك ؟

لم يجب فيليب ، وحملق من جديد فى متن الشاحنة . فرأى التابوت بداخلها . . . وخيل لفيليب مرة اخرى ان الجالسين على جانبى التابوت غرباء على فيليب نفسه وعلى الميت . فلماذا يجلسون هناك ؟ فى التابوت ماريا ، فلماذا يجلسون حوله ؟ وسأل السائق : — هل تريد ان تسبقها ؟

— اسبقها . . . وسانزل .

سبقا الشاحنة فنزل فيليب ورفع يده . انتفض فؤاده بمنتهى الشدة وكأن

شيئا سيحدث الآن فيتضح منه للجميع ، ولفيليب ايضا ، من هى ماريا بالنسبة له . لم يكن يعرف ما الذى سيحدث ، وأية كلمات سيقول عندما تتوقف الشاحنة فقد كان يتوق الى رؤية ماريا ، كان بحاجة ماسة الى رؤيتها فلا يجوز ان تذهب بهذه البساطة . حياته هو ايضا قد تصرمت ، ولم يبق عنده احد . . .

توقفت السيارة .

فتوجه فيليب الى مؤخرتها . . . امسك المتن بيديه وصعد السلم الحديدى القصير المتدلى فى الاسفل .

— بافل . . . — قال بصوت مستعطف غريب عليه هو نفسه ، فلم يكن ينوى الكلام بهذه اللهجة المستعطفة — اريد ان اودعها . . . ارفع الغطاء ، لانظر اليها على الاقل .

نهض بافل محتدا وخطا نحوه فجأة . . . فتمكن فيليب من رؤية وجهه عن كثب . . . تغير هذا الوجه فى الحال ، وتطاير الشرر من العينين اللتين كانتا مفعمتين بالكآبة قبل حين . . .

— اذهب من هنا ! — قال بافل بصوت خافت قاس ، ودفع فيليب من صدره . لم يكن فيليب يتوقع ذلك ، فكاد يسقط ، الا انه تشبث بمتن السيارة — اذهب ! — صرخ به بافل ، ودفعه مرة ثانية وثالثة ، دفعه بشدة ، فاضطر فيليب الى التشبث بمتن السيارة بكل قواه وهو ينظر الى بافل مصعوقا متحيرا ولا يفهم شيئا فى تصرفه هذا .

— آه ، كيف يجوز ذلك ؟ — اضطرب الجالسون فى السيارة . ونهض شاب ، لعله ابن بافل ، وامسك بكتفيه وابتعد به الى داخل السيارة . — كيف ذلك ؟ ماذا بك ؟

— فليذهب ! — قال بافل بمنتهى الغضب . — فليذهب من هنا ! . . . هذا الوغد السافل . اذهب ، اذهب ، والا سترى ما لا يرضيك . — ضرب بافل الارضية بقدمه ، حتى لكأنه قد جن من اثر المصيبة .

نزل فيليب من السيارة . وادرك الآن ما حدث لبافل . فالقى عليه من تحت نظرة غاضبة كذلك ، وتلفظ دون وعى منه بكلمات كانت ، على ما يبدو ، تعيش فى دخيلة نفسه جاهزة :

— ماذا ؟ طعمه مر ؟ . . نهبت ما لغيرك ، ولكن طعمه مر . وفرحت آنذاك .

— ولكنك انت لم تذق طعم الفرحة ! — قال بافل من داخل السيارة —



تتصورني لا ادرى بذلك ؟

— تلك هى نتيجة من يبنى حياته على تعاسة الغير . — واصل فيليب كلامه دون ان يسمع ما قاله بافل . فمن المهم جدا بالنسبة له ان يقول ما يريد وما يحزّ فى نفسه — ظننت انك ستعيش فى نعيم ، اليس كذلك ؟ كلا . مستحيل . انا ارى الآن كم كلفك ذلك . . .

— وهل عشت انت فى نعيم ؟ انت . . . نفسك ، يا احدب ، لماذا انحنى ظهرك ، اذا كنت تعيش فى نعيم ؟ اليس ذلك بسبب تعاستك ؟

— فرحت آنذاك ، اليس كذلك ؟ وهذه هى النتيجة . . . ايها المتسول . انك متسول لا اكثر .

— ماذا بكما ؟ — غضب الشاب — هل جننتما ؟ وهل الوقت مناسب ؟

تحركت السيارة . وتمكن بافل ان يصيح من داخلها :

— انا متسول ! . . اما انت فتعوى طوال حياتك ككلب مطرود . انت المتسول ، وليس انا !

عاد فيليب ادراجه على مهل .

وفكر : «آه ، يا ماريا ، ماريا . . . كيف قلبت حياتنا ؟ نبحنا على بعضنا البعض ، كأحمق يريد ان ينهش احمق . كلانا متسولان ، يا بافل ، مهما عاندت . وان لم تكن متسولا فلماذا انت غاضب ؟ ما الداعى للغضب اذن ؟ اقتطعت لنفسك ، منذ الصبا ، قطعة من السعادة ، فلماذا لم تفرح لها ؟ انك ، انت ايضا لا تعرف الفرحة . فهى لم تكن تحبك ، وهذا ما جعلك تختنق بالمصيبة الآن . ما كان ينبغى لك ان تلتهمها آنذاك . جئت على عجل واخذتها على عجل ! وتصورت بانك ستسعد معها» .

فيليب متألم جدا . . . وها هو الالم المرير يختلط الآن بالاسى والسخط على ماريا .

«فهى ايضا مقصرة : بدلا من الانتظار اسرعت الى كرايوشكينو ! لم تصبر ولم تنتظر . فماذا كانت النتيجة ؟ وماذا بعد ؟ . .»

وقال فيليب مخاطبا نفسه بلهجة قاطعة :

— ماذا بعد ؟ . . لاشىء . لا بد من ان اعيش بقية حياتى على نحو ما . . . واتهيأ ايضا للحاق بها . فما فات فات .

خفت الريح بشكل ملحوظ وصحت السماء وتنورت الشمس ، الا ان الجو بارد مع ذلك . كل شىء بارد اجرد . ذلك هو الخريف ، فمن اين له بالدفء ؟

١٩٧٣

# العناقيد الحمراء

## قصة سينمائية

بدأت احداث هذه القصة فى اصلاحية بلدة شمالية واقعة فى بقعة وعرة لا يعوزها الجمال .

حل المساء بعد نهار قضوه فى العمل ، فاجتمعوا فى النادى .

ظهر على خشبة المسرح رجل عريض المنكبين مورد الوجنتين واعلن قائلا :

— والآن تنشدنا جوقة اصحاب السوابق اغنية «رنين المساء» الشاعرية الرقيقة !

ظهر افراد الجوقة من وراء الكواليس وساروا الواحد تلو الآخر واصطفوا على مجموعتين احداهما اصغر من الاخرى . ولم يكن بينهم من يدل مظهره على ان له ضلعا فى فن الانشاد .

اشار الرجل العريض المنكبين الى المجموعة الكبرى وواصل كلامه :

— تضم مجموعة «بُم — بُم» الاشخاص الذين تنتهى محكوميتهم غدا . وذلك احد تقاليدنا التى نحافظ عليها .

شرعت الجوقة بالانشاد ، فانبعثت نغمة الاستهلال من المجموعة الصغرى واطرقت الرؤوس فى المجموعة الكبرى متأهبة ، وهدرت الاصوات بحماسة فى اللحظة المناسبة:

بُم ، بُم — م . . .

فى مجموعة «بُم — بُم» نرى بطل قصتنا ايغور بروكودين حليق الرأس فى سنه الاربعين . كان ينشد بمنتهى الحماسة . وعندما يدوى «الرنين» تنكمش جبهته وتنخفض ويتمايل رأسه المستدير حتى يخيل للرائى بان رنين الناقوس يحوّم ويتمايل حقا فى نسيم المساء .

على هذا النحو انتهت آخر محكومية لايغور بروكودين . وليس امامه الآن الا الحرية .

فى صبيحة اليوم التالى استدعاه احد المسؤولين فى الاصلاحية الى مكتبه وبادره بالسؤال :

— ماذا يا بروكودين ؟ كيف تنوى العيش الآن ؟ — يبدو ان هذا الرجل قد تساءل عن ذلك مرارا . فقد تناثرت كلماته جاهزة معلبة .



— ساعيش بنزاهة ! — اجاب ايغور على عجل وبدا جوابه جاهزا ايضا ، فقد انطلق به لسانه بيسر يثير الدهشة .

— مفهوم . . . ولكن كيف ؟ كيف تتصور ذلك ؟

— اعتقد انى سأعمل فى الفلاحة ، يا سيادة المدير .

— الرفيق المدير .

— ماذا ؟ — تساءل ايغور مستفهما .

— كل الناس الآن رفاق بالنسبة لك — ذكره المسؤول .

— آ ، نعم ! — تذكر بروكودين بارتياح ، بل وضحك لكثرة نسيانه — اها . . . سيكون هناك رفاق كثيرون !

— ما الذى يعجبك فى الفلاحة ؟ — سأل الرجل صادقا .

— انا اصلا فلاح ! وعلى العموم احب الطبيعة . سأشترى بقرة . . .

— بقرة ؟ — دهش المسؤول .

— نعم ، بقرة ضرعها بهذا الحجم — اشار ايغور بيديه .

— الابقار لا تنتقى بضروعها . اذا كانت البقرة صغيرة فمن اين لها ضرع «بهذا الحجم» ؟ واذا انتقيت بقرة بهذا الضرع فستكون عجوزا من كل بد . . . فما نفعها ؟ البقرة يجب ان تكون . . . رشيقة .

— يعنى انتقيها لقوائمها . — قال ايغور مداهنا .

— ماذا ؟

— اقول : كيف انتقيها اذن ؟ بقوائمها ؟

— ما شأن قوائمها ؟ يجب انتقاؤها حسب اصنافها ، فهناك اصناف معينة للابقار . . . مثلا البقر الهولندى . . . — وتوقف المسؤول عند هذا الحد لجهله بالاصناف الاخرى .

— انا احب الابقار — كرر ايغور مؤكدا — سأقتاد بقرتى الى مكانها . . . فى السقيفة . . .

لاذ المسؤول وايغور بالصمت وهما يتطلعان الى بعضهما البعض . ثم قال الاول موافقا :

— شراء بقرة شىء جيد . ولكن هل سترعى البقرة فقط ولن تمارس عملا آخر ؟ هل لك حرفة ما ؟

— اعرف حرفا عديدة .

— مثلا ؟

فكر ايغور وكأنه يختار من بين حرفه العديدة اكثرها . . . ان صح القول . . . اكثرها بعدا عن السرقة .

— براد . . .

رن جرس التلفون فالتقط المسؤول السماعة .

— نعم ، نعم . اى درس ؟ بأى موضوع ؟ ملحمة «اوجين اونيغين» ؟ وما هى الاسئلة التى طرحوها ؟ حول من ؟ تاتيانا ؟ ما هى التقاط الغامضة عليهم فى شخصية تاتيانا ؟ اقول ما هى . . . — استمع المسؤول بعض الوقت الى صوت رفيع يزعق فى السماعة والقى على ايغور نظرة عتاب ولوم وهز رأسه قليلا كأنه يؤكد ان كل شىء واضح له — اسمعى : قولى لهم بان يتركوا الحذلقة ، هل المسألة فى ان تنجب الاطفال ام لا ؟ ! ليس هذا ما نظم بوشكين الملحمة من اجله ! حذريهم ، والا فسوف اجئ واوضح لهم ما لا يعجبهم ! قولى لهم . . . حسنا ، سأبعث اليكم نيكولايف . — وضع المسؤول السماعة والتقط سماعة الجهاز الثانى . فتمتم بانزعاج ، وهو يضرب رقم التلفون : يا لهم من اساتذة . . . ألو ، نيكولايف ؟ حدث اضطراب فى درس الادب : اخذوا يوجهون اسئلة للمدرسة . ماذا ؟ «اوجين اونيغين» . ليس بخصوص اونيغين ، بل بخصوص تاتيانا . هل ستحمل من العجوز ام لا ؟ اذهب اليهم وعالج الامر . هيا . — قال المسؤول وهو يضع السماعة — جهابذة !

ضحك ايغور وهو يتصور درس الادب هذا .

— يريدون ان يعرفوا . . .

— هل انت متزوج ؟ — سأل الرجل بلهجة صارمة .

اخرج ايغور من جيب قميصه العلوى صورة قدمها الى المسؤول . فأخذها هذا وتطلع اليها وسأل دون ان يخفى دهشته :

— هذه زوجتك ؟

فى الصورة امرأة شابة تلوح عليها امارات الحسن والطيبة والصفاء .

— زوجتى فى المستقبل — قال ايغور ممتعضا من دهشة الرجل — انها تنتظرنى ، ولكنى لم ارها ولا مرة واحدة .

— كيف ذلك ؟

— تعارفنا بالمراسلة . — مد ايغور يده واخذ الصورة — معذرة — وراح يتطلع باعجاب فى المحيا الروسى البسيط المليح . — اسمها لوبا ، لوبا بايكالوفا .



ما اعمق الوداعة والتصديق فى عينيها ! شىء مدهش ، أليس كذلك ؟ انها شبيهة بأمينة صندوق .

— وماذا كتبت لك ؟

— كتبت انها تتفهم مصيبتى بالكامل . . . ولكنها لا تفهم ، كما تقول ، كيف انزلقت الى السجن . رسائل رقيقة تبعث الاطمئنان فى النفس . . . زوجها سكير فتركته ، ومع ذلك لا تحمل غيظا على الآخرين .

— وهل تفهم انت ما تفعله ؟ — سأله الرجل بصوت خافت جاد .

— نعم — اجاب ايغور بصوت خافت ايضا ودس الصورة فى جيبه .

— عليك ، اولا ، ان ترتدى ملابس لائقة ، فكيف تحضر امامها بهذه الهيئة المزرية ؟ — انزلقت نظرة المسؤول المتذمرة على ايغور — ما هذه الثياب ! . . . لماذا ترتديها ؟

كان ايغور يرتدى جزمة وقميصا مائل الياقة وصديريا وطاقية غامضة الهوية ، فلا هى طاقية سائق ريفى ولا براد مرافق عامة ، ولكن فى لباسه اشارة طفيفة الى مشاركته فى جوقة الهواة .

القى ايغور نظرة عابرة على نفسه وارتسمت على شفتيه ابتسامة مبتورة .

— هذا ما يقتضيه الدور الذى مثلته قبل حين ، ولم اجد فرصة فيما بعد لتغيير ملابسى .

— يا لكم من ممثلين . . . — قال المسؤول ضاحكا . فهو رجل طيب ، تعلو وجهه دوما الدهشة من اناس لا حدود لحيلهم وابتكاراتهم .

ها هى الحرية اخيرا !

اصطفق الباب وراء ايغور فوجد نفسه فى شارع البلدة الصغيرة . تنفس الصعداء فامتلأ صدره بنسيم الربيع . ضيق جفنيه والتفت ذات اليمين وذات الشمال . سار بضع خطوات ثم مال مستندا الى احد الاسيجة . مرت به عجوز فى يدها حقيبة ، فتوقفت وسألته :

— ماذا بك ؟ هل تشعر بسوء ؟

فقال ايغور :

— انا بخير يا اماه . من حسن الحظ انى دخلت فى الربيع . الدخول يحلو فى الربيع دائما .

— الى اين ؟ — سألت العجوز دون ان تفهم شيئا .

— الى السجن .

فهمت العجوز اخيرا مع من تتحدث . فتراجعت بحذر وغذت السير مبتعدة بخطوات قصيرة متلاحقة . القت نظرة على السياج الذى سارت قربه ، ثم التفتت الى ايغور من جديد .

وكان هو قد رفع يده ملوحا لسيارة «فولغا» قادمة . توقفت السيارة وراح ايغور يقنع سائقها الذى رفض نقله فى بادئ الامر . اخرج ايغور من جيبه حزمة اوراق نقدية ليراها السائق . . . وهمّ بركوب السيارة الى جنبه .

فى هذه اللحظة اقتربت منهما العجوز بعد ان شعرت بعطف على ايغور ، حتى انها لم تتوان فى عبور الشارع . انحنت نحوه وبادرته :

— معذرة . قلت : فى الربيع . فلماذا فى الربيع بالذات ؟

— تقصدين دخول السجن ؟ اذا دخله المرء فى الربيع يخرج منه فى الربيع . الحرية والربيع ! فما الذى يحتاجه الانسان اكثر من ذلك ؟ — ابتسم ايغور للعجوز واضاف منشدا : — السماء صافية فى آيار ، السماء زرقاء فى الربيع !

— هكذا اذن ! . . — قالت العجوز بدهشة ثم عدلت قامتها وتطلعت الى ايغور كما يتطلع سكان المدن الى حصان يسير فى الشارع جنب السيارات . كان وجه العجوز الصغير موردا مغضنا تطل منه عينان صافيتان . وقد منحت ايغور دون علم منها لحظات ثمينة بعثت السرور فى نفسه .

وتحركت السيارة .

فشيعتها العجوز بنظراتها لبعض الوقت وتمتمت :

— عجيب . . . يتكلم شعرا ، وكأنه افاناسى فيت .

اما ايغور فقد غرق فى لجة السرعة .

اجتازت السيارة البلدة فتلقفتها الرحاب .

وسأل ايغور من السائق :

— هل عندك موسيقى ؟

مد السائق الشاب يده الى ما وراء مقعده واخرج مسجلة ترانزستور وقال :

— شغلها . اضغط على الزر الذى فى الطرف .

انسابت موسيقى رقيقة . فألقى ايغور برأسه على اعلى ظهر المقعد واغلق عينيه . كان ينتظر هذه اللحظة منذ امد بعيد ، حتى طال انتظاره . وسأله السائق :

— هل انت مسرور ؟



— مسرور ؟ — انتبه ايغور على نفسه — مسرور . . . — تلفظ هذه الكلمة وكأنه يتذوق طعمها بطرف لسانه . — اسمع يا صغيرى ، لو كانت لى ثلاث حيوات لقضيت احداها فى السجن واعطيتك الثانية وعشت الثالثة بنفسى كما اريد . ولكن طالما امتلك حياة واحدة لا غير فأنا الآن مسرور بالطبع . وانت ؟ هل تجيد التمتع بالافراح ؟ — فاضت مشاعر ايغور ، وعندما تفيض بوسعه احيانا ان يحلق الى الاعالى ، حيث تعشش الكلمات الجميلة الجوفاء . — هل تتمتع بها ام لا ؟

هز السائق كتفيه دون ان يجيب .

— أسفى عليك ياولدى ، فأنت لا تعرف كيف تفرح .

— ما الذى يفرحنى ؟

اكتسى وجه ايغور فجأة بمسحة جادة . وغرق فى تأملاته . وتلك حالة يصادفها احيانا ، حيث يغرق فى التأملات فجأة دونما باعث او مبرر .

— ماذا ؟ — سأل ايغور وهو لا يزال فى لجة افكاره .

— اقول ما الذى يفرحنى ؟ — اجاب السائق . فهو يتميز بالواقعية المملة .

— لا اعرف ، يا اخى ، ما الذى يفرحك — قال ايغور وهو يعود على مضض من لجة افكاره البعيدة . — اذا كنت تعرف كيف تفرح فافرح ، والا فأبق على حالك . ولا داعى للاسئلة . هل تحب الاشعار مثلا ؟

هز الشاب كتفيه من جديد لا على التعيين .

— ومع ذلك تريد ان تفرح — قال ايغور بأسف .

— لا اريد .

— ينبغى للانسان ان يحب الاشعار — قال ايغور بلهجة حازمة وهو يضع حدا لهذا الحوار الباهت . — استمع الى هذه الابيات الرائعة . — وشرع يتلو قصيدة فوت بعض ابياتها بسبب النسيان .

على بساط الثلج الناصع
لاحت بوادر الكارثة ،
مرحبا ، يا حظى العاثر ،
ها انا قادم اليك !

ما اقساك ايتها المدينة ،
ما اقسى مخالبك !
لماذا تدوسين علينا كالجيف التنة ؟
تجمد الحقل مكتئبا . . .

نسيت كلمة .

يغص بلعومه بأعمدة التلغراف

نسيت هنا بيتا ، ولكن اسمع البقية :

ما اشد وقع الاغنية
على القوءاد الحزين ،
انشودة الوحوش للصيادين
. . . ينصبون الكمين للذئاب .

الذئب فى الكمين ،
واصبع الصياد
على الزناد
وقفزة مباغتة . . .
تناثرت اشلاء
وصرّت الانياب .

تحية اليك ، يا وحشى الحبيب ،
لم يهرق دمك سدى .
وانا مثلك طريد
يطوقنى اعداء من حديد .

وانا مثلك متأهب للوثوب
رغم سماعى نفير الموت .



لن اسقط قبل ان اذوق
طعم دم الاعداء .

سأسقط على الثلج الهش ،
على كفنى البارد الناصع .
ولكن انشودة الثأر
ستصدح لى على الشاطىء الآخر .

صعقت قوة الكلمات ايغور نفسه ، فظل جالسا بعض الوقت باسنان مصطكة وعينين تحدقان فى الامام . وانطوت نظرته المركزة المتجهة بعيدا على تصميم حازم وكأنه قد تحدى احدا ما على المكشوف فى زمن ما ولم يشعر بأدنى خوف لا آنذاك ولا الآن . وسأل من السائق :

— هل اعجبك هذا الشعر ؟

— شعر جيد .

— جيد ، ككأس من الخمر . بينما تقول انك لا تحب الاشعار . انت لا تزال شابا ، وينبغى ان تهتم بكل شىء . تمهل ، فلنتوقف . . . هؤلاء صويحباتى .

لم يفهم السائق شيئا عن صويحبات ايغور ولكنه اوقف السيارة مع ذلك .

نزل ايغور من السيارة . وكانت غابة البتولا تطوق الطريق من كلا الجانبين . كانّ ذلك عالما ابيض نقيا على ترية لا تزال قائمة . وكانت اضواء ساطعة مدهشة تنبعث منه . . . مال ايغور الى جذع بتولا فاستند اليه وراح يتطلع الى ما حواليه .

— ما اروع هذه الاعجوبة ! — قال بابتهاج هادئ . ثم التفت الى شجرة البتولا ومسد جذعها براحة يده . — مرحبا ! ما اروعك ! يا عروس ! هل تنتظرين خطيبك ؟ سيأتى قريبا ، قريبا ، ولن يطول انتظارك . — عاد ايغور الى السيارة على عجل . وغدا كل شىء واضحا . فمن الضرورى العثور على مخرج ما فى الحال وبأسرع ما يمكن .

— هيا ، يا ولد ، اسرع بأقصى ما تستطيع . والا فان قلبى سينفطر . يجب ان نفعل شيئا . اليس عندك خمر ؟

— من اين ؟

— اذن ، فاسرع بنا . كم ثمن صندوقك الموسيقي هذا ؟
— مائتان .
— اشتريه منك بثلاثمائة . فقد اعجبنى .

وصلت السيارة الى طرف المدينة فطلب ايغور من السائق ان يتوقف بعيدا عن المنزل الذى يتواجد فيه اصحابه . دفع الاجرة بسخاء واخذ المسجلة وسار بدروب ملتوية عبر باحات المنازل حتى دخل «بيت الاختفاء» .

وكانت «العصابة» ملتئمة .

جلست امرأة شابة مليحة وبيدها قيثارة . وقبع شاب ضخم بوجه غليظ يشبه بوز البلدوغ وهو يحدق فى جهاز التلفون . وهناك اربع فتيات يسيقان عارية . . . وراح فتى فارع القامة يجوب الغرفة جيئة وذهابا ويسلط نظراته على التلفون بين حين وآخر . . . واستقر على المقعد رجل يحتسى الشمبانيا بشفتين غليظتين تلوح بينهما اسنان قاتمة . . . وكان هناك خمسة او ستة شبان جلسوا فى انحاء متفرقة وبعضهم يدخن .

الغرفة ملوثة مقرفة ، جدرانها الزرقاء مخدشة ، تذكر المرء عبثا بلون سماء الربيع فتجعل المزاج يتعكر تماما فى هذا العالم الصغير المتقوقع العفن . هذه المآوى تنعت ، عادة ، بالجحور مع الاعتذار لوحوش الغاب .

الجميع فى ذهول غريب ، وهم يتطلعون الى التلفون بين حين وآخر . التوتر يسود كل شىء ، ما عدا المرأة الشابة الناتئة الوجنتين والتى تلامس اصابعها اوتار القيثارة برقة وتنشد بصوت خافت جميل ، صوت ابح بعض الشىء ولكنه مؤثر للغاية .

العناقيد الحمراء .
ريّانة ريّانة ،
وانا تعبانة تعبانة ،
هجرنى وراح
لفلانة وفلتانة .

ترددت على الباب الطرقات المعهودة بدلا من كلمة السر . فانتفض الجميع وكأنهم سمعوا صرخة مباغتة .



— صه ! — قال ابو الشفايف والقى نظرة مرحة على الجميع ، ثم اضاف :
— اعصابكم ضعيفة — واومأ الى احدهم بان يفتح الباب .
توجه الشاب الفارع القامة الى الباب .
— السلسلة — قال ابو الشفايف ودس يده فى جيبه متأهبا وراح ينتظر .
فتح الشاب الباب قليلا دون ان يرفع سلسلة الامان . . . ثم رفع السلسلة على عجل وتطلع الى الجميع . . .
اصطفق الباب .
ومن ورائه دوى فجأة لحن المارش . رفس ايغور الباب بقدمه فانفتح ودخل بمصاحبة المارش . اومأوا اليه بان يلزم الصمت ونهضوا من اماكنهم .
فأغلق ايغور المسجلة وتلفت مندهشا .
اقتربوا منه وصافحوه . . . دون ضجيج .
— مرحبا ، يا ابا المصائب (تلك هى كنية ايغور) .
— مرحبا .
— اطلقوا سراحك ؟
راح ايغور يصافحهم دون ان يفهم ما الذى حدث هنا . كان هناك كثير من معارفه ، والبعض اكثر من معارف . فهناك لوسين (الناتئة الوجنتين) ، ثم ابو الشفايف . وكان ايغور مسرورا لرؤيتهما . ولكن ماذا حدث ؟
— ماذا بكم ؟
— رجالنا «يقصفون» الحانوت — اوضح احدهم وهو يشد على يد ايغور — ونحن ننتظر تلفونا منهم . . .
ابتهجت المرأة ذات الوجنتين الناتئتين . اشد الابتهاج لرؤية ايغور . عانقته بشدة وانهالت عليه بالقبل . وانبعث من عينيها البليلتين قليلا بريق فرحة صادقة .
— يا عزيزى ابا المصائب ! . . رأيتك فى المنام الليلة البارحة . . .
— حقا ؟ — قال ايغور سعيدا — وماذا كنت افعل فى المنام ؟
— عانقتنى بشدة حتى الألم .
— الا تخلطين بينى وبين غيرى ؟
— عيب عليك ، يا ابا المصائب !
وبادره ابو الشفايف قائلا :
— استدر نحوى ، يابنى ، لأرى كيف انت الآن !
اقترب ايغور من ابى الشفايف فتعانقا ببرود ، حتى ان هذا لم ينهض ،

واكتفى بالتطلع الى ايغور بمرح .

— تذكرت احدى امسيات الربيع . . . — قال ابو الشفايف فخيم الهدوء — كان الهواء رطبا بعض الشيء ، والمحطة غاصة بالناس . والعين تزوغ من كثرة الحقائب . الجميع منفعلون ، وكلهم يريدون السفر . وبين هذا الجمع من الناس المنفعلين العصبيين جلس احدهم . . . جلس على حقيبته الخشبية غارقا فى افكاره المريرة . اقترب منه شاب رشيق وسأله : «لماذا انت حزين ايها الرجل الطيب ؟» — «اصابتنى مصيبة! بقيت وحيدا على وجه البسيطة ، ولا ادرى الى اين اذهب» . وعند ذلك اخذ الشاب . . .

رن جرس التلفون . وانتفض الجميع من جديد وكأن تيارا كهربائيا قد مسّهم .

— نعم — اجاب الشاب الشبيه بكلب البلدوغ متظاهرا باللامبالاة ، واخذ يستمع طويلا ويهز رأسه ، ثم قال فى السماعة — نحن هنا جميعا . لن ابتعد عن التلفون . الجميع هنا . وصل ابو المصائب . . . نعم ، وصل الآن . نحن ننتظركم . — وضع بوز البلدوغ السماعة والتفت الى الاخرين — لقد بدأوا .

وتحرك الجميع بتوتر وانفعال . فأمر ابو الشفايف قائلا :

— الشمبانزى !

وراحت قناني الشمبانيا تدور على الحاضرين .

وسأل ايغور من ابى الشفايف :

— اى حانوت هذا ؟

— يقدر بثمانية آلاف . اشرب نخبك !

وشربوا .

— يا لوسين . . . اتحفينا بشيء . . . يخفف التوتر — طلب ابو الشفايف من الفتاة المليحة . كان نحيفا ، هادئا ، ووقحا للغاية ، عيناه تنفثان وقاحة .

— سأغنى عن الحب — قالت لوسين ونفضت شعرها المصبوغ ، ووضعت راحتها بحدة على الاوتار ، فساد الهدوء .

ترالالا ترالالا
يا بو العيون السود
افرح وامرح
والدنيا تضحك لك .
فى ظلام الليل



يوزعون السعادة
مجانا فى المروج .
لكن قلبى ولهان بك
يا بو عيون السود
ترالالا ترالالا

رن جرس التلفون من جديد . وخيم فى الحال صمت مطبق كصمت القبور .

— نعم — قال بوز البلدوغ فى السماعة باذلا اقصى الجهد ليظل صوته هادئا — كلا ، اضربى الرقم بشكل صحيح . حسنا ، تكرمين . لا بأس ، تكرمين — وضع بوز البلدوغ السماعة — تطلب مؤسسة الغسيل ، بنت الكلب !

وتحرك الجميع . وامر ابو الشفايف من جديد :

— الشمبانزى !

ثم سأل :

— يا ابا المصائب ، هل تحمل الينا تحيات من احد ؟

— فيما بعد — اجابه ايغور — اريد فى البداية ان اشبع نظرى منكم . وهنا شبان لا اعرفهم . فلنتعارف .

صافحه الشبان للمرة الثانية بمزيد من الاحترام . وتطلع ايغور فى عيونهم باهتمام وبابتسامة مبتورة واخذ يهز رأسه ويقول : «هكذا اذن» .

واعلنت لوسين :

— اريد ان ارقص !

وحطمت الكأس على ارضية الغرفة .

فقال ابو الشفايف :

— اهدئى ، يا لوسين ، لا تهيجى .

— اذهب الى الشيطان ! — قالت لوسين المنتشية بعض الشيء — يا ابا المصائب ، لنرقص رقصتنا المحببة !

وحطم ايغور كأسه ايضا بقوة على الارضية . وبرقت عيناه هو الآخر .

— ابتعدوا ، يا شباب ، افسحوا المجال .

— اهدأ يا ابا المصائب ! — رفع ابو الشفايف صوته . — الوقت غير مناسب !

— سنسمع جرس التلفون ! فليرقصا . — ضجوا من جميع الجهات مخاطبين ابا الشفايف .

— لماذا تمنعهما ؟ فليرقصا !

— البلدوغ جالس قرب التلفون .

اخرج ابو الشفايف من جيبه منديلا ابيض ولوح به موافقا ، وان بصورة متأخرة ، ولكن بمهابة وكأنه الزعيم بوغاتشيف .

وصدحت على قيثارتين انغام اغنية «يابنية ، ياحلوة» .

وحومت لوسين فى رقصة مدهشة . . . انها تجيد الرقص بخفة ودقة وذوق رفيع ، ليس كما تفعل الاخريات . انها تكاد تدق بكعبيها مسامير تابوت لحياتها المشوهة ، ومع ذلك فهى كالطير الذى يرفرف بجناحيه فى محاولة للتحليق . سكبت روحها فى هذه الرقصة ، حتى غدت فجأة جميلة مليحة عزيزة الى القلب .

عندما تقترب لوسين من ايغور يبدأ هو ايضا بالرقص محركا ساقيه فقط . وقد شبك يديه وراء ظهره ولم يقفز مثل التيس او يبذل جهدا خارقا للعادة ، الا ان رقصته جميلة ايضا .

رقصا برشاقة وجمال . ولاح فى ذلك شىء من الماضى لم يطوه النسيان .

وقال ايغور بمنتهى الجد :

— هذه لحظات انتظرتها روحى المعذبة .

يبدو انه تخيل الحرية المنشودة على هذه الصورة حين كان ينتظرها .

وقالت له لوسين :

— تمهل يا عزيزى ايغور . ساريح روحك بأفضل من الآن . ساريحها على احسن ما يكون وسارتاح انا ايضا .

— حبذا يا لوسين ، روحى تبكى وتنتحب .

— ساريحها . وسألصقها بفؤادى ، وسأقول لها : «هل تعبت كثيرا ، يا حمامتى اللطيفة الطيبة» ؟

— احذر ، والا نقرتك تلك الحمامة — تدخل ابو الشفايف فى هذا الحوار المفتعل .

— كلا ، فهى ليست شريرة — قال ايغور بجد دون ان يتطلع الى ابى الشفايف . وخيم ظل القساوة على وجهه الطيب . ولكنهما لم يكفا عن الرقص . فقد ظلا يرقصان ويثيران فى الآخرين رغبة لامتناهية فى التطلع اليهما . راح الشبان يتطلعون اليهما بنهم وقلق وكأن غطاء التابوت هنا يطبق على جزء بشع من حياتهم ،



هم ايضا ، وكانما بوسعهم ان يخرجوا الى ضوء النهار فيما بعد ويتمتعوا بالربيع .

وقالت لوسين برقة :

— لقد تعبت فى القفص .

— انها تبكى — قال ايغور — ولا بد من عيد يفرحها .

فقال ابو الشفايف :

— انها بحاجة الى ضربة عصا على اليافوخ . وعند ذلك ستهدأ وتستريح .

— اى اناس هؤلاء ، يا ايغور ! ما اقسى هؤلاء الاشرار ! — هتفت لوسين .

— لا تهتمى يا لوسين ، فنحن حرب على الاشرار . ولكن روحى تبكى وتنتحب . . .

— سنهدئها ونريحها يا عزيزى ايغور . فأنا ساحرة وسأستخدم كل فنون السحر . . .

— مرق الحمام لذيذ الطعم — قاطع ابو الشفايف بخبث . وكان نحيفا كالسكين ومرعبا فى فتوته اللامجدية . فقد انطوى على نفسه وتركز كيانه كله فى عينيه المتقدتين شررا وحقدا .

— كلا ، انها تبكى ! — قال ايغور فى هياج — انها تبكى ! مختنقة هنا ! — وامسك ياقة قميصه وسحبها بحدة . . . ووقف قبالة ابى الشفايف .

فصمتت القيثارتان . وتوقفت الساحرة لوسين عن الرقص .

كان ابو الشفايف قد دس يده فى جيبه متأهبا . وسأل بتلذذ وهدوء :

— هل عادت حليمة الى عادتها القديمة ، يا ابا المصائب ؟

— اقبل لك ، وربما للمرة الاخيرة ، لا تمس جرحى . . . — تكلم ايغور بهدوء ايضا وبصوت متعب وهو يشد ازرار قميصه — فى لحظة ما لن يكفيك الوقت لتمد يدك الى جيبك . احذرك .

— لقد سمعت .

— آه ! شىء مقرف . . . قالت لوسين بأسى . — موتى ودماء من جديد . . . صب لى قدحا من الشمبانيا يا صديقى .

رن جرس التلفون الذى غاب عن بال الجميع .

هرع البلدوغ الى الجهاز والتقط السماعة على عجل . . . قربها من اذنه فلسعته . والقى بها على مستندها .

كان ابو الشفايف اول من قفز من مقعده . فهو شخص سريع الحركة . ومع ذلك كان هادئا الآن .

— احترقنا — قال بوز البلدوغ بايجاز مرعب .

وامر ابو الشفايف قائلا :

— اخرجوا واحدا واحدا الى جهات مختلفة . ستتجمد لمدة اسبوعين . اسرعوا !

بدأوا يختفون الواحد اثر الآخر . يبدو انهم يجيدون الاختفاء . ولم يتساءل احد منهم عن اى شيء .

— يجب ان لا يخرج اثنان معا ! — اضاف ابو الشفايف . — التجمع عند ايفان بعد عشرة ايام على الاقل .

جلس ايغور الى المائدة وصب الشمبانيا فى القدح واحتساه .

— وانت ، يا ابا المصائب ، ماذا تنتظر ؟ — سأل ابو الشفايف .

— انا ؟ — تباطأ ايغور متأملا . — يبدو انى سأعمل فى الفلاحة حقا .

وقفت لوسين وابو الشفايف قربه متحيرين .

— اية فلاحة ؟

— يجب ان نذهب ، لماذا جلست ؟! — هزته لوسين .

فعاد الى رشده ونهض .

— أذهب ؟ أذهب من جديد ؟.. فمتى اذن سآتى يا ناس ؟ اين صندوقى العجيب ؟ ها هو . هل من اللزوم ان أذهب ؟ الا يمكن ان . . .

— اطلاقا ! بعد عشر دقائق سيداهمون المكان . لا شك انهم كشفونا .

اتجهت لوسين نحو الباب .

هم ايغور ان يلحق بها ، الا ان ابا الشفايف اوقفه برفق بلمسة على الكتف . وقال له برقة :

— لا داعى لذلك . فقد نهلك . سنلتقى كلنا قريبا . . .

— وهل ستذهب انت معها ؟ — سأل ايغور بصراحة .

— كلا — اجاب ابو الشفايف بتصميم صادق على ما يبدو ، وصاح بحدة على لوسين التى تأخرت لحظة فى الباب : — اذهبى !

القت لوسين نظرة حاقدة على ابى الشفايف وخرجت .

وقال ابو الشفايف وهو يصب الشمبانيا فى قدحين :

— خذ فترة من الراحة ، يا صديقى ، فى مكان ما ، عند كولكا كورول ، مثلا ، او فانكا ساميكين ، فعنده مأوى مناسب . واعذرنى على . . . ما حدث اليوم . ولكنك . . . انت ايضا ، يا ابا المصائب ، تدوس على دواملى دون



ان تلاحظ ذلك . فلنشرب نخب اللقاء . والى اللقاء مؤقتا . لا تحزن . هل عندك نقود ؟

— نعم ، فقد اعطانى اصحابنا هناك . . .

— يوسعنى ان اعطيك .

غيّر ايغور رأيه وقال :

— اعطنى .

اخرج ابو الشفايف من جيبه رزمة نقود وسلمها الى ايغور .

— اين ستنزل ؟

— لا ادرى . سأجد شخصا ما . كيف وقعتم هكذا ؟ . .

فى تلك الاثناء هرع الى الغرفة احد الشبان ، وقد امتقع لونه تماما من شدة الخوف . وقال :

— طوقوا الحى .

— وانت ، ماذا تفعل هنا ؟

— لا ادرى الى اين اذهب . . . جئت لاخبركم .

فقال ابو الشفايف ضاحكا :

— يبحث عن حتفه بنفسه . لماذا عدت الى هنا ؟ آه ، يا عزيزى ، يا خروفى . . . اتبعانى يا اخوىّ !

خرجوا من باب خلفى وهموا بالتوجه نحو الشارع بمحاذاة الجدار . الا انهم سمعوا من هناك ، من الجهة الاخرى ، وقع اقدام الخفراء المتلاحقة . تحولوا نحو الجهة الثانية فسمعوا وقع اقدام من هناك ايضا . . .

— هكذا اذن — قال ابو الشفايف دون ان يفقد مرحه الغريب . — فاحت رائحة الخطر ، ألا تشمها ، يا ايغور ؟

— هيا ، الى هنا ! — دفع ايغور رفيقيه الى فجوة فى الجدار .

وتقاربت الخطى من كلا الجانبين . . .

وفى احد الاماكن الى اليمين انزلق على الجدار ضوء مصباح يدوى شديد اللمعان .

اخرج ابو الشفايف مسدسه من جيبه . . .

— لا تفعل يا احمق ! — قال ايغور بحدة وغضب . — هل جننت ؟ ربما لن يعترف اولئك . . . بينما تريد ان تطلق النار هنا .

— اعرفهم جيدا ! — قال ابو الشفايف بعصبية .

وهنا بالذات يبدو ان هدوءه قد خارقه . فقال ايغور بكلمات متلاحقة وعيناه تبحثان هنا وهناك عن جهة ملائمة للهروب :

— سأركض الآن بأقصى السرعة وسيتبعوننى فأبتعد بهم . عندى شهادة اطلاق سراح مؤرخة بتاريخ اليوم . . . فأنا محمى . واذا لحقوا بى سأقول بأنى خفت منهم . واقول بأنى كنت ابحث عن امرأة وعندما سمعت الصفير ارتعبت بسبب حماقتى . . . هيا ، مع السلامة !

وركض ايغور مبتعدا عن رفيقيه . ركض بتهور ، فتعالى الصفير ووقع الاقدام فى الحال من جميع الجهات .

ركض ايغور بحماس الشباب . . . ركض وهو يتمتم ويترنم مع نفسه . ورأى ثغرة فاتجه نحوها وتسلق انابيب مطروحة وانشد منتصرا :

— آه ، لم ار شيئا ، آه ، لا اعرف احدا ! . .

اجتاز الانابيب . . . وعلى مقربة كبيرة منه كانت الاقدام تلاحقه فى الظلمة . دس نفسه داخل انبوب واسع وجلس متجمدا .

طقطقت الخطوات الحديدية فوق رأسه . . .

جلس القرفصاء وابتسم راضيا وهمس :

— لم ار شيئا ، لا اعرف احدا .

ثم اقدم على لعبة خطرة . فعندما توقف ضجيج الحديد وتهيأت له فرصة الانتظار هنا والخلاص ، نهض من مكانه فجأة وركض من جديد .

وبدأت المطاردة مرة اخرى .

— آه ، لم ار شيئا ، آه ، لا اعرف احدا ! — اخذ ايغور يتشجع بهذه الكلمات فاجتاز بقفزة واحدة سياجا واطئا وركض بين الشجيرات ، يبدو انه دخل بستانا ما . ونبح كلب على مقربة منه . فركض ايغور الى جهة جانبية . . . وصادف سياجا آخر قفز من فوقه ، فوجد نفسه فى مقبرة .

— ياسلام ! — قال ايغور وسار بهدوء . فى حين ابتعد صخب المطاردة نحو جهة اخرى .

— عجيب ، تمكنت من الهرب ! — قال ايغور مستغربا . — يا للشيطان ، حبذا لو كان الامر كذلك على الدوام . عندما ينوى المرء الفرار حقا يقع فى ايديهم كطفل صغير .

واكتنفت ايغور من جديد فرحة الحرية ، فرحة الحياة .

وانشد مرة اخرى :



— آه ، لم ار شيئا ، لا اعرف احدا — وشغل صندوقه الرائع بصوت واطئ . وراح يقرأ بعض الكتابات على شواهد القبور . الشارع يطوق المقبرة ، وعندما تلتف السيارة عند ركنها تضيئ مصابيحها الصلبان فترة طويلة نسبيا . وتسبح على الارض وعلى تلات القبور واسيجتها ظلال طويلة مشوهة من تلك الصلبان . . . لوحة مفزعة على العموم ، تزيد من سخفها موسيقى ايغور . فأسكت ايغور موسيقاه . ونسى له ان يقرأ على احد الشواهد :

«نم بهدوء حتى الصباح المنير . التاجر الثرى نيفيروف» . وانت ، كيف وصلت الى هنا ؟! — تساءل ايغور مندهشا . — ١٨٩٠ . . . آ ، انت نائم هنا من زمان ، ايها التاجر الثرى . — وطفق ايغور يترنم بصوت خافت : «قوافل التجار قادمة من القواسم» ولكنه عدل عن ذلك ، وقرأ الكتابة على شاهد آخر : «الى زوجى العزيز الذى لا انساه . من ارملته المفجوعة» . — وجلس على المصطبة لحظة . . . ثم نهض . — حسنا ، يا شباب ، واصلوا رقادكم ، وسأذهب انا . فلا حيلة لى فى الامر . . . سأذهب كرجل مهذب نزيه . فلا بد من ان اجد اخيرا مأوى استقر فيه . لا بد أليس كذلك ؟ — ومع ذلك ترنم مرة اخرى : — لم ار شيئا ، لا اعرف احدا .

واخذ يبحث عن مأوى يلتجئ اليه .

من وراء باب منزل صغير فى طرف المدينة اجابوه بخشونة :

— اذهب من هنا ! والا فسأخرج اليك واريك المصائب . . . كل المصائب .

صمت ايغور قليلا ثم قال :

— اخرج اذن .

— سأخرج ولا اخاف !

— لن تخرج . . . اخبرنى على الاقل : نينا موجودة ام لا ؟ — سأل ايغور بلهجة مصالحة من الرجل القابع وراء الباب . — ولكن قل الحقيقة ، والا فسوف اعرف . . . وسأعاقبك بصرامة اذا كذبت .

لاذ الرجل بالصمت هو ايضا . ثم غير لهجته وقال بحدة ولكن بغيظ اقل :

— اقول لك لا توجد اية نينا . أليس ذلك مفهوما ؟ ما اكثر الحثالات التى تتجول هنا فى الليل وتزعج الناس .

— هل احرق بيتكم اذن ؟ — فكر ايغور بصوت مسموع وطقطق على علبة الثقاب فى جيبه . — ما رأيك ؟

صمت الرجل وراء الباب طويلا ثم قال فى الاخير ، ولكن بلهجة خالية تماما من التهديد :

— حاول ، حاول ان تحرقه ! نينا غير موجودة . اقول لك بجد . فقد سافرت .

— الى اين ؟

— الى مكان لا اعرفه ، فى الشمال .

— لماذا اخذت تنبح اذن ؟ هل كان يصعب عليك ان توضح المسألة من البداية ؟

— ذلك لانى غاضب عليكم ! سافرت بسبب حثالات من امثالك . . . ومع حثالات من هذا النوع .

— يعنى انها فى ايد امينة ، ولن يصيبها ضرر . مع السلامة !

وفى قمرة التلفون غضب ايغور من جديد .

— لِمَ لا ؟! لماذا ؟ — جأر فى السماعة .

وامتنحوا له السبب طويلا .

— كلكم اوغاد . — قال ايغور بصوت مرتجف . — ساغرز رؤوسكم جميعا فى التراب واقدامكم الى الاعلى ، يا ابناء الكلاب . . . يا حقراء ! — القى ايغور بالسماعة ، وفكر متأملا ، ثم تلفظ برقة بلهاء : لوبا . خلاص . سأذهب الى لوبا . — وصفق باب القمرة بحدة وغذ الخطى نحو موقف الباصات وهو يتمتم فى الطريق :

— يا عزيزتى لوبا . ياحمامتى . . . ياكعكتى الحلوة . سآكل حتى الشبع قريبك على الاقل . . . وسينمو شعر رأسى الحليق على الاقل . يا عزيزتى اللذيذة !

— انتابت ايغور بالتدريج حالة من الهياج العصبى فصرخ فى سكون الليل : — سأصل اليك وآكلك ! صرخ دون ان يلتفت ليرى ما اذا كان قد ازعج احدا بصرخته . وتعالى صدى خطاه فى الشارع الخالى ، فقد تجمد الاسفلت بعض الشىء خلال الليل وارتفع صوت الخطوات عليه . — سأحتضنك واعصرك ! . . . سأمزقك والتهمك ! واشرب العرق . خلاص !



ها هو باص الناحية يقل ايغور الى قرية ياسنويه .

وعلى التلة وقفت لوبا فى انتظاره . عرفها ايغور حالما وقع بصره عليها . . . فقد خفق قلبه قائلا له انها هى !

وتوجه نحوها .

وقال مخاطبا نفسه بصوت خافت ملؤه الدهشة :

— عجيب . انها حسناء ، جميلة كالصباح المشرق ! كالرغيف الطازج . . . سآكلها والله !

— مرحبا — بادرها بتأدب وبحياء مفتعل . ومد يده لمصافحتها : — ايغور

— وشد بحرارة على اليد الفلاحية القوية ، وهزها بحرارة ايضا .

— لوبا — قالت المرأة ببساطة واخذت تنظر اليه متأملة صامتة . فشعر ايغور ببعض القلق من نظرتها تلك .

— هذا انا — قال واحس بحماقة موقفه .

— وهذه انا — قالت وهى تسلط عليه نفس تلك النظرة الهادئة المتأملة .

— لست جميلا — قال ايغور بغير مناسبة .

فضحكت لوبا وقالت :

— فلنذهب الى المقهى اولا لنجلس هناك قليلا . حدثنى عن نفسك . . .

— انا لا اشرب الخمر — عاجلها ايغور .

— حقا ؟ — قالت بدهشة صادقة . وانطلقت هذه الكلمة بمنتهى البساطة وعلى نحو طبيعى حتى ان ايغور تحير لتلك البساطة واسقط فى يده فقال :

— كلا . انا بالطبع استطيع ان اشرب مع الشلة ، ولكنى لا افرط فى الشراب . . . فأنا معتدل تماما .

— سنشرب شايا لا غير . وسوف تحدثنى عن نفسك قليلا — ظلت لوبا تتطلع الى صديقها بالمراسلة . . .

كانت تتطلع اليه على نحو غريب وكأنها تسخر من نفسها وتقول فى دخيلتها مندهشة لتصرفها : «ما اشد حماقتى ! لماذا فعلت ذلك ؟» . بيد انها ، على ما يبدو ، امرأة صلبة العود . فهى تستطيع ان تسخر من نفسها وتفعل فى الوقت ذاته ما تشاء . — فلنذهب . . . حدثنى . فأمى وابى متشددان ، وقد حذرانى وقالا : لا تأتى الى البيت مع سجينك — سارت لوبا امامه بعض الشىء وكانت تلتفت الى الوراء اثناء الكلام وكان مظهرها هادئا مرحا — وقلت لهما : انه سجين بالصدفة . اعتقلوه لسوء الحظ . اليس كذلك ؟

اكتأب ايغور عندما علم ان والديها على قيد الحياة وانهما متشددان . ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث .

— طبعا ، طبعا — قال بلهجة مهذبة — انها الملابسات وسوء الحظ . . .

— وانا اقول ذلك ايضا .

— والداك من المتزمتين ؟

— كلا ، لماذا تعتقد ذلك ؟

— انهما متشددان . . . وربما سيطردانني . فأنا ادخن مثلا .

— يا الهى ، والدى نفسه يدخن . ولكن اخى لا يدخن . . .

— ولديك اخ ايضا ؟

— نعم . عائلتنا كبيرة . لاخى ولد كبير يدرس فى المعهد ، وبنت فى المدرسة ، فى الصف المنتهى .

— كلاهما يتعلمان . . . هذا شىء جيد ، جيد جدا — امتدحهما ايغور ، ولكن مزاجه تعكر بسبب هؤلاء الاقرباء .

دخلا المقهى وجلسا عند طاولة صغيرة فى ركنها . المقهى مكتظة بالناس ، بعضهم يدخل اليها وبعضهم يخرج منها بلا انقطاع . . . الجميع ينظرون الى ايغور بحب استطلاع . فشعر ايغور بالارتباك والضيق لذلك ايضا .

— اليس من الافضل ان نأخذ قنينة ونذهب الى مكان ما ؟ — اقترح ايغور . فقالت لوبا :

— ما الداعى لذلك ؟ فالجو هنا مريح للغاية . . . نورا ، يا نورا ! — نادت لوبا النادلة — احضرى لنا يا عزيزتى . . . ماذا نطلب ؟ — التفتت لوبا الى ايغور .

— نبيذا ، فأنا لا اطيق الفودكا . — قال ايغور متساهلا وانكمشت اساريره .

— نبيذا يا نورا ! — تركت لوبا انطباعا غامضا فيه ، وكأنها تلعب لعبة ذكية ، تلعب بهدوء ومرح وهى تنظر بحب استطلاع الى ايغور وكأنما تريد ان تعرف منه : هل حزر سر هذه اللعبة ام لا ؟ وبدأت كلامها من جديد :

— هيا يا ايغور . . . حدثنى عن نفسك .

— كما فى التحقيق — قال ايغور واطلق ضحكة مبتورة لم تجد صدى لها عند لوبا . فاكتسى وجهه بمسحة من الجد .

— ما الذى احدثك عنه ؟ انا محاسب ، كنت اعمل فى قسم التموين العمالى . الرؤساء سرقوا بالطبع . . . وداهمتنا الهيئة التفتيشية . فجعلوا منى كبش



الفداء . . . وتعين علىّ بالطبع ان ادفع الثمن . اسمعى ، فلنذهب من هنا . انهم ينظرون الىّ كالـ . . .

— فلينظروا ! ما الذى يعنيك منهم ؟ فأنت لم تهرب .

— هذه هى الشهادة ! — هتف ايغور وهمّ باخراج شهادة اطلاق السراح من جيبه .

— انا اصدقك ، اصدقك . يا الهى ! فانا لا اعنى شيئا . طيب ، كم قضيت فى السجن ؟

— خمس سنوات .

— وماذا بعد ؟

— هذا كل شىء . . . فماذا تريدين اكثر ؟

— هل يعقل انك ، بهاتين اليدين الضخمتين ، كنت محاسبا ؟ شىء لا يصدق .

— ماذا ؟ يدىّ ؟ ، آ . . . لقد دربتهما هناك ، فيما بعد . . . — سحب ايغور يديه من الطاولة .

— هاتان اليدان تصلحان لتحطيم الاقفال ، وليس لخرزات الحساب — قالت لوبا ضاحكة .

واطلق ايغور كذلك ضحكة مفتعلة وقد شعر بشىء من القلق .

— حسنا ، وماذا تنوى ان تفعل هنا ؟ هل ستعمل محاسبا ايضا ؟

— كلا — قال ايغور على عجل — لن اكون محاسبا مرة اخرى .

— فماذا ستفعل اذن ؟

— سأفكر فى الموضوع . . . لا تسرعي بحصان اسثلتك يا لوبا . — تطلع ايغور هو الآخر الى عينى هذه المرأة مباشرة — لماذا انت مستعجلة بخصوص العمل ؟ فالعمل ليس عصفورا ليفر منا . انتظرى قليلا .

وسألته لوبا بنفس الصراحة :

— لماذا بدأت تكذب علىّ ؟ لقد كتبت الى مديركم وبعث لى بجواب . . .

— آ ، هكذا اذن . . . — قال ايغور مصعوقا وخرجت كلماته ممطقطة ، وتنفس الصعداء حتى انه شعر بالمرح — اذن اسرعى بخيول العربة وافصحى عما فى نفسك . املأى الكأس .

شغل ايغور المسجلة . فقالت لوبا بأسف :

— ما اروع الرسائل التى بعثتها . انها ليست مجرد رسائل . . . فهى ملاحم كاملة .

— صحيح ؟ — قال ايغور منتعشا — هل تعجبك ؟ ربما لدى موهبة تتبدد . . . — وانشد ايغور : — ضاعت الفتوة والمواهب بين جدران السجون . املئى الكأس ، يا لوبا . المصابيح مضاءة طوال الليل فى السجن المركزى . . . املئى الكأس ، املئيه !

— لم انت مستعجل الى هذا الحد ؟ تمهل . . . فلنتحدث .

— ملعون هذا المدير ! — هتف ايغور — لم يخبرنى بشىء . فجئت كرجل مهذب هادئ ، اليس كذلك ؟ محاسب . . . قهقه ايغور — محاسب . . . عداد السلع الاستهلاكية .

— ماذا كنت تريد يا ايغور عندما كذبت علىّ ؟ . . — سألته لوبا .

— هل كنت تريد ان تسرقنى ؟

— سامحك الله يا امرأة ! هل يعقل ان اتحمل مشقة السفر لاسرق زوجين من اللباد . انك تهينيننى يا لوبا .

— فماذا ؟

— ماذا ؟

— ماذا تريد اذن ؟

— لا ادرى . ربما اريد الراحة لروحى . . . كلا . فالراحة بالنسبة لى هى . . . كلا ، لا ادرى ، لا ادرى ، يا لوبا .

— خسارة يا ايغور أسفى عليك . . .

ارتعش ايغور وتطلع اليها مرتعبا . فقد قالت تلك الكلمات بنفس اللهجة التى كانت تقولها بها لوسين البعيدة .

— لماذا ؟

— لانك فى الواقع متعب كحصان يتسلق مرتفعا . . . صحيح ان جنبيك لم ينخسفا بعد ، والزبد لا يتصبب من فمك . ولكنك ستضنى نفسك وتسقط . هل يعقل انك بلا اقارب ؟

— نعم . فأنا يتيم تعيس . وقد كتبت لك عن ذلك . الا تعرفين كنيتى ؟ ابو المصائب . هذا هو اسمى المستعار . ومع ذلك ، ارجوك ، لا تدوسى على دواملى . لا داعى لذلك . فلست مشولا بعد . ومهما يكن من امر فأنا لا



ازال قادرا على قصف حانوت صغير . وصادف ان امتلكت ثروة خيالية يا لوبا . فمع الاسف انى لم اقابلك فى تلك الفترة . . . والا لرأيت بنفسك انى احتقر كليا . . . هذه النقود العفنة .

— تحتقرها ، وتقوم بمثل هذه الافعال القظيعة من اجلها .

— ليس من اجلها .

— من اجل ماذا اذن ؟

— لا استطيع القيام بأية مهنة فى هذا العالم ما عدا السرقة . — تلفظ ايغور هذه الكلمات بافتخار . وكان يشعر بارتياح كبير مع لوبا . فأراد ان يثير دهشتها بشىء ما فهتفت :

— اوى ! اشرب البقية ولنذهب .

— الى اين ؟ — سأل ايغور مستغربا .

— الى بيتنا . لقد جئت الىّ ، ام عندك صديقة اخرى بالمراسلة فى مكان ما ؟ — ضحكت لوبا ، وهى ايضا تشعر بارتياح كبير مع ايغور .

— تمهلى . . . — قال ايغور بعد ان اختلط عليه الامر — انت تعرفين الآن انى لست محاسبا . . .

هزت لوبا رأسها ساخرة :

— أهذه مهنة لتختارها ؟ . . على الاقل لو اخترت مهنة مربى الخنازير لكان ذلك افضل . فبوسعك ان تدعى عند ذلك بان مرضا اصابها فهلكت ، ولهذا سجنوك . انت فى الواقع لا تشبه اللصوص انك رجل طبيعى كالآخرين . . . بل وتشبه فلاحينا . طيب . هل نذهب يا مربى الخنازير ؟

— احيطك علما — قال ايغور بلهجة لا تخلو من التباهى — انى ، بالمناسبة ، سائق من الدرجة الثانية .

— وعندك اجازة ؟ — سألت لوبا متشككة .

— اجازتى ظلت هناك ، فى ماغادان .

— الا ترى بأنك اغلى من الذهب ؟ ومع ذلك تقول انك ابو المصائب ! يؤسفنى انى لا املك سوطا لاجلد تلك المصائب وصاحبها . فلنذهب .

— تفكيرك فلاحى صرف : فالسوط عندك فى المقام الاول . انا من اصحاب السوابق ، يا حمقاء . انا من اللصوص الاشرار . أنا . . .

— هس ! هل سكرت ؟

— طيب . ثم ماذا ؟ — عاد ايغور الى رشده — انى لا افهم ، اوضحى

لى ارجوك . حسنا ، سنذهب . . . وماذا بعد ؟

— فلنذهب الينا . وسترتاح ولو اسبوعا . . . ليس عندى ما يستحق السرقة . حاول ان ترتاح قليلا . . . وبعد ذلك يمكنك ان تعود لقصف الحواتيت . فلنذهب . والا فسيقول الناس : حالما استقبلته ودعته . فلماذا دعته اذن ؟ الا تعرف باننا هنا نغتاب بعضنا البعض فى الحال ؟ ثم انى . . . لا اخاف منك ، ولا ادرى لماذا ؟

— حسنا . وابوك لن يرحب بى . . . وقد يحطم جمجمتى بالفأس . فمن يدرى اية افكار تدور فى رأسه ؟

— كلا . لا تهتم . اعتمد علىّ .

منزل اسرة بايكالوف كبير متين تعيش فى نصفه لوبا مع والديها العجوزين ، وفى النصف الآخر يعيش اخوها وعائلته .

المنزل قائم على ضفة النهر العالية ، ووراء النهر تنبسط رحاب شاسعة . شؤون المنزل مرتبة جيدا ، وفيه باحة واسعة ذات مبان اضافية ، وحمام على منحدر الضفة العالى .

كان العجوزان بايكالوف منهمكين فى طبخ الشوشبرك عندما لمحت الام ميخايلوفنا من خلال النافذة ابنتها لوبا قادمة مع ايغور . فقالت مرتبكة :

— انظر ، جاءت معه ! . . لوبا مع السجين ! . .

مال العجوز هو الآخر الى النافذة . وقال حانقا :

— بدأت المشاكل ! يا للعنة ! ماذا فعلت ابنتنا ؟!

شاهدا لوبا تحدث ايغور وتشير بيدها الى النهر ثم تلتفت الى الوراء وتشير الى القرية . وشاهدا ايغور يلتفت هو الآخر طائعا . ولكنه كان يتطلع على الاكثر الى منزل لوبا والى نوافذه .

ووراء تلك النوافذ عم الهرج والمرج . فالعجوزان لم يصدقا بالكامل ان احدا ما سيصل اليهم من السجن . وحتى برقية ايغور التى عرضتها لوبا عليهما لم تحملهما على التصديق بذلك . وها هى الامور تنقلب حقيقة خالصة .

— الله يلعنها ، هذه البنت الوقحة ! — دمدمت العجوز مغلوبة على امرها — ماذا كنت استطيع ان افعل لهذه الوقحة ؟ لا شىء . . .

واوصاها زوجها قائلا :



— اياك ان تظهرى خوفا او ما يشبه ذلك . . . فقطاع الطرق هؤلاء . . . لا يخيفوننا !

الا ان العجوز بادرته قائلة :

— ولكن الا يليق ان نستضيفه ؟ ماذا تعتقد ؟ رأسى يدور ولا ادرى . . .

— نعم . سنفعل كل شىء كما يليق بالبشر . وفيما بعد سنعرف النتيجة : ربما سندفع حياتنا ثمنا لتصرف ابنتنا . يا ويلك يا لوبا . . .

ودخلت لوبا مع ايغور .

— مرحبا ! — قال ايغور ببشاشة :

واكتفى العجوزان بان هزا رأسيهما ردا على تحيته . . . وراحا يحدقان فيه مباشرة وعلى المكشوف .

— ها هو محاسبنا — قالت لوبا وكأن شيئا لم يكن . — وهو ليس من قطاع الطرق ابدا . فقد دخل السجن بسبب . . . بسبب . . .

— سوء التفاهم — اضاف ايغور

— وما هى الآن مدة الحكم بسبب سوء التفاهم ؟ — سأل الشيخ .

— خمس سنوات — اجاب ايغور بهدوء .

— قليل . فى الماضى كانت المدة اطول .

وسألت العجوز صراحة :

— بأى سوء تفاهم وقعت ؟

— الرؤساء سرقوا ، ودفع هو حساباتهم — اوضحت لوبا . — هل انتهى التحقيق ؟ اما الآن فينبغى اطعام الرجل ، فهو قادم من بعيد . اجلس يا ايغور .

كشف ايغور عن رأسه الحليق وجلس بتواضع على حافة الكرسى . وقالت لوبا بلهجة آمرة :

— انتظر حتى اسخن الحمام . وسوف نتناول الغداء — انصرفت لوبا . ويبدو انها انصرفت متعمدة كى تمكنهم من التفاهم على نحو ما لوحدهم . ولعلها تعلق املا على والديها الطيبين .

— هل يمكننى ان ادخن ؟ — سأل ايغور . لم يكن يشعر بالحرج ، فحتى لو طردوه لن يأسف على ذلك كثيرا . ولكن لو سارت الامور بسلام لكان ذلك افضل والطف . بديهى انه يريد البقاء هنا ، ولو لامد قصير ، ليس من اجل المتعة وحدها . فالضرورة تتطلب ذلك . ينبغى ان ينتظر فترة من الزمن

فى مكان ما ويفكر فيما يفعل .

— دخن — سمح له الشيخ — ماذا تدخن ؟

— «باميرو» .

— سجائر لف ؟

— كلا .

— اعطنى لاجربها — جلس الشيخ قرب ايغور وهو يتطلع اليه طوال الوقت . دخنا .

— تقول ان سوء تفاهم حدث ، اى سوء تفاهم ؟ اردت ان تضرب احدا فسددت بالصميم ، اليس كذلك ؟ — سأل الشيخ بلهجة اراد لها ان تكون غير متعمدة .

تطلع ايغور الى الشيخ الذى تلوح عليه امارات الفطنة وقال بغموض :

— نعم ... ذبحنا سبعة فى مكان ما ولم ننتبه الى الثامن فهرب . ووقعنا ... خرت العجوز على المصطبة بعد ان سقطت الحطبة من يدها .

واتضح ان الشيخ اكثر ذكاءا فلم يرتعب .

— سبعة ؟

— سبعة . ذبحناهم ووضعنا رؤوسهم فى كيس وذهبنا .

— اعوذ بالله ... — رسمت العجوز شارة الصليب وهتفت مستعينة بزوجها : فيديا ...

— اسكتى ! — امرها الشيخ . — احمق يثرثر بسخافات ، وحمقاء تصدقه ... وانت ، يا بغل ، امسك لسانك ، امامك اناس كهول .

— فلماذا ، يا كهول ، سجلتمونى رأسا فى قائمة قطاع الطرق ؟ قالوا لكم انى محاسب ، ولكنكم اخذتم تضحكون علىّ . صحيح انى خرجت من السجن ... ثم ماذا ؟ فهل السجن لا يدخله الا القتلة ؟

— من الذى سجلك بين القتلة ؟! ولكنك ، انت ايضا ، تتظاهر بانك محاسب . فلا تكذب علينا . محاسب ! رأيت فى حياتى محاسبين كثيرين ! المحاسبون اهدأ الناس ، وكأنهم معتوهون قليلا . اصوات المحاسبين ضعيفة عادة ، وهم يرتدون نظارات ... ثم انى لاحظت ان انوفهم فطس . فأى محاسب انت ؟ على جبهتك العريضة يمكن ذبح الختانيص فى شهرها السادس . يمكنك ان تقول للوبا انك محاسب فتصدقك . اما انا فقد عرفت حالما دخلت البيت بانهم سجنوك اما بسبب العراك او بسبب سرقة حطب . اليس كذلك ؟



فقال ايغور :

— يمكنك ، يا ابتى ، ان تعمل مفوضا فى الشرطة . فلديك مواهب تفوق التقدير . الم تخدم فى صباك فى قوات الجيش الابيض بقيادة كولتشاك ؟ الم تخدم فى مكافحة الجاسوسية عنده ؟

رمشت عينا الشيخ بسرعة ، وتحير لسبب لا يعرفه . فهذه الكلمات مشؤومة للغاية . وقال :

— ماذا بك ؟ ما هذا الهذر ؟

— لماذا ارتبكت فى الحال ؟ لقد سألتك مجرد سؤال ... حسنا ، سأسألك سؤالا آخر : ألم تسرق السنابل من حقول التعاونية فى السنوات العصيبة ؟

لاذ الشيخ بالصمت مندهشا لهذا التحول غير المتوقع . فقد افلت نغمة التساهل التى كاد يمسك بها فى البداية ولم يجد ما يرد به على هذا الاهوج . لان ايغور رتب «تحقيقه» على نحو يثير البلبلة والحيرة . فقد شهد فى حياته اشخاصا متفننين فى هذا المجال . وواصل ايغور كلامه :

— يصعب عليك ان تجيب . حسنا ... سنطرح السؤال بصيغة اخرى ، بصيغة مترلية ان صح القول : هل تتكلم فى الاجتماعات كثيرا ؟

— لماذا تسخر منى ؟ — سأل الشيخ اخيرا وكاد يغضب اشد الغضب ، وهمّ بتسليط وابل من الكلمات الحانقة على ايغور ، الا ان هذا نهض على عجل وارتدى طاقيته واخذ يجوب الغرفة .

— انظروا كيف يعيشون برخاء هنا ! — بدأ ايغور كلامه وهو يسلط نظرات حادة على الشيخ الذى ظل جالسا — البلد يعمل فى توليد الكهرباء وصنع القاطرات وصهر ملايين الاطنان من الحديد ... الناس يبذلون كل قواهم ، حتى يكادون يسقطون من التعب والاجهاد ، ويزيلون كل مخلفات الاهمال والقصور العقلى ، ويمكن القول انهم يختنقون من الاجهاد — اعجب ايغور بكلمة «الاجهاد» فراح يعلكها بارتياح — وجوههم تكتسى بالتجاعيد فى الشمال الاقصى ، وتتساقط اسنانهم فيضطرون الى تبديلها باسنان ذهبية ... بينما نجد هنا اشخاصا اختاروا لانفسهم ، من بين كل انجازات البشرية ، فرنا دافئا ينامون على دكته ! هكذا اذن ! عظيم ، رائع ... الافضل ان نمد ارجلنا لنتدفأ ، بدلا من الاجهاد فى العمل جنبا الى جنب مع الآخرين ...

— انه يعمل منذ العاشرة من عمره ! — تدخلت العجوز — وهو يحرث الارض منذ الطفولة ....

— التعليقات فيما بعد — اعترض عليها ايغور بلهجة حادة بعض الشيء — اننا جميعا طيبون اخيار عندما لا تمس القضية مصالحنا ، او جيوبنا على الاصح . . .

— كنت طوال الوقت من الطليعيين ! — كاد الشيخ يصرخ به — وعندى ثمانى عشرة شهادة تكريم !

توقف ايغور مندهشا .

— لماذا انت ساكت عنها اذن ؟ — سأله ايغور بعد ان غيّر لهجته .

— ساكت . . . كلماتك المتلاحقة منعتنى من النطق .

— اين شهادات التكريم ؟

— هناك — قالت العجوز التى تحيرت هى الاخرى الى اقصى حد .

— اين «هناك» ؟

— فى هذا الدولاب . . . كلها مرتبة .

— مكانها على الجدار وليس «فى هذا الدولاب» ! تعودتم على اخفاء كل شيء فى الدواليب . . .

وفى تلك الاثناء دخلت لوبا وسألت مرحة :

— كيف الحال ؟ بلا مشاكل ؟

تورّدت وجنتاها فى الحمام وانسابت خصلات شعرها من تحت المنديل . . . فغدت جميلة للغاية ! ولم يستطع ايغور ان يحول بصره عنها .

وقال ابوها باعجاب صادق :

— اين عثرت على هذا الشاطر ؟ انظرى كيف يتكلم وكأنه مفوض اصيل ! — وضحك الشيخ ، بينما اكتفت العجوز بان هزت رأسها . . . ولوت شفتيها بغيظ .

على هذا النحو تم التعارف بين ايغور ووالدى لوبا . اما التعارف بينه وبين شقيق لوبا ، بترو ، وعائلته فقد جرى فيما بعد .

دخل بترو على شاحنته القلابة باحة المنزل . . . وظلت الشاحنة تزأر امدا طويلا ، وزجاج النوافذ يهتز لزئيرها . واخيرا شغلت الشاحنة المكان المخصص لها وتوقف محركها ، فهبط بترو من قمرتها . وهو رجل ضخم متجهم مشغول البال دوما . وجاءته زوجته زويا ، مضطربة الحركات سريعة الكلمات وهى امرأة مجسمة القوام تعمل بائعة فى حانوت القرية التعاونى . واخبرته فى الحال قائلة :

— وصل الى لوبا . . . «صديقها» بالمراسلة .



— صحيح ؟ — استفسر بترو على مضض واضاف : — ثم ماذا ؟ — ورفس بقدمه احد اطارات الشاحنة للتأكد من صلاحه .

— يدعى بانه محاسب وان تفتيشا جرى ، وهكذا . . . ولكن بوزه يدل على انه نصاب .

— صحيح ؟ — قال بترو من جديد بتكاسل وعلى مضض — ثم ماذا ؟

— لا شيء . ينبغى ان نكون حذرين . . . اذهب لتتفرج على هذا المحاسب ! اذهب وانظر اليه ! هذا المحاسب سيطعن ايا كان دون تردد .

— صحيح ؟ — ظل بترو يرفس الاطارات — ثم ماذا ؟

— اذهب وانظر اليه ! اذهب لترى مع من تعرفت اختك . اذهب والق نظرة عليه ، فنحن سنعيش معه تحت سقف واحد .

— ثم ماذا ؟

— لا شيء ! — رفعت زويا صوتها — ابنتنا تلميذة كبيرة ، هل انت فاهم ؟ لماذا تكرر كالببغاء : «ثم ماذا ؟ ، ثم ماذا ؟» . فنحن كثيرا ما نبقى لوحدنا فى الليل . هل انت فاهم ؟ لماذا تكرر : «ثم ماذا ؟» وكأن الشيطان قد مسك . انظروا الى هذا الابله : لن يحرك ساكنا حتى لو ذبحوا زوجته وابنته . . .

توجه بترو نحو المنزل وهو يمسح يديه بخرقة . ولعل زوجته محقة عندما تقول بانه «لا يحرك ساكنا» . فهو رجل هادئ للغاية بطيء الحركة الى اقصى حد . ولكن قوة حديدية مدهشة تلوح فى كل حركة من حركاته . فى التفاتة رأسه البطيئة ، فى نظرة عينيه الصغيرتين اللتين تنبعث منهما بسالة باردة جامدة .

— اذهب الآن مع بترو . — قالت لوبا لايغور وهى تعد مستلزمات الاستحمام — اى لباس اعطيك لترتديه بعد الحمام ؟ كيف تتوجه للخطوبة دون ان تأخذ معك ولو زوجا من الالبسة الداخلية ؟ آ ؟ فمن يفعل مثلك ؟

— وصل من السجن وليس من المصيف ! — هتف الشيخ . — ويصادف ان يعود الناس عراة حتى من المصايف . فان ايليا لوباتين ، مثلا ، سافر الى المصح لمعالجة التهاب الاعصاب . باع بقرة بكاملها ، وعاد بجيب خال .

— هاك ملابس زوجى السابق . . . عثرت عليها واظنها تلائمك — اخرجت لوبا من الصندوق قميصا ابيض طويلا وسروالا داخليا .

— ما هذا ؟ — سأل ايغور متحيرا .

— ملابس زوجى السابق . . . ماذا بك ؟ — قالت لوبا والملابس فى

يدها . فأجاب ايغور مغتاظا :

— ماذا تظنينني ؟ هل انا متسول اخرق لارتدي ملابس الغير ؟ عندي نقود ويمكن ان نشتري ملابس من الحانوت .

— اي حانوت ؟ الحانوت مغلق الآن . ثم ما هو العيب في ذلك ؟ فهي مغسولة . . .

— ماذا بك ؟ خذها ، فهي نظيفة . — تدخل الشيخ . ففكر ايغور قليلا ، ثم اخذها ودمدم :

— اتردى من درك لآخر . حتى لاستغرب لنفسي . . . بعد الاستحمام سأنشدكم اغنية «في الجنينة ، في البستان» .

— اذهب ، اذهب — رافقته لوبا حتى الباب — اخي بترو خشن المعاملة فلا تستغرب . ذلك هو طبعه مع الجميع .

كان بترو منهمكا في خلع ملابسه بمدخل الحمام عندما مد ايغور رأسه وسأل :

— هل يسمح بالدخول لحليقي الرؤوس ؟ — حاول ان يتكلم باكبر قدر من المرح حتى فتح فمه في ابتسامة عريضة .

— لحليقي الرؤوس وغيرهم . — قال بترو بنفس الصوت المعتدل الذي كرر به «ثم ماذا» .

— فلنتعارف . ايغور . — مد ايغور يده وكان لا يزال يتطلع الى عيني بترو العابستين . فقد رغب في التعايش مع هؤلاء الناس من كل بد ، رغب في ذلك الآن دون ان يعرف السبب . ولعل لوبا هي السبب . — اقول : اسمي ايغور .

— ثم ماذا ؟ — اجابه بترو — ليس في ذلك ما يستدعي تبادل القبلات . اسمك ايغور ، يعني ايغور ، وكفى .

ظلت يد ايغور ممدودة ، ولكنه كف عن الابتسام :

— آ . . .

— ماذا ؟ — سأل بترو مستفهما ، فقال ايغور بزعل :

— هذا ما استحقه ، انا الاحمق . فأنا امد يدي اليوم كالمتسول ! — القى ايغور الالبسة على المصطبة — ولم يبق عليّ الا ان اهز ذيلي . فهل قطعت عليك الطريق ، ولا تريد ان تتفضل عليّ بالمصافحة ؟ — انفعل ايغور حقا ، ودس يده في جيبه باحثا عن سجارة . ثم دخن ، وجلس على المصطبة .



وارتعشت يداه ارتعاشات خفيفة .

— ماذا بك ؟ لماذا جلست متماهلا ؟ — سأله بترو . فقال ايغور :

— اذهب واغتسل . وسأغتسل فيما بعد . فأنا قادم من السجن . . . سنغتسل بعدكم ، فلا تقلقوا .

— عجيب ! — قال بترو ودخل الحمام دون ان يخلع سرواله التحتاني . ودوت الطسوت والمغرفة في الداخل . . .

اضطجع ايغور على المصطبة العريضة وراح يدخن . وقال :

— الى اي حد وصلتُ ؟! يا للشيطان . فأنا كأحد الايتام في مأدبة اللئام .

فتح باب الحمام واطل بترو من وراء سحابة البخار :

— ماذا بك ؟

— ماذا ؟

— لماذا انت راقد ؟

— انا لقيط .

— عجيب ! — قال بترو ، واحتواه الحمام من جديد . صب الماء طويلا في الطسوت وازاح الدكات هناك . . . ولم يتحمل ففتح الباب مرة اخرى وسأل : هل ستدخل ام لا ؟!

— معي شهادة اطلاق السراح ! — كاد ايغور يصرخ في وجهه . — وغدا سأذهب واستلم هوية شخصية مثل هويتك ! مثلها بالضبط ، ما عدا ملاحظة صغيرة لن يقرأها احد . هل انت فاهم ؟

— سأدسك الآن في الطست بالقوة — قال بترو بلهجة تعوزها البلاغة — ثم اجلسك على الدكة الساخنة ، بدون هوية . — اعجب بترو نفسه بهذه النكتة . واضاف : — مع شهادة اطلاق السراح — وندت عنه قهقهة مبتورة .

— طيب ، هذا كلام آخر ! — جلس ايغور على المصطبة وشرع يخلع ملابسه . — بدأت وكأنك تطالبني بان اعرض عليك شهادة جامعية !

وفي تلك الاثناء اختلت ام لوبا وزويا ، زوجة بترو ، بلوبا وراحتا تستجوبانها وتقاطع احداهما كلام الاخرى .

— اي شيطان جعلك تأخذينه الى المقهى ؟ — سألت زويا المجسمة القوام بصوت مولول ، فهي امرأة هستيرية تماما . — القرية كلها تعرف الآن بان

سجينا جاء الى لوبا ! قالوا لى ذلك فى العمل حالا . . .

— آه يا لوبا ! . . — خاطبتها امها بعد ان تمكنت من التدخل فى الحوار بشق الانفس — قولى له ، اذا كنت قد جئت الى هنا لاجل الاكل والشرب ثم تنوى الهيام على وجهك فى الارض فاذهب حالا ولا تجلب العار علىّ امام الناس . وقولى له ، اذا كانت عندك . . .

— هل يعقل بانه ليس لديه عائلة ؟ كيف ؟ هل هو فى السابعة عشرة من العمر ؟ وهل لديك دماغ يفكر ؟

— قولى له ، اذا كانت عندك نوايا سيئة فاجمع حاجياتك و . . .

— اية حاجيات ؟ ليس لديه الا ان يشد حزامه . — تدخل الشيخ الذى ظل صامتا حتى الآن — ماذا تريدان من البنت ؟ وما فائدة السؤال منها الآن ؟ ستبين الايام اى انسان هو . فكيف تستطيع هى حاليا ان تتكفل به ؟

فقالت لوبا بايجاز :

— ارجوكم ، لوجه المسيح ، لا تخيفونى . فأنا خائفة اصلا . فهل تتصورون بان الامر هين علىّ ؟

— بالضبط . هذا ما اقوله لك انا ! — هتفت زويا .

— اسمعى ، يا بنت ، يا لوبا ، هل انت سامعة ؟ — هزتها امها من جديد — قولى له : يا رجل ، اذهب الآن لتنام ليلتك فى مكان ما .

— اين ينام ؟ — سألت لوبا مصعوقة .

— فى مجلس القرية . . .

— تفو ! — بصق الشيخ غاضبا — هل جننتما ؟! انظروا يا ناس . طلبوا من الرجل ان يأتى ولكنهم يرسلونه الآن لينام فى مجلس القرية . كيف يجوز ذلك ؟ هل نحن من الكفار ؟

— فليفتشه الشرطى غدا — قالت الام دون ان تتراجع .

— ما الداعى للتفتيش ؟ مظهره يدل على مخبره .

— لا ادرى . . . — طفقت لوبا تتكلم — يخيل الىّ انه انسان طيب . ارى ذلك من عينيه . . . لاحظت من صورته ان عينيه . . . حزينتان . انا متألمه له ، والله متألمة . وربما انه . . .

وفى تلك اللحظة اندفع بترو من الحمام وهو يطلق زئيرا وحشيا ، وراح يتلوى مع ليفة التدليك على الارض الرطبة ويصيح :

— سلقنى ، سلقنى حيا !



وعلى اثره هرع ايغور وبيده مغرفة .

اسرع اهل البيت نحو بترو . وكفن اليه الشيخ شاهرا فأسه . وصرخت زوجته زويا مولولة :

— قتلوه ، قتلوه ، يا ناس ، ياعالم ، قتلوه ! . .

— لا تنعقى — رجاها بترو بصوت متألم وجلس ليمسد جنبه المحروق — لماذا تصرخين ؟

— ماذا بك يا بترو ؟ — سأل الشيخ لاهثا .

— طلبت من هذا الابله ان يصب مغرفة من الماء على حجارة التبخر ، فصب الماء الساخن علىّ .

وقال ايغور مرتبكا :

— انا نفسى دهشت ، وفكرت : كيف يتحمل ؟ فالماء ساخن جدا . وقد جربته باصبعى . كان يغلى ! وفكرت : كيف يتحمل ؟ لا بد وانه متعود ، هكذا ظننت ، ربما جلده سميك كجلد الثور . فأنا لم اتصور انه يريد الماء الساخن للحجارة . . .

— «جربته باصبعى» — قال بترو مقلدا لهجته — ماذا ؟ هل انت طفل صغير ؟

— ظننت انك تريد ان تزيل الصابون . . .

— لم يتشرب بدنى بعد ! — صاح بترو الذى كان يعرفه الجميع هادئا على الدوام . — لم اكن قد اغتسلت بالصابون بعد ، فكيف ازيله ؟!

وقال الشيخ بعد ان تفحص البقعة المحروقة :

— ينبغى مسحها بزيت . وليس فيها خطر . ينبغى مسحها بزيت لا اكثر . فمن عنده زيت ؟

— عندى شحم ضأن — قالت زويا واسرعت الى المنزل راكضة . فأمر الشيخ :

— طيب ! تفرقوا ، والا سيجتمع الناس حولنا .

— كيف فعلت ذلك يا ايغور ؟ — سألته لوبا . شد ايغور لباسه التحتانى وراح يبرر فعلته من جديد :

— هل تعرفين كيف حدث ذلك ؟ سخن الحمام بشدة حتى صار التنفس صعبا وقال لى — : «اعطنى مغرفة من الماء الساخن» . فظننت انه يريد تعديل الحرارة . . .

— «تعديل الحرارة» — قلد بترو لهجته مجددا — اريد ان اعدل جبهتك الآن بضربة من المغرفة ! ما أشد حماقتك . احرقت جنبي كله . فماذا لو كان الماء أكثر سخونة ؟

— جربته باصبعي . . .

— «باصبعي» ! كيف انجبوا هذا الاحمق ؟

— اضربني على جبهتي اذن — استعطفه ايغور — لو ضربتني سيهون الامر عليّ . ارجوك ، اضربني — قال ومد له المغرفة . فتدخلت لويا :

— بترو . . . حدث ذلك صدفة . فما فائدة الكلام الآن ؟

— اذهبوا جميعا ، ادخلوا المنزل ! — قال بترو حانقا — الا ترون ان الناس بدأوا يتجمعون ؟

حقا ، فقد وقف قرب سياج منزل بايكالوف ستة او سبعة اشخاص استحوذ عليهم الفضول . واقترب منهم رجل آخر وسأل :

— ماذا حدث لهم ؟

— ابنهم بترو . . . سكران . سقط على دكة الحمام — اوضحت له احدى العجائز . فقال الرجل :

— يا للعنة ! هل ظل حيا ؟

— نعم . . . الا تراه جالسا يستعيد وعيه ؟

— اتصور كيف كان يصرخ !

— صرخ بأعلى صوته حتى اهتز زجاج النوافذ .

— طبعا ، في مثل هذه الحالة . . .

— ماذا ؟ هل سقط على مؤخرته ؟

— كيف تقول على مؤخرته ؟ الا تراه جالسا ؟

— حقا ، انه جالس . . . ربما سقط على جنبه . ولكن من هذا الرجل الذي عندهم ؟

— هل يجوز السكر الى هذا الحد ! — قالت عجوز مندهشة .

ظلوا جالسين حول المائدة حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل . انتشى الكهول بعض الشيء فراحوا يتحدثون ويتجادلون عن شؤونهم الخاصة . وقد تجمع منهم حول المائدة عدد كبير يقرب من اثني عشر شخصا . اخذوا يتكلمون فيقاطع بعضهم بعضا ، او يضجون في الكلام ثلاثة ثلاثة او اربعة اربعة .



— تقصد من ؟ من ؟ تزوجت من رجل في قرية كرايوشكينو البعيدة .

— صحيح . تزوجت من . . . من هذا . . . ما اسمه ؟

— ميتكا خروموف .

— نعم ، تزوجت من ميتكا .

— اموال عائلة خروموف صودرت في حينه . . .

— اموال من ؟ غروموف ؟ انت متوهم !

— قلت عائلة خروموف وليس غروموف !

— خيل الى انك قلت غروموف . فقد كنا مع ميخائيل غروموف نذهب الى الغابة لجمع جوز الارز .

— وعندما صودرت اموال خروموف . . .

— بالفعل ، فقد كان يملك مجبنة .

— من كان يملك مجبنة ؟ خروموف ؟ كلا ، ماذا بك ؟ هل نسيت ؟ المجبنة كانت لعائلة فوينوف . اما خروموف فكان يجلب القطعان من منغوليا . وكان يمتلك محلجا للصوف ، اما المجبنة فكانت لعائلة فوينوف . وصودرت اموال هذه العائلة ايضا . واعتقلوا خروموف نفسه واخذوه من المرعى مباشرة . . . واذكر انهم بدأوا يهدمون عنبره بحثا عن جزمات اللباد . كانت عائلة خروموف تصنع هذه الجزمات . واجتمعت القرية كلها ، على ما اتذكر ، لتشاهد ذلك .

— وهل عثروا على شيء ؟

— تسعة ازواج .

— ولم يعتقلوا ميتكا ؟

— ميتكا انفصل عن عائلته آنذاك . فبعد ان تزوج من كلافكا عزله ابوه . ولم يمسوه بسوء . ومع ذلك عندما اعتقلوا والده ترك ميتكا قرية كرايوشكينو . فقد كان صعبا عليه ان يعيش فيها بعد كل ما حدث .

— تمهل ، فمن التي تزوجت وانتقلت الى كاراسوك ؟

— مانكا . وهي لا تزال على قيد الحياة . مانكا تعيش الآن عند ابنتها في المدينة . ولكن بصورة سيئة . رأيتها مرة في السوق فقالت انها متأسفة لانها باعت منزلها الذي في القرية . وقالت انها كانت تلزمهم عندما كان الاطفال ، احفادها ، لا يزالون صغارا ، وعندما كبروا صارت تثقل عليهم .

— هكذا على طول — قالت عدة عجائز دفعة واحدة — فهم بحاجة اليك عندما تعملين في رعاية الاطفال الصغار ، وحالما يكبرون لا يحتاجون اليك .

— و هذا يتوقف على الصهر ايضا . فاذا كان صهرك حثالة ، فالويل لك . . .

— كلهم الآن حثالات .

جلس ايغور ولوبا بمعزل عن الكهول ، واخذت لوبا تعرض اليوم العائلة الذى جمعت صوره بنفسها وحرصت على صيانته . وراحت تعرض صور اخوانها :

— وهذا ميخائيل . وهذه صورة بافل وفانيا . . . معا . فى البداية حاربا معا ، ثم جرح بافل ، ولكنه تعافى والتحق بالجبهة من جديد ، وعند ذلك قتل . اما فانيا فهو آخر من قتل ، فى برلين . بعث الينا الآمر اشعارا بالوفاة . . . انا متألمة على فانيا خصوصا ، فقد كان فتى مرحا جدا . وكان يأخذنى معه دوما عندما كنت صغيرة . انا اتذكره جيدا ، واراه فى المنام ضاحكا . وهو يضحك ، كما ترى ، حتى فى هذه الصورة . وهذه صورة بترو . . . عابس الوجه مع انه فى . . . كم كان عمره آنذاك ؟ ثمانية عشر ؟ نعم ، ثمانية عشر . وقع اسيرا ، وبعد ذلك حررتهم قواتنا . ضربوه فى الاسر بشدة . . . وما عدا ذلك فلم يصب حتى بخدش بسيط .

رفع ايغور رأسه وتطلع الى بترو الذى كان جالسا يدخن لوحده ، دون ان تظهر عليه اية امارة للشراب الذى تجرعه . فقد جلس كعادته هادئا غارقا فى افكاره .

— ولكننى اليوم شويته . . . وكأن الشيطان وجه يدى .

مالت لوبا على ايغور وسألته بصوت خافت ماكر :

— الم تفعل ذلك عمدا ؟ لا اصدق بانك . . .

— كيف تقولين ذلك ؟! — هتف ايغور صادقا — كنت بالفعل اظن بانه يريد ان اصب الماء الساخن عليه ، ظننت انه يعرض نفسه للنار ، كما يقال .

— انت من ابناء القرى ، كما تقول ، فكيف تفكر بهذا الشكل ؟

— لا ادرى . . . لكل قرية عاداتها .

— اما انا فتصورت ، والعياذ بالله ، ان بترو قال لك ما لا يرضيك فتظاهرت انت بالبلاهة ورشقته بالماء الساخن .

— كيف يجوز ذلك ؟ فهل انا . . . ؟

احس بترو بانهما يتطلعان اليه ويتكلمان عنه فالتفت اليهما . . . والتقت نظرته بنظرة ايغور . وضحك بترو بسخرية طيبة .

— ماذا يا ايغور ؟ كدت تشوينى ، اليس كذلك ؟

— اعذرنى يا بترو .



— لا تهتم ! الافضل ان تشغل موسيقاك مرة اخرى . فهى موسيقى عذبة .

شغل ايغور المسجلة . فدوى نفس المارش الذى دخل به ايغور بيت «العصابة» . كان مارشا نشيطا يشيع الفرحة فى النفوس . وبدا غريبا هنا ، فى المنزل الريفى فقد اجتاح بحركة متميزة غريبة تلك الاحاديث الوادعة التى كانوا يتجاذبون اطرافها . والحركة شىء تصعب مقاومته . فخفتت الاحاديث حول المائدة بالتدريج . . . وراح الجميع ينصتون الى موسيقى الحركة والمسير .

السكون مطبق فى تلك الليلة . والقمر ينير النوافذ .

اعدوا فراش ايغور فى غرفة العجوزين ، وراء ستارة زاهية يتسرب من خلالها ضوء القمر .

ورقدت لوبا فى غرفة الاستقبال التى ظل بابها مفتوحا . وكان السكون يخيم عليها ايضا .

فارق النوم جفون ايغور . واثار السكون اعصابه .

رفع رأسه قليلا واخذ يتسمع . . . كل شىء هادئ . ما عدا شخير الشيخ الخافت وتكتكة ساعة الحائط .

انزلق ايغور كالصل من تحت البطانية ، وتسلل خلسة الى غرفة الاستقبال وهو كشبح ابيض ناصع فى سرواله التحتانى وقميصه الطويل . لم ينبعث اى صوت او صرير . . . لا شىء غير عظم صغير طقطق فى رجل ايغور ، فى مشطها على اغلب الظن .

بلغ باب الغرفة وخطا خطوة او اثنتين فيها عندما انداح فى السكون صوت لوبا واضحا لا اثر فيه للنعاس .

— عد الى مكانك فى الحال !

توقف ايغور وظل صامتا برهة . . . ثم همس بزعل :

— ماذا حدث ؟

— لم يحدث شىء . اذهب الى سريرك .

— لا اريد ان انام .

— ارقد . . . وفكر فى المستقبل .

— اردت ان اتحدث معك ، واسألك عن بعض الامور . . . — قال ايغور وبدأ الغيظ ينتابه .

— غدا سنتحدث . فالليل غير مناسب للاسئلة .

— سؤال واحد لا غير — اشتاط ايغور غضبا .

— لوبا ، خذى شيئا ما . . . خذى المقلاة — رن صوت العجوز من الخلف بغتة . وهو الآخر صوت لا اثر فيه للنعاس . فقالت لوبا :

— المدفة تحت وسادتى .

وعاد ايغور الى سريره .

— تسلل . . . على اطراف الاصابع . القط اللعين . يظن انى لا اسمع . انا اسمع وارى كل شىء .

— رجل مهذب ! . . — همس ايغور غاضبا من وراء الستارة الزاهية — اردت ان ارتاح بالروح ! . . وبالجسد ! . . رجل مهذب ومعه شهادة اطلاق السراح !

رقد بهدوء . . .

ثم اخذ يتقلب على الفراش :

— وهذا القمر اللعين ! ابن الكلب ! . . اتخذوا جميعا موقعا دفاعيا دائريا . يا لهم من شطار ! فمن يحرسون ، يا ترى ؟

— لا تدمدم ، كفاية — قالت العجوز بصوت مسالم . وفجأة تلا ايغور بمنتهى الوضوح وبصوت مهتاج المقتطف التالى :

— تنورتها التحتانية مخططة بخطوط عريضة ، حمراء وزرقاء ، وكأنها قد خيطت من ستارة المسرح . كنت مستعدا لبذل الكثير لافوز بالمرتبة الاولى . ولكن المسرحية تأجلت . — فترة صمت تلتها من وراء الستارة فى السكون كلمات غامضة : — ليختينبيرغ ! حكم وامثال !

كف الشيخ عن الشخير وسأل مرتعبا :

— من ؟ ماذا حدث ؟

— هذا ال . . . يتذمر على السوبر — قالت العجوز باستياء ، — لم يفز بالمرتبة الاولى ، كما يقول .

— لست انا الذى يتذمر ، بل ليختينبيرغ — اوضح ايغور ، فدمدم الشيخ مستاءا :

— سأريك كيف تتذمر . ماذا بك ؟

— لست انا ! — هتف ايغور مستثارا — قال ذلك ليختينبيرغ ولم يكن يتذمر اطلاقا ، بل كان ينكت .



— وهل هو محاسب ايضا ؟ — سأل الشيخ بلهجة لا تخلو من السخرية .

فأجاب ايغور :

— انه فرنسى .

— ماذا ؟

— فرنسى !

— اسكتوا ! هل الوقت مناسب للكلام ؟ — قالت العجوز بغضب .

ساد الهدوء ، ما عدا تكتكة ساعة الحائط .

وعانق القمر النوافذ .

فى الصباح ، بعد تناول الفطور ، ظل ايغور ولوبا لوحدهما عند المائدة ، فقال لها :

— لوبا . . . انا ذاهب الى المدينة لاجل التأنق . فانا بحاجة الى ملابس .

تطلعت اليه لوبا بهدوء ممزوج بشىء من السخرية ، ولكن نظرتها تنم عن حزن لا يكاد يلمح . ظلت صامتة وكأنها تفهم اكثر مما قاله لها ايغور . وقالت بصوت خافت :

— طيب .

— لماذا تنظرين الىّ هكذا ؟ — تطلع اليها ايغور ليشبع نظره من محياها الصباحى المليح . واحس بقلق من احتمال فراقها . فاكتنفه الحزن هو ايضا ، ولكنه لا يجيد الانصياع اليه ، فانساق للانفعال .

— كيف ؟

— ألا تثقين بى ؟

لزمت لوبا الصمت من جديد لامد طويل .

— افعل ، يا ايغور ، ما يمليه عليك فؤادك . فلماذا تسألنى : اثق بك ام لا ؟ . . ان ثقتى بك او عدمها لا يغيران شيئا فيما تريد ان تفعل .

طأطأ ايغور رأسه الحليق . ثم قال بحزم :

— لا اريد ان اكذب يا لوبا . فانا اشمئز من الكذب طوال حياتى . . . انى اكذب ، طبعا ، ولكن حياتى تصبح اصعب . . . بسبب ذلك . انى اكذب واحتقر نفسى . وبودى ان امزق حياتى ، واهشمها قطعة قطعة ، على ان يكون ذلك بمرح ، والافضل بالخمر ايضا . ولذلك فلن اكذب عليك الآن : لا ادرى . ربما سأعود . وربما لن اعود .

— شكرا لك يا ايغور على قول الحقيقة .

— انت رائعة — افلت لسانه هاتين الكلمتين ، فارتبك ، بل وانفعل — ما اسوأ هذه العادة ! . . كم مرة قلت هذه الكلمة ! غطيتها بالاوساخ والاقذار . ولم تبق قيمة للكلمات ! فما اغرب البشر ! . . الافضل يا لوبا — وضع ايغور يده على يدها — ان ابقى لوحدى وأسأل نفسى . انا بحاجة الى ذلك يا لوبا .

— افعل الافضل . فانا لا اعترض . اذا ذهبت سأشعر بالأسف ، بالأسف الشديد ! وربما سأبكى . . . — لاحت الدموع فى عينى لوبا فى الحال — ولكننى لن الومك ابدا .

ضاقت انفاس ايغور ولم يعد يتحمل . فهو لا يطيق الدموع .

— هم . . . كفاية يا لوبا . لا اتحمل اكثر من ذلك . صعب علىّ . اعذرينى .

ها هو يجتاز الحقل الفتى الفسيح . . . التربة غير محروثة ، وقد انبجست منها اولى الاعشاب كالابر الخضراء . سار ايغور بسرعة وحزم وعناد . سار عبر هذا الحقل بحزم وعناد مثلما يسير فى حياته . كان يتعثر فينهض ويسير من جديد . كان يسير وكأن التوبة كلها متجسدة فى ذلك وحده ، فى السير الحثيث دون توقف ودون التفات ، وكأن بامكانه ان يهرب من نفسه عن هذا الطريق .

وفجأة ظهر وراءه اناس لا يعلم الا الله من اين جاءوا . ظهروا الواحد تلو الآخر وهم يسيرون وراءه ولا يكادون يلحقون به . انهم اصحابه وصويحباته بهيئاتهم المتهرئة المدعوكة ونظراتهم الصريحة الى حد الدناءة . كلهم صامتون . وايغور صامت ايضا . انه يسير والجمع من ورائه فى ازدياد . . . ساروا على هذه الشاكلة طويلا . ثم توقف ايغور بغتة ولوح بيده تلويحة شديدة للتخلص منهم دون ان يلتفت الى الوراء ، وقال بحدة وغضب :

— كفاية ! كفاية !

التفت ، فلم ير الا ابا الشفايف قادما نحوه . انه يسير باسما ويده فى جيبه . ضغط ايغور اسنانه حتى اصطكت ، ودس يديه فى جيبيه . . . وعند ذلك اختفى ابو الشفايف .

. . . وقف ايغور على الطريق فى انتظار الباص او اية سيارة اخرى متوجهة الى المدينة .

ولاحت سيارة شحن من بعيد .

لم تكن لوبا راغبة فى العمل فى ذلك اليوم ، فاشتغلت على مضض . . . .



كان فؤادها يتحرق ويتعذب . فاعترفت فجأة لرفيقتها فيركا بعد ان اتمتا حلب الابقار وسلمتا الحليب وخرجتا من حظيرة الماشية :

— انظرى ، يا فيركا ، كيف جفت عروقى غراما بهذا الرجل وكيف اتلهف للالتقاء به . — قالت لوبا ودهشت لما قالته — طوال النهار فؤادى يؤلمنى ويعذبنى .

— وهل سافر نهائيا ؟ ماذا قال لك ؟

— قال بانه لا يدرى .

— فليذهب الى الشيطان ! ابصقى عليه ! «لا يدرى» . لا بد وان عنده زوجة فى مكان ما . فماذا يقول بهذا الخصوص .

— لا ادرى . يقول ليس عنده احد .

— يكذب ! لا تكونى حمقاء يا لوبا . اقبلى كولكا من جديد وعيشى معه . كل الرجال سكيرون الآن فمن منهم لا يشرب ؟ خذى زوجى مثلا . . . جاء امس الاول ، لعنة الله عليه ! . . — وهمست فيركا (وهى امرأة قصيرة القامة نشيطة الحركات) وكأنها تفضح سرا للوبا : — حالما جاء ضربته بمرقاق العجين . وارتعبت انا نفسى . وعندما استيقظ فى الصباح قال ان رأسه يؤلمه وانه ارتطم بشىء ما . فقلت له : يجب ان تقلل من الشرب . — واطلقت فيركا قهقهة كالرذاذ .

— كيف تعلقت به ؟ — قالت لوبا مندهشة لتأملاتها .

— ماذا ؟ — سألت فيركا دون ان تفهم .

— اقول كيف تعلقت به ؟ فأنا لم اره الا يوما واحدا . هل من المعقول ان يصادف ذلك ؟

— لماذا سجنوه ؟

— بسبب السرقة . . . — والقت لوبا نظرة عاجزة على صاحبتها التى قالت :

— تستبدلين سكيرا بلص . شهاب الدين اسوأ من اخيه . فما اتعس مصيرك ! ابقى لوحدك يا لوبا . ربما ستجدين فيما بعد رجلا صالحا . ولو فرضنا انه سيعود الى السرقة ، فماذا سيحدث ؟

— ماذا سيحدث ؟ سيسجنونه .

— هل جننت ، يا ملعونة ؟

— لا ادرى ماذا حدث لى . فانا كالمخبولة . وانا مشمئزة من ذلك . . . فؤادى يتعذب وكأنى اعرفه من زمان بعيد . ولكننى لم اره غير يوم واحد .

صحيح انه بعث رسائل الىّ طوال عام كامل . . .

— انهم يكتبون الرسائل لقتل الفراغ .

— يا ليتك تعلمين اية رسائل هى !

— عن الحب ؟

— كلا . . . عن الحياة . يبدو ان هذا الشيطان الحليق قد صادف الكثير فى حياته . فهو يكتب بشكل يؤلم القلب . ولا ادرى هل انا احبه ام اعطف عليه . فؤادى يعذبنى وانا متحيرة .

اما ايغور فأخذ فى تلك الاثناء يفعل ما اراد فى المدينة الصغيرة .

واول ما قام به هو شراء البسة انيقة .

سار على الرصيف الخشبى فى احد شوارع المدينة الخشبية ، بعد ان ارتدى بدلة جديدة وربطة عنق وقبعة ، ودس يديه فى جيبيه .

عرج على دائرة البريد . وكتب على استمارة البرقية العنوان والمبلغ بالكلمات وتحية مقتضبة . سلم الاستمارة واتكأ قرب الشباك واخذ يعد النقود . وقرأت موظفة البريد :

— «تسلم النقود الى ابى الشفايف» .

وسألت :

— ابو الشفايف لقبه ؟

فكر ايغور لحظة ثم قال :

— بالفعل ، لقبه .

— يا له من لقب غريب ! . .

— هناك ألقاب أسوأ — قال ايغور — ففى مؤسستنا يوجد شخص بلقب البستونى .

رفعت الموظفة رأسها . وهى فتاة مليحة جدا بعينين واسعتين وانف قصير غير مدبب .

— ثم ماذا ؟

— لا شىء . لقبه البستونى . — التزم ايغور بلهجة جادة . فهو لا يزال يتذكر بانه يرتدى قبعة .

— اعتقد انه لقب عادى .

— عادى ، على العموم — وافقها ايغور ، ولكنه نسى فى الحال انه



يرتدى قبعة ، فابتسم ، واضطرب ، ومد عنقه فى الشباك وقال : — اخبرينى رجاء ! جئت من مناجم الذهب ، ولا اعرف احدا هنا . . .

— ثم ماذا ؟ — سألت الفتاة دون ان تفهم قصده .

— هل عندك صديق ؟ — سألها ايغور صراحة .

— وما شأنك بذلك ؟ — قالت الفتاة ذات الانف القصير ولم تدهش كثيرا ، بل كفت عن العمل وتطلعت الى ايغور .

— اقصد هل نستطيع معا ان نقوم بجولة فريدة فى هذه المدينة ؟

— يا سيد ! . . — رفعت الفتاة صوتها بحدة — لماذا تتكلم بهذه الوقاحة ؟ انت تريد تحويل مبلغ . أليس كذلك ؟ حوله وكفى .

سحب ايغور رأسه من الشباك . وزعل . فلماذا تركت عملها اذن وتطلعت اليه برقة ؟ ايغور يفهم القضية الآن على هذا النحو فقط : فقبل ان تنهره الفتاة تطلعت اليه برقة . فلماذا ، يا ترى ، هذا التصرف المتناقض ؟

— بالحيلة والخداع رأسا — دمدم ايغور متذمرا بصوت خافت . — «يا سيد ! . .» . اى سيد انا بالنسبة لك ؟ انا رفيق لك ، بل وصديق وأخ .

رفعت الفتاة رأسها من جديد وسلطت عليه نظرة من عينيها الرماديتين الواسعتين . فقال ايغور :

— اعملى ، اعملى . ولا توزعى نظراتك هنا وهناك !

حمحمت الفتاة بسخرية وانحنت على الاستمارة . ثم نفد صبرها فقالت دون ان تنظر الى ايغور :

— كل هذا ويرتدى قبعة .

سلمته الايصال دون ان تنظر اليه . وضعته على رف الشباك وانشغلت بعمل آخر . فمن يستطيع ان يصرفها عن اعمالها .

خرج ايغور من دائرة البريد متذمرا :

— يا ملعونة ! سترقصين امامى رقصة البجع ، رقصة كراكوف ، رقصة البولكا ! — توجه ايغور نحو مطعم المحطة ، وازداد هياجه ، وبرق فى عينيه ذلك اللمعان المضطرب الذى يدل على ان فؤاده انتفض وراح يتململ بألم فى صدره . وغذ خطاه . — عجيب ، انظروا كيف تتصرف معى هذه العرائس الحلوات ؟! سوف القنكن درسا لا ينسى . سأكهرب الجو هنا ، وسأثير الهرج والمرج فى حفلة سكر وعربدة . — وبعد ذلك راح يتلفظ بكل ما يدور فى باله ويتمتم بكلمات لا معنى لها : — ترام بام بام ، ترام بام بام . .

في المطعم طلب قنينة شمبانيا وسلم النادل النشيط ورقة من فئة خمسة وعشرين روبلا وقال :

— شكرا . البقية لك .

ارتبك النادل . . .

— الف شكر لكم ، الف شكر . . .

— لا شكر على الواجب — قال ايغور واوماً الى النادل بيده كي يجلس لحظة ، فجلس النادل على كرسي قربه — انا قادم من مناجم الذهب — واصل ايغور كلامه متفرسا في هذا الانسان الطيب — واريد ان أسألك : هل يمكننا ان نقيم في مكان ما حفلة دعارة صاخبة ، حفلة مصغرة ؟

تلفت النادل عفويا . . .

— ربما في كلامي هذا خشونة . . . فانا مرتبك لأن النقود تحرق فخذي — اخرج ايغور من جيبه رزمة سميكة نسبيا من اوراق نقدية من فئة عشرة روبلات وخمسة وعشرين روبلا . — ما هو رأيك ؟ لا بد من ان ننفقها بشكل ما . معذرة ، ما اسمك ؟

انفعل النادل بشدة حالما رأى هذه الرزمة ، ولكنه بذل قصارى جهده ليحافظ على كرامته . فهو يعرف ان الناس يدفعون اكثر لمن يحافظ على كرامته .

— اسمي سرغي ميخائيلوفيتش .

— ما هو رأيك ، يا ميخائيلوفيتش ؟ انا بحاجة الى حفلة بهيجة . فقد كنت في الشمال امدا طويلا . . .

— اعتقد اني سأجد مخرجا — قال ميخائيلوفيتش بعد ان تظاهر بانه فكر في الامر مليا . — اين نزلت ؟

— لم انزل في مكان ما بعد . فقد وصلت في الحال .

— في اغلب الظن يمكن ان نجد مخرجا . . . سنقيم ما يشبه حفلة الانس بمناسبة وصولك مثلا .

— نعم ، نعم . — قال ايغور منفعلا — حفلة انس مصغرة ، صاخبة باعتدال . . . كالطفر العريض ! اتفقنا ، يا ميخائيلوفيتش ؟ لقد اعجبتني من اول نظرة ! ففكرت : هذا هو الشخص الذي سأبذر معه نقودي !

اطلق ميخائيلوفيتش ضحكة صادقة . فسأله ايغور :

— اتفقنا ؟ لماذا تضحك ؟

واجابه ميخائيلوفيتش بلهجة مرحة :



— او . كي . آي اندرستاند يو . اتفقنا .

في الليل كان ايغور متكئا بوضعية تشبه الانبطاح على اريكة مكسوة بالقطيفة ، وهو يتكلم بالتلفون مع لوبا . وكان في الغرفة ميخائيلوفيتش وامرأة مدببة الانف بثألولة على الصدغ ، كانت قد دخلت الغرفة . وسألت ميخائيلوفيتش بهدوء عن شيء ما . وصاح ايغور :

— ألو ! لوبا ! . . انا في دائرة التجنيد ! لم استطع حتى الآن ان اسجل في الاحتياط ! الوقت متأخر ؟ نعم ، ولكنهم يعملون هنا حتى ساعة متأخرة . — واوماً ايغور الى ميخائيلوفيتش — نعم ، لوبا !

فتح ميخائيلوفيتش باب الغرفة قليلا ، واغلقه حتى اصطفق بصوت عال ومر قرب ايغور بضجيج ، وعندما اقترب منه صاح بصوت عال :

— ايها الرفيق الكابتن ! هل يمكن ان أسألك ؟!

هز له ايغور رأسه وكأنه يحبذ ما يفعله ، وواصل كلامه ، في حين تظاهر ميخائيلوفيتش بانه يقهقه بلا صوت .

— لوبا ! ما الذي بوسعي ان افعله ؟! ربما سأضطر ان انام في المدينة . نعم ، نعم . . . — استمع اليها ايغور امدا طويلا وراح يكرر : نعم ، نعم . ويبتسم ويلقي على ميخائيلوفيتش الكذاب نظرات سعيدة متباهية ، حتى انه غطى السماعة براحة يده وافاد : — تقول انا قلقة . انتظرك .

— انتظري ، انتظري طويلا . . . — بدأ ميخائيلوفيتش المتزلف ، الا ان ايغور اوقفه بنظرة .

— نعم ، يا لوبا ! . . تكلمي ، تكلمي ، يعجبني سماع صوتك ، حتى اني اشعر بالقلق ! . .

— يا له من ماكر ! . . — همس ميخائيلوفيتش باعجاب مصطنع . — يقول : «اشعر بالقلق ! . .» — وضحك من جديد : كان يضحك بصلف وبصوت ابح ينبعث من بين اسنانه الذهبية المكشرة . لقد وعده ايغور بمبلغ سخي لقاء حفلة الانس ، ولذا فهو يبذل قصارى جهده .

— سأنام ؟ سانام هنا على هذه الاريكة . . . لا بأس ، لا بأس ، انا متعود على هذه الامور . فلا تقلقي عليّ ! نعم ، يا عزيزتي ! . . يا صغيرتي الحلوة ! . . — افلت ايغور هذه الكلمات بصدق قلبي جعل ميخائيلوفيتش يكف عن التظاهر بالضحك . — الى اللقاء يا عزيزتي ! الى اللقاء ! اقبلك . . .

نعم ، انا فاهم ، فاهم ، الى اللقاء .

وضع ايغور السماعة وتطلع بعض الوقت الى ميخائيلوفيتش بنظرة زائغة ، فقد كان ينظر اليه ولا يراه . وفى تلك اللحظة خيل اليه ان يدا سحرية رقيقة لمست وجهه فتبددت عنه بالتدريج مسحة القساوة والضراوة المعتادة .

— آ . . . — هتف ايغور وقد عاد الى رشده — ماذا يا ابا الحانات ؟ هل نبدأ التهنك ؟ هل اعددت اللازم ؟

— كل شىء جاهز .

— هل وجدتم رداء ؟

— وجدنا رداء لا بأس به . . . اضطررنا للذهاب الى احد الممثلين القدامى . فلا احد عنده رداء من هذا النوع !

— اعطنيه لأقيسه . — ارتدى ايغور الرداء المضرب الطويل والمحكوك فى بعض اطرافه . وتطلع الى المرآة . فقال ميخائيلوفيتش معتذرا :

— لم نحصل على افضل منه .

— رداء جيد — امتدحه ايغور — ماذا ؟ هل رتبت كل شىء كما أمرت ؟

خرج ميخائيلوفيتش من الغرفة .

— فاضطجع ايغور على الاريكة يدخن .

دخل ميخائيلوفيتش وافاد :

— الجمهور مستعد للتهنك !

— هيا — اومأ اليه ايغور .

فتح ميخائيلوفيتش الباب على مصراعيه . . . وتوجه ايغور على عجل ، محنى الرأس قليلا ، برداءه الطويل ، مثل كاليغولا ، لممارسة الدعارة والتهنك .

اجتمع من اجل «التهنك» اناس شتى . واغلبهم من الكهول . كانت بينهم نساء ايضا ، ولكنهن فى غاية الدمامة والتعاسة . جلسوا جميعا حول مائدة مثقلة بما لذ وطاب ، وراحوا يتطلعون باستغراب الى ايغور الذى ارتبك بشكل ملحوظ ، ولكنه تظاهر باللامبالاة . وقال بصوت مرح عال :

— ما سبب هذا الوجوم ؟!

وتوجه الى مقدمة المائدة ، ثم توقف وطوق الجميع بنظرة متفحصة . وانفلت زمام عواطفه فقال :

— نعم . نحن اليوم نعرف من اين تؤكل الكتف . هيا ! . . املاؤا الكؤوس .



— يا عزيزى — خاطبه ضيف كهل يقرب من الشيخوخة — اوضح لنا : بماذا نحتفل ؟ هل هى مناسبة . . . ام ماذا ؟

فكر ايغور برهة ثم بدأ كلامه بصوت متأمل خافت ، وكأنه فى مأتم ، وهو يحدق فى قناني الشمبانيا — بمناسبة . . . — ورفع رأسه فجأة وطوق الجميع مرة اخرى بنظرة متفحصة ، ولانت ملامح وجهه من جديد فتبددت مسحة القساوة والتوتر ، وقال بلهجة مؤثرة : — يا اخوانى واخواتى ، خفق قلبى وفاض بالحنان والرقة الآن . انا اعرف بانكم فى شغل شاغل عن كلماتى الجميلة ، ومع ذلك اسمحوا لى بان اقولها — تكلم ايغور بجد وحماس ، بل وبشىء من المهابة ، حتى انه خطا بضع خطوات ، على قدر ما يسمح به المكان واحتوى الجميع من جديد بنظرة متطلعة واضاف : — الربيع . . . ستتفتح الزهور قريبا . وستصطبغ البتولا بالخضرة . . . — اضطرب ايغور اشد الاضطراب لسبب ما ، ولاذ بالصمت برهة . فهو لا يزال يسمع صوت لوبا المحبب اليه ، وكان ذلك مبعث ارتباكه واضطرابه . وقال احد الحاضرين :

— عيد الثالوث الاقدس قريبا ، أفليس ذلك مناسبة طيبة ؟

وواصل ايغور كلامه :

— يمكن السير امدا طويلا ، وبعد ذلك تأتى فسحة تعقبها اجمة ، وبعد الاجمة مرج منحدر ، وفيه جدول يتهادى خريره . . . أليس ما اقوله مفهوما ؟ نعم ، فأنا ، كرجل مهذب ، اتكلم واشعر بالخجل لكلماتى ! — زعل ايغور على نفسه جادا ، واطلق العنان للسانه بتهور وغضب وصخب ، وكأن امامه جمعا من الرافضين لما يقول — اعتبرتمونى احمق يبذر ثلثمائة روبل لا لشىء . ولكن ما هو ذنبى اذا كنت اليوم احبكم جميعا بدون استثناء ؟! انى اليوم رقيق القلب كأضعف . . . بقرة تضع وليدها . ولا يهمنى ان حفلة الانس ليست على ما يرام . فلا داعى لها ! بل وان ذلك افضل . ولكن لا تتصوروا بانى غبى احمق . واذا كان هناك من تسول له نفسه ان يدوس على دماملى لانى رقيق القلب فلن اسمح له بذلك مطلقا . ايها الناس ! . . فلنحب بعضنا بعضا ! — هتف ايغور بصوت يقرب من الصياح ، وضرب على صدره ضربة شديدة — فلماذا نخشخش كالعناكب الحبيسة فى علبة ؟ أفلا تعرفون سهولة الموت ؟ انى لا افهمكم . . .

— سار ايغور بمحاذاة المائدة — لا افهمكم ! انى ارفض فهمكم ! وانا لا افهم نفسى ايضا ، فأنا ارى فى المنام كل ليلة حوانيت وحقائب . خلاص ! اذهبوا واسرقوا بانفسكم . . . سأجلس على قرمة ، وسأظل جالسا ثلاثة وثلاثين

عاما . انا امزح . انني آسف عليكم ، وعلى نفسي ايضا . ولكن لو شعر شخص ما بالأسف علىّ او احبني لغباوته فسوف . . . لا ادري . سأشعر بالحزن والكآبة . انني مرتاح حتى ان فؤادي يفيض بما فيه . ولكني خائف . انا خائف ! تلك هي الحقيقة . . . — اختتم ايغور كلامه بهدوء غير متوقع وبثقة وادعة . صمت برهة مطأطأ الرأس ، ثم تطلع بطيبة خاطر الى الجميع وامرهم قائلا : فليأخذ كل منكم قربة شمبانيا . . . خذوا ، خذوا ! هل اخذتم جميعا ؟ افتحوا السدادات المشدودة بالسلك المفتول ، ولتنطلق اصوات القناني !

تململ الجميع وضجوا في الكلام . . . وتعالت اصوات القناني وسط ضجيج الاستحسان . فأمرهم ايغور :

— املاؤا الكؤوس بسرعة قبل ان يتبخر الكحول !

— حقا . بدأ الكحول يتبخر ! اعطني كأسا . . . هات الكأس بسرعة يا صاحبي !

— آه ، يا للشيطان ! . . سال قليل من الشمبانيا .

— سال ؟

— سال من القنينة . اسفي على تبدد هذه النعمة .

— نعم ، شمبانيا مرحة . انظر كيف تبقبق وكأنها تغلي ! يبدو انها معتقة .

— طبعا ، طبعا ، فهم يبذلون جهدهم لجعلها معتقة . . .

— اسمعوا بقبقتها . . .

— يا احبائي ! — قال ايغور بحنان وعطف صادق — انا مسرور لانكم تحركتم وابتسمتم ، ولان شرابي هذا اعجبكم . انني احبكم اكثر واكثر !

شعروا بالخجل من التطلع الى ايغور مباشرة ، فقد هذر بكلام ما انزل الله به من سلطان . لاذوا بالصمت عندما تكلم واستقرت نظراتهم على كؤوسهم واقداحهم . وقال ايغور :

— فلنشرب !

وشربوا .

— فلنشرب ثانية دون ابطاء ! هيا !

وتململوا وضجوا من جديد . فالحفلة غريبة ، والزاد بالمجان .

— انها تبقبق ولا تستقر .

— البقبقة اقل الآن ، فقد نفدت قوتها .



— ولكن طعمها غريب عجيب . . .

— نعم ، طعم غير واضح .

— ما هو رأيك ؟

— لونها كلون بول الحصان ، ولكن طعمها غريب . . . غير واضح .

— لماذا يغص بها البلعوم ؟ . . ألم يغص بها احد غيري ؟

— نعم . يغص بها البلعوم .

— ويحترق الانف ! فيحلو الشرب .

— الكحول هو السبب .

— اي كحول فيها ، لعنها الله ! فهي كالعصير الحامض . والذي يبقبق هو الغاز وليس الكحول .

— فلنترك الشمبانيا — امر ايغور — ولنفتح قناني الكونياك .

— ما الداعي للعجلة ؟

— اريد ان نغني .

— آه ، هذا في مقدورنا .

— فلنفتح الكونياك !

وفتحوا الكونياك . فلا بد من ان يفعل المرء هنا ما يراد له ان يفعله .

— صبوا في الاقداح لحد النصف . فالكونياك لا يشرب بجرعات كبيرة دفعة واحدة . واذا اعلن احد منكم بان رائحة البق تفوح منه فسأهشم رأسه بهذه القنينة . فلنشرب !

وشربوا .

— غنوا ! — امرهم ايغور .

— لم نأكل طعاما بعد . . .

— بدأت الاعذار . . . — قال ايغور مغتاظا وجلس — كلوا ، كلوا . لا تهمهم الا البطون . يأكلون ولا يشبعون ! . .

وضع البعض منهم ، بخجل ، الشوكات جانبا وتطلعوا بحيرة الى ايغور .

— كلوا ، كلوا ! ماذا بكم ؟ . .

— الافضل ان تأكل انت ايضا ، والا فسوف تسكر .

— لن اسكر . كلوا .

— يا للشيطان ! — قال رجل اصلع باستياء وبصوت عال — انت دعوتنا ، فلماذا تلومنا الآن ؟ فأنا ، مثلا ، لا استطيع ان اشرب بدون مزة وطعام ،

والا سأسقط تحت المائدة فى الحال . وانا لا اشعر بالارتياح على هذه الطريقة . ولا احد يشعر بالارتياح على ما اعتقد .

— كلوا ، اذن !

فى تلك الاثناء راحت ام لوبا وابوها يستجوبان ابنتهما المسكينة ، ويمعنان فى استجوابها . العجوز تريد ان تفهم :

— لماذا تعمل دائرة التجنيد فى الليل ؟ أفلا يغلقونها ؟

كانت لوبا نفسها متحيرة فى تفسير هذا اللغز . فهى مترددة فى تصديق او تكذيب حكاية دائرة التجنيد . ولكنها تكلمت بنفسها مع ايغور وسمعت صوته والكلمات التى قالها لها بالتلفون . . . وهى لا تزال تتكلم معه ذهنيا : «انك عجيب غريب يا ايغور . فما الذى تنوى فعله ؟» .

— لوبا !

— نعم .

— اية دائرة تجنيد ؟ كل الدوائر مغلقة فى الليل . فماذا تقولين ؟

— كلا ، فطالما يقول بانه سينام هناك . . .

— فليقل ما يشاء ، ليس على الكلام كمرك !

— اعتقد — قال الشيخ بحزم — طلبوا منه ان يحضر غدا فى الثامنة صباحا . فى تمام الثامنة . فهؤلاء عسكريون يحبون الدقة . وفكر هو بان من الافضل ان يقضى الليل هناك ولا يتحمل من جديد مشقة السفر فى الصباح .

— نعم ! — قالت لوبا فرحة — فقد قال بنفسه انه سينام هناك الليلة على الاريكة . . .

— كل الدوائر تغلق فى الليل ! — اصرت العجوز على رأيها — فكيف يعقل انهم يسمحون له بالبقاء وحده هناك ؟ فربما يسرق الختم . . .

— ماذا تقولين يا ماما ؟!

وامتعض الشيخ ايضا من هذه الفكرة الحمقاء .

— ما حاجته الى الختم ؟

— اقول ذلك على سبيل المثال ! وتريد هذه البنت ان تسد فمى ، فلا اقول كلمة .

نظم ايغور جوقة من «المتهتكين» .



— سنبدأ انا وانت بالغناء — راح يهز الرجل الاصلع — اما انتم فسوف تنشدون حالما الوح بيدى . «بُم-بُم» . هيا :

رنين المساء ،

رنين المساء . . .

لوح ايغور بيده ، ولكن جوقة «بُم-بُم» لم تفهم .

— لماذا انتم صامتون ؟! قلت لكم : حالما الوح بيدى انشدوا «بمُ-بُم» .

— لوحت بيدك ، فلماذا تغنى بنفسك اذن ؟ . .

— خيل الىّ بانى اسمع اصوات النواقيس فنفد صبرى . استولى علىّ الحنين الى مسقط رأسى . . . فبدأت اغنى بهدوء . ولكنكم شوشتم علىّ برنينكم : «بُم — بُم» . انتم لا تعرفون مدى حنينى هنا . فتلك قضية لا تعنيكم .

وقال ميخائيلوفيتش :

— يشعر المرء بالحنين ، عادة ، اذا كان فى السجن ، او اذا وقع فى الاسر .

فاعترضوا عليه :

— من اين لهم كنائس فى الاسر ؟

— كيف لا ؟ لديهم كنائس هم ايضا . لا تشبه كنائسنا طبعا ، ولكنها مع ذلك كنائس فيها نواقيس . أليس كذلك يا ايغور ؟

— عليكم اللعنة ! . . لا تعرفون غير الثرثرة — زعل ايغور تماما — حين تبدأون بالكلام تستمرون فيه الى ما لا نهاية . . . لماذا تحبون الكلمات الى هذا الحد ؟ فما هذا الاسهال الكلامى الذى اصابكم ؟!

— هيا ، لا تهتم .

— كيف لا اهتم ؟ اطلب منكم ، ولكنكم . . . هيا :

رنين المساء ،

رنين المساء . . .

— بُم ، بُم ، بُم . . . — «دقت النواقيس» بأصوات متنافرة ، فتشوش الانشاد وفسد .

لوح ايغور بيده يائسا وتوجه الى غرفة اخرى . توقف عند العتبة وقال بقنوط :

— غنوا ما تشاءون . ولا تزعلوا منى ، فأنا لا استطيع البقاء معكم . امرحوا لوحدكم . وبوسعكم ان تنشدوا اغنيتكم المحببة ، اغنية السكارى .

لاذ افراد جوقة «بُم-بُم» والآخرون بالصمت متحيرين .

الا ان النبيذ ومختلف انواع الاطعمة النادرة التى تنوء بها المائدة خففت من احزانهم . فتلك الاحزان من اجل راحة الضمير لا غير .

— ماذا به ؟

— كيف لا تستطيعون ان تنشدوا «بُم — بُم» ؟ فهل ذلك شىء صعب ؟

— لامهم ميخائيلوفيتش .

— خرجت الاصوات متنافرة . . .

— كيريل هو السبب . . . لماذا انشدت يا كيريل اكثر من اللازم ؟

— انا ؟ — قال كيريل مغتاظا — انشدت كما يرام ، مثلما تقرع النواقيس . فأنا اعرف لا داعى للمبالغة فى ذلك . فالناقوس ثقيل ، ويجب ان تهزه فى البداية .

— فمن الذى انشد اكثر من اللازم اذن ؟

— كفاية ، ما الداعى للكلام الآن ؟ فلنواصل . ألم يأمرنا بمواصلة الانس ؟

— حقا ، بالطبع . . . فلسنا المذنبين ، فما ذنبى انا ، مثلا ، اذا كنت لا اجيد الغناء ؟ ولماذا افتح فمى اذا كنت لا املك صوتا منذ الطفولة ؟

جلس ايغور مستاءً على الاريكة بوضعية تشبه الانبطاح ، ودخل عليه ميخائيلوفيتش فقال :

— سامحنا ، يا ايغور ، لم نوفق فى قرع النواقيس . . .

صمت ايغور لحظة ، ثم سأل بلهجة غاضبة :

— لماذا كلهن دميمات ؟

تحير ميخائيلوفيتش فأجاب متلعثما :

— ذلك . . . يا ايغور . . . لان الجميلات كلهن متزوجات . وقد دعوت غير المتزوجات ، حسب امرك .

ظل ايغور جالسا بعض الوقت . ولاحت على وجهه من جديد مسحة شفافة . ولعل فرحة ما دغدغت روحه وانتفضت فى ذاكرته .

— هل تستطيع ان تطلب سيارة اجرة بالتلفون ؟

— طبعا .



— الى قرية ياسنويه . سأدفع للسائق قدر ما يريد . تلفن ! — نهض ايغور وخلع الرداء وارتدى سترته وعدل من ربطة عنقه .

— لماذا تريد الذهاب الى ياسنويه ؟

— عندى صديق هناك . — وراح يجوب الغرفة متفعلا من جديد — روحى . . . تتحرق ، يا ميخائيلوفيتش . وستقودنى الى الهلاك . حالما تشعر هى بالحرية اتعذب انا ولا يقر لى قرار . تلفن ، تلفن ! كم شخصا دعوت ؟

— خمسة عشر ، ما عدانا انا وانت . فلماذا تسأل ؟

— هاك مائتى روبل ، وزعها عليهم ، لكل شخص عشرة روبلات ، والباقى لك . ولكن لا تخدعنى ! سأعود واعرف الحقيقة .

— كيف تشك بى يا ايغور ؟!.

ها هى السيارة تنهب الدرب العريض الممهد الى القرية ، الى لوبا ، فى ليلة وضاءة مقمرة .

«ما هذا ؟ ماذا حدث لى ؟» — راح ايغور يستجوب نفسه ، وقد استولى عليه القلق والاضطراب . فهو لم يعد يتذكر انه انفعل فى زمن ما مثل انفعاله الآن بسبب امرأة . وسأل من السائق :

— ما الذى يكتبونه عن الحياة العائلية ؟ هل من جديد ؟

— من الذى يكتب ؟ — سأل السائق بدوره لانه لم يفهم شيئا .

— فى الكتب . . . عموما .

— فى الكتب يكتبون ما يشاءون — قال السائق باستياء — فى الكتب كل شىء بخير .

— وفى الحياة ؟

— فى الحياة . . . ألا تعرف ماذا يجرى فى الحياة ؟

— الامور سيئة ، أليس كذلك ؟

— سيئة للبعض وجيدة للبعض الآخر .

— وبالنسبة لك ، مثلا ، هل هى سيئة ام جيدة ؟

هز السائق كتفيه على نحو شبيه بما فعل الشاب الذى اشترى ايغور منه المسجلة. فقال ايغور متدهشا :

— اننى متعجب لكم ، فاى نوع من البشر انتم ؟ كلكم مكتئبون .

— هل تريد منى ان اقهقه معك ؟ وان اداريك ؟

— من يتوقع المداراة منكم ! الافضل لك ان تدارى امرأتك . وهذا يحتاج الى مهارة . فعندما تبدأ بمغازلتها ربما تجيبك «ابتعد عنى ، رائحة الماعز تفوح منك» .

ضحك السائق وسأل :

— هل اجابتك احداهن بهذا الشكل ؟

— كلا . فأنا بنفسى لا احب رائحة الماعز . فلننزل الزجاج قليلا .

التفت السائق الى ايغور دون ان ينبس ببنت شفة . بينما عاد ايغور الى افكاره التى لم يتمكن بأية حال ان يجمعها . فقد تشوش كل شىء فى ذهنه بسبب لوبا .

وصلت السيارة الى منزل كبير معتم وخرج ايغور منها فتحركت . شعر ايغور بالوجل والتردد فجأة . فوقف امام البوابة حاملا قنانى الكونياك وهو لا يدرى ماذا يفعل . دار حول المنزل ودخل من بوابته الثانية الى بستان بترو وارتقى العتبات وطرق الباب بقدمه . ساد الصمت طويلا ، ثم صر باب داخلى ، وترددت خطوات خفيفة — لقدمين حافيتين — فى الدهليز ، وترامى صوت بترو :

— من ؟

— انا ، ايغور ، يا بترو . . .

فتح الباب .

— ماذا بك ؟ هل طردوك ؟ — سأل بترو مندهشا .

— كلا . . . لا اريد ايقاظهم . هل سبق لك وان شربت «ريمى مارتن» ؟

صمت بترو طويلا وهو يتطلع فى وجه ايغور .

— ماذا تقول ؟

— «ريمى مارتن» . القنينة الواحدة بعشرين روبلا . فلنذهب الى الحمام لنشرب .

— لماذا فى الحمام !

— كيلا نزعج احدا .

— فلنذهب الى المطبخ . . .

— لا داعى لذلك ! لا توقظ احدا .

— انتظر حتى ارتدى حذائى على الاقل . . . واحضر مزة .

— لا داعى لها . جيوبى مليئة بالشوكولاته ، رائحتها تفوح من بدنى وكأنى احدى الطالبات .



استقرت بقعة ضوئية ، منبعثة من النافذة الصغيرة ، على ارضية الحمام ، فى عالم قاتم ضيق الاركان . اشعل الرجلان مصباحا يدويا وجلسا قرب النافذة . وقال بترو دون ان يفهم تصرف ايغور :

— لم لم تذهب الى البيت ؟

— لا ادرى . . . اعتقد ، يا بترو . . . — همّ ايغور بالكلام ولكنه لزم الصمت . فتح القنينة ووضعها على رف النافذة . — هل ترى هذا الكونياك الملعون ؟ ثمنه عشرون روبلا . عجيب !

اخرج بترو قدحين من جيب سروال عتيق . وصمتا .

— لا ادرى ماذا اقول يا بترو . اننى بنفسى لا افهم كل شىء .

— لا تقل شيئا اذن . صب شرابك الثمين . . . ايام الحرب شربت انا ايضا كونياك . فى المانيا . وكانت تفوح منه رائحة البق .

— لا تفوح منه رائحة البق ! — هتف ايغور — فمن البق تفوح رائحة الكونياك . من قال بان رائحة البق تفوح منه ؟

— ربما لا تفوح تلك الرائحة من الكونياك الثمين . اما الكونياك العادى فتفوح منه .

انقضى الليل ، بينما ظل القمر منيرا . وسبحت القرية كلها بنور باهت ازرق موات . خيم سكون مطبق ، فلا كلب ينبح ولا باب يصر . تعودت القرى على هذا السكون قبيل الفجر . وتعودت السهوب ايضا عليه قبيل الفجر ، حيث يتجمع الضباب والرطوبة فى المنخفضات بشكل غير ملحوظ . والجو بارد هادئ .

وفجأة شق هذا السكون صوت انبعث من الحمام :

قابع انا وراء نافذة السجن فى زنزانة رطبة . . .

انشد ايغور وانشد معه بترو . وانبعثت الاغنية بانسجام جميل وحزين الى حد يستدر الدموع :

كصقر يافع تربى حبيسا ،
وتحت النافذة ينقر رفيقى الحزين
طعامه الدامى مرفرفا بجناحيه . . .

في الصباح الباكر رافق ايغور لوبا الى المزرعة . اصر على الذهاب معها فذهب . ارتدى بدلته الانيقة وقبعته وربطة عنقه هذه المرة ايضا . الا ان مسحة من التأمل والكآبة تطفو على وجهه . فرحت لوبا اشد الفرح لمرافقته لها ، فكانت متفتحة الاسارير . وكان الصباح متفتحا ايضا ، بجو صاف ونسيم بارد . فتلك هي تباشير الربيع على اية حال .

— لماذا انت حزين يا ايغور ؟ — سألته لوبا فأجاب بغموض :

— لا لشيء . . .

— اختليتما في الحمام . ولا ادري لماذا ؟ — قالت لوبا ضاحكة — اختليتما دون ان تخافا . اما انا فلن تدفعني اية قوة الى الحمام في الليل .

فسأل ايغور مندهشا :

— لماذا ؟

— الشياطين هناك ! الشياطين تعشش في الحمام — تطلع ايغور باعجاب ورقة الى لوبا . . . ولمس ظهرها صدفة . وقال :

— انت على حق . لا تدخلي الحمام في الليل ابدا . فأنا اعرف . . . اولئك الشياطين !

— سمعتك عندما وصلت بالسيارة في الليل . وظننت ان كوليا المعتوه هو الذي وصل .

— من هو كوليا هذا ؟

— زوجي .

— ماذا ؟ هل يأتي اليك احيانا ؟

— طبعا ، كيف لا ؟

— وانت ؟ ماذا تفعلين ؟

— ادخل غرفة الاستقبال واغلق الباب واظل هناك . فهو لم يأت ولا مرة واحدة صاحيا . وانا لا اتحمل رؤيته سكران ، فهو في هذه الحالة احمق الى اقصى حد . فاشعر بالاشمئزاز منه ويرتعش بدني كله .

انتفض ايغور عندما سمع هذه الكلمات الحية الغاضبة . . . فهو لا يطيق الكآبة والذبول اللذين يتسربان الى الناس . ولعل طريق الحياة قد انحرف به جانبا الى هذا المدى البعيد لانه كان دوما ، ومنذ الصبا ، يميل الى الاشخاص ذوي الطباع الحادة المرسومة بخطوط عميقة محددة وان كانت مائلة احيانا .

— نعم ، بالطبع — تظاهر ايغور بالمؤاساة — هؤلاء السكارى مصيبة .



— مصيبة ! — تلقفت لوبا الساذجة كلمته — مصيبة كبيرة . دموع وتأوهات .

— مأساة . عجيب ، ما اكثر الابقار هنا ! — قال ايغور بدهشة .

— ابقار المزرعة . . . وانا اعمل هنا .

تجمد ايغور حالما وقع بصره على الابقار . وراح يكرر :

— ها هي اذن . . . الابقار . انظري ، لقد رأتك ، أليس كذلك ؟ واضطربت لرؤيتك . لاحظي كيف تنظر اليك . . . — صمت ايغور . . . ثم قال فجأة على سليقته — لا اتذكر من طفولتي شيئا غير امي والبقرة . كان اسم البقرة مانكا . في الربيع ، في نيسان ، اطلقناها من الحظيرة لتجد علفا بنفسها في الشارع . ففي الشتاء يثقلون العلف ويتساقط منه شيء ، وفي الربيع تذوب الثلوج فيظهر السقط على الطرق وعند الاسيجة . . . وعندما اطلقناها بقر احدهم بطنها بمذراة . فقد دخلت حظيرته ، وكان لا يزال لدى البعض عشب جاف ، فبقر بطنها . وعادت الى المنزل واحشاؤها متدلية .

تطلعت لوبا الى ايغور مذهولة لهذه الحكاية البسيطة . وكان واضحا ان ايغور شعر بالاسف لاضطراره الى سرد هذه الحكاية ، فسأل متذمرا :

— لماذا تنظرين هكذا ؟

— ايغور . . . يا عزيزي . . .

— لا داعي لذلك — قال ايغور — فتلك كلمات . والكلمات لا قيمة لها .

— ماذا ؟ هل اختلقت هذه القصة ؟

— كلا ! . . ولكن لا تسمعي ما يقوله الناس . اقصد اسمعيه ، ولكن لا تهتمي به . فانت تصدقين بكل ما يقال وكأنك . . . — تطلع ايغور الى لوبا ، ولمس ظهرها من جديد برقة وعناية وبشيء من الخجل — هل من المعقول ان احدا لم يخدعك مرة ؟

— كلا . . . ومن يخدعني ؟

— احم . — القى ايغور نظرة متفحصة على عيني المرأة الصافيتين وابتسم ابتسامة ساخرة — شيء مذهل . — كان راغبا طوال الوقت في لمسها والتطلع اليها .

— انظر ، ها هو مدير الاستثمارة قادم من مزرعتنا — قالت لوبا وانتعشت مبتسمة دون ان تدري لماذا .

سار باتجاههما رجل متين البنية معتدل القوام تبدو عليه مظاهر الهنوة ، ولعله في مثل عمر ايغور . سار بمشية ثابتة هي مشية انسان واثق من نفسه . ونظر بفضول الى لوبا ومرافقها وهو لا يعرف هل هو زوجها ام رفيق لها .

فلاديميروفيتش ! هل كنت عندنا ؟

— كنت عندكم . مرحبا ! — هز المدير يد ايغور بشدة والتفت الى لوبا

— ماذا ؟ هل جاء ليسكن عندنا ؟

— انه سائق ، يا دميترى فلاديميروفيتش — قالت لوبا بلهجة لا تخلو من التباهي .

— صحيح ؟ طيب . هل استطيع ان اسلمه سيارة فورا ؟ عنده اجازة سياقة ؟

— لم يستلم هوية شخصية بعد . . . — تضاءل تباهي لوبا .

— آ . يا ليتك تذهب معي . فقد استدعي سائقي الى دائرة التجنيد لسبب ما ، واخشى ان يغيب فترة طويلة .

— هل انت موافق يا ايغور ؟ — قالت لوبا منفعلة — سترى ناحيتنا ، وستعجبك !

هذا الانفعال الحي ، وهذه الكلمات الخرقاء بخصوص الناحية جعلت ايغور يقبل بما كان سيسخر منه حتما قبل خمس دقائق . فقال :

— فلنذهب .

وذهب مع المدير .

فنادته لوبا قائلة :

— ايغور ! تناول غداءك في احد المطاعم هناك . . . يادميترى فلاديميروفيتش ، اخبره اين يتغدى ، فهو لا يعرف بعد !

وضحك دميترى فلاديميروفيتش .

التفت ايغور الى لوبا وتطلع اليها بعض الوقت . ثم استدار ولحق بالمدير الذي وقف ينتظره ، وسأله المدير :

— من اين انت عموما ؟

— انا ؟ انا من هذه الاماكن ، من ناحيتكم . من قرية ليبتفيانكا .

— ليبتفيانكا ؟ لا توجد عندنا قرية بهذا الاسم .



— كيف ذلك ؟

— لا توجد ! فأنا اعرف ناحيتي .

— عجيب . . . فأين اختفت تلك القرية ؟ — لم يعجب ايغور بالمدير ، فهو معتدل ، معتد بنفسه . اشمئز ايغور خصوصا من اعتداد المدير بنفسه ، فهو لا يطيق امثال هؤلاء الناس . — كانت قرية ليبتفيانكا موجودة ، فأنا اتذكرها جيدا .

القى المدير نظرة متفحصة على ايغور وقال :

— احم . ربما احترقت .

— ربما . مع الاسف ، فقد كانت قرية جيدة .

— ماذا ؟ هل ستذهب معي ؟

— نعم . فقد تهيأنا للذهاب ، اذا كنت قد فهمتك بالشكل الصحيح ، اليس كذلك ؟

وراحا يجوبان رحاب المزرعة الشاسعة ، وهي مزرعة غنية جدا .

وسأله المدير :

— لماذا تكلمت معي بهذا الشكل ؟

— بأي شكل ؟

— تظاهرت بالبلاهة . لماذا ؟

— لا يعجبني البدء بسيرة الحياة . فهي مجرد كلمات ، والكلمات يمكن ان تختلق دوما .

— كيف ذلك ؟ كيف يمكن اختلاق سيرة الحياة ؟

— بكل بساطة . . . ليست لدى هوية شخصية ولا وثائق ، ما عدا شهادة واحدة ، ولا احد يعرفني هنا . ويوسعني ان اقول ما اريد . هل تعلم باني ابن المدعي العام ؟

ضحك المدير . فهو الآخر لم يعجب بايغور : انه مشاكس دون قصد .

— هل تشك في ذلك ؟ فأنا ارتدي قبعة وربطة عنق . . . — تطلع ايغور في مرآة السيارة — فما الذي يعوزني لاكون ابن المدعي العام ؟

— لم اطلب منك اية وثائق . والاكثر من ذلك انك تقود السيارة بلا اجازة . فاذا صادفنا شرطي المرور فماذا ستفعل ؟

— انت المسؤول .

وصلا الى مزرعة تربية النحل ، فقفز المدير بخفة من السيارة .

— عندى شغلة هنا . اذا كنت لا تمانع فتعال معى ، وسيطعمك الشيخ عسلا .

— كلا ، شكرا — خرج ايغور هو الآخر من السيارة — سأمتع نفسى بهذه المناظر . . .

— كما تريد . — قال المدير وانصرف .

راح ايغور يتمتع بالمناظر . تطلع حواليه ، واقترب من البتولا ولمس جذعها .

— ها ؟ بدأت براعمك تتفتح ؟ قريبا ، قريبا جدا سترتدين فستانا اخضر . هل مللت من الوقوف عارية ؟ ما اجملك . . . سترتدين فستانا جميلا فى القريب العاجل .

خرج من المنزل مربى النحل العجوز ، فنادى ايغور من مدرج الباب :

— لماذا لا تدخل . تعال واشرب قدحا من الشاى !

— شكرا لك يا ابتى ! لا اشتهى شايا .

— كما تريد . — قال الشيخ وانصرف .

وسرعان ما خرج المدير يرافقه الشيخ الذى قال مودعا :

— عرج علينا اكثر ، فنحن على طريقك . وانت كثير الترحال فى هذه المناطق .

— شكرا ، يا ابى ، شكرا . هيا .

وانطلقت بهما السيارة .

— صمغ النحل مادة نافعة — قال المدير وهو يدس صرة صغيرة بين مقعدى السيارة .

— يستخدم لعلاج قرحة المعدة ، اليس كذلك ؟

— نعم . هل كنت مصابا بها ؟ — التفت اليه المدير .

— كلا ، اعرفها بالسماع .

— اصيب بها احد الاشخاص وتجب مساعدته . فهو انسان طيب .

— يقال انه دواء ناجع .

لاحت قرية فى الامام ، فقال المدير :

— سأنزل قرب النادى . اما انت فاذهب الى سوستوفكا ، على بعد سبعة كيلومترات من هنا ، واحضر رئيس الفرقة سافيليف ، واذا لم تجده فى البيت ابحث عنه واحضره .

هز ايغور رأسه موافقا .



توقفت السيارة قرب النادى ، فنزل المدير ، ثم واصلت سيرها .

احتشد قرب النادى رجال ونساء وفتيان وفتيات . وحضر كهول ايضا ، استعدادا لاجتماع ما . احاطوا بالمدير وراحوا يتكلمون عن كيت وكيت ، فكان هو من جديد معتدا بنفسه راضيا عنها كل الرضا .

انزوى الشبان جانبا وراحوا يتجاذبون اطراف الحديث ويقهقهون من حين لآخر .

اما الشيوخ فكانوا يدخنون قرب السياج .

وعلى واجهة النادى لافتات كبيرة . كل الدلائل تشير الى احد الاحتفالات التى تعود الناس عليها .

النادى جديد انجز بناؤه مؤخرا . فأزاء الاساس لا تزال كومة من الطابوق وقربها هيكل قلابة قديم تحجر عليه خليط الاسمنت .

وصل ايغور مع رئيس الفرقة سافيليف وتوجه للبحث عن المدير . قالوا له ان المدير فى النادى مع هيئة الرئاسة على المسرح .

اجتاز ايغور الصالة الغاصة بعمال الاستثمارة الحكومية وارتقى خشبة المسرح واقترب من المدير من الخلف .

كان المدير يتحدث مع شخص عريض المنكبين ويهز ورقة امامه . لمسه ايغور من كمه وقال :

— يا دميترى فلاديميروفيتش . . .

— ماذا ؟ آ . احضرته ؟ طيب . اذهب .

— كلا . . . — دعا ايغور المدير للاختلاء به جانبا وقال له بعد ان تأكد من ان احدا لن يتمكن من سماعهما — هل تجيد سياقة السيارة بنفسك ؟

— نعم . ماذا حدث ؟

— لا استطيع اكثر من ذلك . استعمل السيارة بنفسك . فانا لا استطيع اكثر . وانا عاجز عن اقناع نفسى . انا متأكد من ذلك .

— ماذا بك ؟ هل اصابك مرض ؟

— لا استطيع العمل سائقا . انا احمق ، جاهل ، متخلف . . . لا اعترض على ذلك ، انا سجين تعيس ، ولكننى لا استطيع . يخيل الى انى ابتسم لك طوال الوقت . الافضل ان اعمل فى قلابة او جرار ! حسنا ؟ لا تزعل منى . انت رجل طيب ، ولكن . . . انا اشعر بتوعك الآن ايضا ، انا ذاهب — وترك ايغور المسرح على عجل . وبينما كان يجتاز الصالة احس بأسف شديد لانه افرط

فى كلامه مع المدير وثرثر وكأنه يعتذر منه . فعم يعتذر يا ترى ؟ لا يستطيع ، وكفى . فلماذا اوضح له ؟ ولماذا عرض عليه ما فى نفسه ، وكشف عن قلة وعيه ؟ . . . تفو ! شعر ايغور بالمرارة . على هذا النحو يغدو المرء وصوليا متزلفا بالتدريج ، فيعتاد التزلف الى الناس . تفو ! كلا ، ذلك شىء مؤلم للغاية .

وبينما كان ايغور يجتاز الصالة شيعه المدير بنظراته ، فهو لم يفهم كل شىء ، بل لم يفهم شيئا على الاطلاق .

عاد ايغور ادراجه على طرف الغابة .

وصل الى فسحة خالية من الاشجار ، فاجتازها وبدأت من جديد غابة اكثف واحلك .

ثم هبط الى مرج صغير يتلوى فيه جدول يترنم بخرير . توقف ايغور لحظة يراقب الجدول فندت عنه :

— عجيب !

وقف برهة من الزمن ثم عبر الجدول بطفرة وارتقى سفحا . . .

ولاحت امام انظاره هناك اجمة بتولا ، اسرة كبيرة متراصة من اشجار البتولا التى هرعت نحوه وتوقفت قبالته . فهتف ايغور :

— ما اجملها ! . .

ودخل الاجمة .

تجول بين البتولا . . . خلع ربطة عنقه وعلقها على اجمل هذه الاشجار واكثرها رشاقة وبياضا . ثم لمح قرمة عالية فوضع عليها قبعته . وتراجع مسافة وراح يمتع انظاره بمشهدهما .

— شخصيتان فى منتهى التهذيب ! — قال ايغور وواصل سيره . ظل امدا طويلا يتلفت الى هاتين «الشخصيتين» الانيقتين ويبتسم . وتنفس الصعداء وتبدد العبء الذى يثقل عليه .

فى البيت راح ايغور يجوب الغرفة جيئة وذهابا وهو غارق فى تأملاته . دخن سيجارة ، وكان ينشد بين الفينة والفينة : «لماذا ، يا بنات ، تعشقن الحلوين ؟» ، ويكف عن الغناء ، ويتوقف لحظة ليتطلع الى النافذة او الى الجدار . . . ثم يسير ثانية . وانتابته اللجاجة من جديد ، وكأنه عازم على شىء ، ولكنه لم يشد العزم عليه . فيحاول القيام به ، ولكنه لا يستطيع . . . واستولى عليه الانفعال .



— لا تهتم يا ايغور — قال له الشيخ الذى راح هو الآخر يجوب الغرفة من الباب واليه ليفتل من خيوط خشنة حبلا للشصوص كان قد شد طرفه الى رزة الباب واخذ يمسده بقفاز عتيق — فسواق الجرارات ليسوا اسوأ ، بل افضل . رواتبهم كبيرة جدا هذه الايام !

— لا يعنيني ذلك ابدا .

— سأنتهى من فتل حبال الشصوص . . . وعندما يصفو ماء النهر قليلا سنذهب انا وانت لنصب الشصوص فهذا عمل لطيف يعجبنى .

— نعم . . . ويعجبنى انا ايضا . فأنا مغرم بنصب الشصوص .

— وانا ايضا . الآخرون يفضلون الصيد بالشباك . ولكن مفتشية الاسماك يمكن ان تقبض علينا اذا رأت الشبكة ، ثم ان الشبكة اللعينة مؤذية ، فان ترتيبها وقذفها يحتاجان الى وقت كبير !

— نعم . . . قذفها صعب . «لماذا يا بنات . . .» . هل ستأتى لوبا قريبا ؟

القى الشيخ نظرة على الساعة وقال :

— المفروض انها ستأتى قريبا . فهم الآن يسلمون الحليب ، وستأتى حالما يسلمونه . لا تبيئ اليها يا ايغور . فهى اصغر اولادنا . والاصغر محبوب . عندما ستنجب انت اطفالا سوف تتذكر كلماتى هذه . انها بنت طيبة رقيقة القلب ، ولكنها غير محظوظة . . . ابتلينا بهذا السكير ولم نتخلص منه الا بشق الانفس .

— نعم ، هؤلاء السكارى مصيبة كبرى ! وانا ايضا ، اعتقد . . . بانى سأسجن كل هؤلاء الشياطين لو كانت السلطة بيدى . سأسجنهم ، خمس سنوات لكل منهم ، آ ، ما هو رأيك ؟

— ما الداعى للسجن ؟ — قال الشيخ منتعشا — لو كانت السلطة بيدى لنفيتهم سنة الى منفى منعزل ، كلهم فى كومة واحدة !

— وهل سيأتى بترو قريبا ؟

— بترو ؟ المفروض ان يأتى الآن ايضا . . . فليجلسوا هناك ويفكروا .

— كل انسان يوافق على الجلوس . كلا ، فليعملوا ! — قال ايغور وكأنما يصب الزيت فى النار .

— صحيح . فليعملوا فى قطع الاشجار !

— كلا ، فى المناجم . فقطع الاشجار عمل فى الهواء الطلق ، وحتى

الاحمق يوافق عليه . كلا ، فليعملوا فى المناجم ، فى المقالع ، فى الآبار !

ودخلت لوبا فى تلك اللحظة .

— عجيب ، ظننت بأنكما ستعودان فى الليل ، فكيف انت هنا الآن ؟

— رفض العمل سائقا عند المدير — قال الشيخ — لا تلوميه ، فقد اوضح السبب ، فهو يشعر بالدوار والغثيان فى السيارة الصغيرة .

— اريد ان آكلمك على حدة يا لوبا — دعاها ايغور واقتادها الى غرفة الاستقبال . فقد كان ، على ما يبدو ، عازما على شىء ما .

فى تلك الاثناء دخلت الباحة قلابة بترو ، فتوجه ايغور اليه . ولم يتسع الوقت لكى يخبر لوبا بما يشغل باله .

شاهدته لوبا يتحدث طويلا مع بترو ، ثم اومأ لها ايغور بيده فذهبت اليه . وصعد ايغور الى قمرة القلابة وجلس وراء مقودها .

— الى اين ؟ — سأل الشيخ الذى شاهد من النافذة هو الآخر كيف سلم بترو السيارة وادرك بان ايغور ولوبا ينويان الذهاب الى مكان ما .

— لا اعرف بالضبط . . . ايغور يريد الذهاب الى مكان ما . — قالت لوبا مسرعة .

— لوبا ! . . — اراد الشيخ ان يقول لها شيئا ، الا ان الباب اصطفق وراءها .

— ماذا يريد هذا الايغور ان يفعل ؟ — فكر الشيخ بصوت مسموع — فأية حياة لعينة قد بدأت ؟ لا بد لك من ان تتلفت خائفا وتتراكض وراء الاخبار . . .

واسرع هو ايضا الى النصف الثانى من المنزل لكى يعرف من ابنه الجهة التى اصطحب ايغور ابنته اليها ، ويسأل عموما عن المكان الذى ذهبا اليه .

— هناك قرية اسمها سوسنوفكا — اوضح ايغور عندما انطلقت بهما السيارة — على بعد تسعة عشر كيلومترا من هنا .

— اعرف هذه القرية .

— تسكنها عجوز تكنى بالحلاجة . وتعيش معها ابنتها . الا ان البنت فى المستشفى الآن .

— من اين عرفت ذلك كله ؟

— كنت اليوم فى سوسنوفكا . ولكن لا اهمية لذلك . فالسبب هو ان احد الرفاق طلب منى ان ازور هذه العجوز واستفسر منها عن ابنائها : اين هم ؟ هل هم على قيد الحياة ؟



— وما حاجة هذا الرفيق الى ذلك ؟

— لا ادرى . . . فهى خالته على ما اعتقد . عندما نصل تدخلين انت عليها . . . كلا ، ندخل سوية ، ولكنك انت ستستفسرين منها .

— لماذا ؟

— فلأوضح الامر اولا ، وبعد ذلك يمكنك ان تسألى — رفع ايغور صوته . فهو متفعل بالطبع .

— ارجوك يا ايغور ! لا ترفع صوتك على . اتفقنا ؟ ولن أسأل بعد الآن . ثم ماذا ؟

— لانها اذا رأت ان المستفسر رجل ستحزر بانه كان سجينا مع ابنـ . . . مع ابن اختها . وسوف تبدأ هى بالاسئلة والاستفسارات ، فى حين ان ذاك الرفيق طلب منى ان لا اخبرها بانه فى السجن . . . اف ! تعب لسانى من التوضيحات . هل فهمت ؟

— فهمت . ولكن بأية حجة سأستفسر منها ؟

— يجب ان نبتكر شيئا . نقول لها ، مثلا ، اننا من مجلس القرية . . . كلا ، ليس من مجلس القرية ، بل من الناحية . . . من تلك المديرية ، نسيتها ، المديرية التى تخصص المعاشات .

— تقصد مديرية الضمان الاجتماعى ؟

— نعم ، من مديرية الضمان الاجتماعى . وانت تتحققين من الاحوال المعيشية للمتقاعدين . اسأليها اين ابناؤها ، وهل يكتبون لها ام لا ؟ هل فهمت ؟

— فهمت . سأفعل كما تريد .

— لا تقولى ذلك قبل الاوان . . .

— سترى بنفسك .

صمت ايغور . وكان جادا غارقا فى التفكير على غير عادته . ثم ابتسم على مضض وقال :

— لا تزعلى يا لوبا ، اريد ان اصمت قليلا ، حسنا ؟

لمست لوبا يده براحتها .

— اصمت ، اصمت . وافعل ما تراه مناسبا ، اما انا فلن اسأل شيئا .

— واعذرينى لانى رفعت صوتى عليك . . . — قال ايغور من جديد — فأنا نفسى لا احب ان يرفع احد صوته علىّ .

استحث ايغور السيارة . كان الطريق يمر بمحاذاة الغابة ، والقلابة تتراقص

عندما تدوس عجلاتها على الجذور العارية والنتوءات . امسكت لوبا بمقبض الباب وهى تتمايل بتمايل السيارة . وراح ايغور ينظر الى الامام وشفتاه ملمومتان متلاصقتان وقد ضيق جفونه بعض الشيء .

منزل ريفى واسع مزود بفرن حجرى ومصاطب وارضية من خشب الصنوبر ، صقيلة ونظيفة للغاية . ومائدة بسيطة مطلية . وفى ابرز ركن ايقونة القديس نقولا . سلطت الحلاجة العجوز نظرة طويلة عشواء على لوبا وايغور . . . وكان ايغور يرتدى نظارة قاتمة . فسألته :

— لماذا غطيت عينيك يا ولدى ؟ فهل يمكن النظر عبر هذا الزجاج ؟

هز ايغور كتفيه فى اجابة غامضة ولم ينبس ببنت شفة . فقالت لوبا :

— لدى امر ، يا جدتى ، بان استفسر منك .

جلست الحلاجة على المصطبة ووضعت يديها البنيتين المعروقتين على مئزرها .

— عم تستفسرين ؟ معاشى عشرون روبلا . . . — تطلعت العجوز الى لوبا بنظرة بسيطة من الاسفل . — فماذا بعد ؟

— وابناؤك . اين هم ؟ كم عددهم ؟

— ستة ، يا عزيزتى ، ستة . تعيش معى الآن نورا فقط . وثلاثة فى المدن . . . كوليا يعمل فى السكك فى نوفوسيبيرسك ، وميشا يعمل فى بناء المساكن هناك ايضا ، اما فيرا فقد تزوجت من عسكرى فى الشرق الاقصى . وقد بعثوا لى مؤخرا صورة فوتوغرافية للعائلة كلها ، حفيداىّ كبيران الآن ، صبى وصبية .

صمتت العجوز ومسحت فمها بطرف مئزرها وهزت رأسها الصغير الى الاسفل مرارا كنقرات الطير وتنهدت . فهى ايضا ، على ما يبدو ، تجيد الاسترسال بعيدا فى افكارها ، فانصرفت اليها ولم تعد تلاحظ وجود الضيفين . ثم انتبهت على نفسها وتطلعت الى لوبا وقالت لمجرد ان تبدد الصمت ، فليس الصمت لائقا عندما يهتم الآخرون بها :

— هكذا . . . يعيشون — وصمتت من جديد .

كان ايغور جالسا على كرسى قرب العتبة . تجمد على هذا الكرسى دون ان يتحرك ، وظل ينظر الى العجوز وهى تتكلم . ثم سألت لوبا :

— والاثنان الآخران ؟

— لا اعرف شيئا عن فلذتى كبدى . . . لا ادرى هل هما على قيد الحياة



ام انهما قد ماتا من زمان . — وهزت العجوز من جديد رأسها المتحشف ، ولعلها ارادت ان تتمالك نفسها كيلا تنتحب . الا ان الدموع تساقطت على يديها فكفكفتها بطرف المئزر على عجل .

— لا ادرى . فى زمن المجاعة ذهب ولداى ، هام الاخوان على وجهيهما . . . ولا اعرف عنهما الآن شيئا .

وخيم على المنزل صمت ثقيل . . . ولم تتمكن لوبا من توجيه سؤال آخر . فقد اكتنفها العطف على العجوز . التفتت الى ايغور فوجدته جالسا كالتمثال الجامد ينظر طوال الوقت الى الحلاجة . وبدا وجهه من تحت النظارتين متحجرا ايضا . فتألمت لوبا اشد الالم . ونسيت انها من «مديرية الضمان» فاقتربت من العجوز وجلست ازاءها وعانقتها ببساطة على نحو طبيعى صادق ولمست يدها برفق :

— تمهلى يا جدتى ، تمهلى يا حبيبتى ، لا تبكى ، لا داعى للبكاء ، فربما سيعثرون عليهما . يجب البحث عنهما !

كفكفت العجوز دموعها بانصياع وهزت رأسها مرة اخرى .

— ربما يعثرون عليهما . . . شكرا لك . هل انت من عائلة فلاحية ؟ انك متواضعة جدا .

— من عائلة فلاحية طبعا . يجب البحث عن ولديك . . .

نهض ايغور وخرج .

سار فى الدهليز ببطء . ثم توقف قرب الباب الخارجى ولمس ضلعه ، فكان صقيلا باردا . استند بجبهته الى ضلع الباب ، وتجمد دون حراك . ظل واقفا على هذه الحال امدا طويلا ويده تضغط على ضلع الباب حتى تخدرت . يا الهى ليتنى استطيع البكاء ، فقد تخفف الدموع على قليلا فى هذه الدنيا . الا ان عينيه لم تجودا بالدموع ولا مرة واحدة . لا شيء غير تحجر عظام وجنتيه ، واصابعه التى تعصر الى حد التخدر كل ما يقع فى متناول يده . ولا يعينه شيء فى تلك اللحظات العصيبة ، لا التبغ ولا الخمر ، فالنفس تعافهما وتعاف ما سواهما . كانت روحه تتألم على المكشوف ، وتئن متعذبة وكأنها تحترق ببطء فى نار موقدة . اما هو فيكرر مع نفسه متوسلا : «كفاية ! كفاية !» .

سمع ايغور خطوات لوبا داخل المنزل فتنحى عن ضلع الباب وهبط على مدرج المدخل الواطىء . تفقد البستان بخطى سريعة وهو يتطلع الى المنزل ، وكان غارقا من جديد فى تأملاته الجادة . دار حول القلابة ورفس عجلاتها برجله . . . رفع نظارته واخذ يتطلع الى المنزل .

خرجت لوبا . وبادرته قائلة :

— يا الهى ، كم تألمت عليها ! قلبى يكاد يتفطر .

— فلنذهب — امرها ايغور .

استدارت القلابة . . . والقى ايغور نظرة اخيرة على المنزل وزاد من سرعة السيارة .

كانا صامتين . لوبا تفكر بالعجوز ، فانتابها الحزن هى الاخرى .

تركا القرية .

فأوقف ايغور السيارة وانحنى برأسه على المقود واغلق جفونه بشدة . فسألت لوبا مرتعبة :

— ماذا بك يا ايغور ؟

— تمهلى . . . فلتتوقف قليلا — قال بصوت مكبوت — قلبى ، انا ايضا ، يكاد يتفطر . فهى امى ، يا لوبا ، امى .

ندت عن لوبا آهة خافتة .

— كيف ذلك يا ايغور ؟ كيف تستطيع ؟ . .

— الوقت غير مناسب — قال ايغور بغضب تقريبا — امهلينى . . . قريبا ، قريبا جدا .

— اى وقت ؟ هل جننت ؟ ! فلنعد اليها !

— لم يحن الوقت بعد — نهرها ايغور — فليطل شعر رأسى على الاقل . . . لاكون شبيها بالانسان — تحركت السيارة — ارسلت لها حوالة ، ولكنى اخشى ان تأخذها الى مجلس القرية وتسأل من الذى ارسلها . وقد ترفض استلامها . ارجوك ، اذهبى اليها غدا مرة اخرى و . . . قولى لها . . . ابتدعى شيئا ما . فانا الآن . . . لا استطيع الآن . قلبى سينفجر . لا استطيع . هل تفهمينى ؟

— اوقف السيارة — امرته لوبا .

— لماذا ؟

— اوقفها .

اوقف ايغور السيارة .

عانقته لوبا ، كما عانقت العجوز من قبله ، وضغطت رأسه على صدرها برقة ومهارة .

— يا الهى ! لماذا انتم هكذا ؟ ما اعزكم على القلب ! — وانتحبت — ما الذى يجب على ان افعله لكم ؟

تخلص ايغور من عناقها ، وتنحنح عدة مرات ليتخلص مما اختنقت به



حنجرته وانطلق بالسيارة ، وقال بهياج مرح مسعور :

— لا تهتمى يا لوبا ! . . سيكون كل شىء على ما يرام ! اعاهدك ، واقسم بحياتى ، انكما ستعيشان بخير . وانا لا اتكلم عبثا .

كان بترو ينتظرهما فى بستان المنزل . فقالت لوبا :

— يبدو انه قلق على السيارة .

— كيف ؟ فهل انا ؟ . . لقد اعطيته كلمة شرف . . .

نزلت لوبا وايغور من القمرة فاقترب بترو منهما :

— جاء . . . رجلك — قال بلهجته الممطغطة التى اعتاد عليها وكأن الكلمات تخرج منه بالاكراه .

— كوليا ؟ — سألت لوبا بدهشة وامتعاض — حقير ! ماذا يريد ؟ عذبنى ، عذب روحى هذا السافل ! . .

— انا ذاهب لاتعرف عليه — قال ايغور والتفت الى بترو الذى هز رأسه بشكل يكاد لا يلمح .

— ايغور ! — اضطربت لوبا — انه سكران ولا بد . وربما سيتعارك معك ، فلا تذهب اليه يا ايغور ! — همت لوبا باللحاق بايغور الا ان بترو اوقفها وقال :

— لا تخافى . يا ايغور . . .

التفت اليه ايغور .

— هناك ثلاثة آخرون ينتظرون وراء السياج ، خذ بالك .

هز ايغور رأسه ودخل المنزل .

ارادت لوبا ان تتملص بالقوة ، الا ان اخاها امسك بها بشدة .

— سيضربونه حتى الموت ! — كادت لوبا تنتحب — فلماذا تمسك بى يا بترو ! . .

— يضربون من ؟ — سأل بترو بصوته الجهورى الهادىء — ايغور ؟ ضربه صعب . فليتفاهما . . . وعند ذاك لن يأتى كوليا هذا الى هنا مرة اخرى . فليفهم ذلك نهائيا .

— آ — ندت عن كوليا الذى انفتح فمه بابتسامة على مضض . — جاء رب الاسرة الجديد — نهض كوليا من المصطبة — انا ربها القديم — اقترب من ايغور — اريد ان اتكلم معك . . . — توقف قبالة ايغور — م . . ماذا ؟

— لم يكن كوليا سكران الآن ، بل كانت عليه آثار الادمان . فهو شاب فارع القامة ذو مظهر وسيم نسبيا وعينين زرقاوين تنمان عن فطنة وذكاء .

وراح العجوزان يتطلعان مرتعبين الى «رب الاسرة» القديم و«ربها» الجديد .

صمم ايغور على عدم الاطالة فامسك بتلابيب كوليا فى الحال وسحبه من المنزل . . .

اخرجه بصعوبة الى مدرج الباب ودفعه الى اسفل .

سقط كوليا . ولم يكن يتوقع بداية فورية كهذه .

— اذا كنت ، يا جيفة نتنة ، ستأتى مرة اخرى . . . فاعلم بانها هى المرة الاخيرة . — قال ايغور من فوق وهو يهبط على المدرج .

قفز كوليا لينهض على قدميه . . . واخذ يتهدد ويتوعد .

— فلنذهب من هنا ! اتبعنى . . . يا ابن الكلب ! . . اتبعنى ! . .

وخرجا من البستان . سار ايغور فى الامام ، وكوليا خلفه . كان كوليا يهدد ويلوح بيده ، حتى انه دفع ايغور مرة من ظهره ، فالتفت ايغور وهز رأسه مؤنبا .

— امضِ ، امضِ — كرر كوليا بصوت مرتجف .

نهض للقائهما الاشخاص الثلاثة الذين ذكرهم بترو . فقال ايغور بحزم :

— ليس هنا . فلنذهب الى مسافة ابعد !

وذهبوا الى مسافة ابعد . كان ايغور من جديد امام الجميع . فتوقف وقال :

— اسمعوا . فلتسر جنبا الى جنب ، والا فكأنكم تقودوننى للاعدام . الناس ينظرون الينا .

— امضِ ، امضِ — كرر كوليا وهو يضبط اعصابه بالكاد .

ساروا مسافة قليلة اخرى .

وراء السياج العالى الذى يحجبهم عن الشارع بعض الشىء ، لم يتحمل كوليا فقفز لمهاجمة ايغور من الخلف . تنحى ايغور جانبا على عجل ورفس كوليا برجله فسقط هذا بشكل مخجل . الا ان شخصا آخر هجم على ايغور فسدد ايغور الى بطنه ضربة شديدة من قبضته . وخر هذا على عقبيه . اما الآخران فقد ذهلا من هذا التحول فى الموقف . بيد ان كوليا قفز وهرع الى السياج لينتزع منه وتدا .

— يا كلب يا ابن الكلب ! . . — قال كوليا لاهثا من شدة الغضب وانتزع وتدا وهجم على ايغور بشكل مرعب . كان ايغور قد تأكد عمليا ، ولاكثر من مرة ، ان الانسان لا يفقد وعيه كليا . فهو ، على الدوام ، وحتى اذا



كان الوقت قصيرا الى حد مرعب ، يتمكن من التفكير فى النتيجة . ما هى النتيجة ؟ فاذا كان يقتل فقد اراد القتل . ومن النادر ان يقتل الانسان بالصدفة .

وقف ايغور وقد دس يديه فى جيبى بنطاله وهو ينظر الى كوليا . وارتطم كوليا بنظرته الهادئة ، الهادئة بشكل فظيع .

— لن يكفيك الوقت لتضربنى — قال ايغور ، وصمت لحظة ، ثم اضاف بمشاطرة : — يا كوليا .

— بماذا تهددنى ؟ ! بماذا ! ؟ — حاول كوليا ان يضغط عليه — بسكين ؟ هيا اخرج سكينك ! اخرجها !

— الافضل لك ان تقلل من الشرب يا احمق — قال ايغور بلهجة مشاطرة — انتزعت الوتد ولكن يديك ترتجفان . لا تأت الى هذا المنزل بعد الآن .

استدار ايغور وعاد ادراجه . وسمع خطوات لشخص تحرك وراءه . ربما هو كوليا ، ولكنهم اوقفوه :

— اتركه وشأنه . لا تلوث يدك بهذا الخرا . فهو من ابناء المدن «المهذبين» . وسنقفصه فى مكان آخر .

لم يتوقف ايغور ولم يلتفت .

حرث ايغور اول اخدود من التربة فى حياته .

اوقف الجرار وقفز منه الى الارض وسار فى الاخدود العريض المحروث وهو مندهش لنفسه : هل من المعقول ان هذا من عمله ؟ رفس بجزمته كومة من التراب وتمتم ساخرا :

— عجيب . هل هذا من فعلك يا ايغور ؟ انك على هذه الصورة ستصبح من الطليعيين ! — احتوى السهب بنظرته وتنشق عطر الارض الربيعى واغلق عينيه لحظة . وظل واقفا على هذه الهيئة .

فى صباه كان يحب الاستماع الى دوى اعمدة التلغراف . يلصق اذنه الى احد الاعمدة ويغلق عينيه ويستمع . . . وينتابه شعور مؤثر . يتذكر ايغور هذا الشعور دوما ، ويخيل اليه ان هذا الدوى الغريب ليس من ارض البشر . فالشيطان وحده يعرف مصدره . اذا اغلقت عينيك بشدة واصغيت كليا الى هذا الصوت الداخلى الهادر انتقل اليك دوى فى مكان ما بداخلك ، ربما فى رأسك او فى صدرك . شىء مخيف ، ولكنه ممتع . ومما يثير الاستغراب ان الحياة كانت

طويلة متنوعة ، ولكن ما يتذكره منها جيدا قليل جدا : البقرة مانكا ، وحطب البتولا الذى كان يحمله مع امه لاشعال النار فى الفرن . هذه الذكريات العزيزة تعيش بين جوانحه ؛ وعندما تضيق به الدنيا يتذكر قريته البعيدة وغابة البتولا على ضفة النهر ويتذكر النهر نفسه . . . ولا تخفف تلك الذكريات عليه ، فهو يشعر بالاسف الشديد والحزن العميق على ذلك كله ، ويعتصر الالم فؤاده على نحو آخر ، فهو ألم مفعم بالاعتزاز . والآن حيث يهب من التربة المحروثة نسيم الاستقرار وتدفىء اشعة الشمس هامة الانسان ويوسعه ان يوقف ركضه المتواصل فى رحاب الارض لم يكن ايغور يفهم كيف سيتوقف وكيف سيتمتع بالاستقرار . فهل ذلك بالامكان ؟ فى دخيلة نفسه هاجس يقول ان تلك الحقبة ستكون قصيرة فى اغلب الظن .

احتوى ايغور السهب بنظرته من جديد . فهذا بالذات ما سيأسف عليه . وفكر عفويا — «اى انسان مشوه انا ؟ ! لم لا اجيد العيش ؟ يا للشيطان ! يجب ان اعيش . افليست الامور على ما يرام ؟ بلى . فافرح اذن !» — تنفس ايغور الصعداء . وقال :

— يمكن ان يعيش الانسان مائة واربعين عاما . . . فى مثل هذا الهواء — وفى تلك اللحظة فقط شاهد اجمة بتولا على طرف الحقل .

— آه ، يا شجيراتى الحبيبات ! . . تنتصبن واقفات على طرف الحقل . هل طال انتظاركن ؟ تفتحت براعمكن . . . — ولمس برقة جذع بتولا — ما احلى ثيابكن ! انتن كالعرائس الحلوات بثيابكن الخضراء ! فلماذا انتن صامتات ؟ ! حبذا لو صرختن ونديتن ! فلماذا انتن صامتات ؟ واضح انكن جميلات ، ولكن علي ان احرث التربة . سأبقى قريبا منكن ، وسازوركن بين فترة واخرى — ابتعد ايغور قليلا عن اشجار البتولا ، وتلفت حواليه وضحك : — ما اروعهن ! — وذهب الى الجرار .

كان يسير ويتكلم على عادته .

— لو بقيت معكن لن اصبح من طليعيى العمل . هكذا اذن . . . ذلك شىء لا يعنيكن ، اما انا فعلى ان اكون من طليعيى العمل ، من كل بد — وانشد :

العناقيد الحمراء
ريّانة ، ريّانة . . .



صعد الى قمرة الجرار وهو يترنم ، ودفع الى الامام هذه الكتلة الحديدية الضخمة . واصل انشاد الاغنية ، الا انها لم تعد مسموعة بسبب الهدير والصريف .

فى المساء تناول العجوزان ولوبا وايغور طعام العشاء معا ، وراحوا يستمعون الى اغان رقيقة تنبعث من مكبر الصوت .

وفجأة فتح الباب ودخل ضيف غير متوقع ، وهو نفس الشاب الفارع القامة الذى اثار الهرج والمرج فى ليلة المداهمة .

ارتبك ايغور بعض الشىء وندت عنه آهة تعجب وقال :

— ضيف غير متوقع ! اجلس يا فاسيا !

— انا شورا وليس فاسيا — صحح الضيف وابتسم .

— نعم ، شورا ! انني كثير النسيان . خلطت بينك وبين فاسيا ، هل تتذكره ؟ فاسيا الضخم ، رئيس العرفاء . . . — راح ايغور يثرثر ، ولعله كان بحاجة الى تلك الثرثرة لكى يلتقط انفاسه ، فالضيف لم يكن متوقعا بالفعل . واوضح ايغور : — خدمت مع شورا عند احد الجنرالات . اجلس ، يا شورا ، وتعش معنا .

— اجلس ، تفضل — دعته العجوز .

وتزحزح الشيخ على المصطبة ليفسح له المكان .

— تفضل .

— شكرا ، سيارة الاجرة تنتظرنى . اريد ان اقول لك شيئا يا ايغور . اريد ان اعطيك . . .

— اجلس وتعش ! — اصر ايغور — السائق سينتظرك .

— كلا . . . — تطلع شورا الى ساعته — على ان الحق بالقطار . . .

نهض ايغور ، وهو يثرثر طوال الوقت كيلا يتمكن شورا من ذكر ما يسىء . فان ايغور المتمرد على الالفاظ الفارغة التافهة كان يجيد بنفسه احيانا الثرثرة بالكثير حتى يشوش الامور كليا على الآخرين . ويصادف ان يفعل ذلك بسبب الارتباك .

— ماذا ؟ هل تتقابل مع بعض معارفنا ؟ ما احلى تلك الايام الرائعة ! . . انني لا ازال اتذكر تلك الخدمة بخير حتى فى الاحلام . طيب . فلنذهب . ماذا تريد ان تسلمنى ؟ بقى فى السيارة ، اليس كذلك ؟ فلنذهب ، وساستلم ما بعثه الجنرال . وساوقع بالاستلام ، اليس كذلك ؟ هل وصلت الى ناحيتنا بالقطار ام بواسطة اخرى ؟ فلنذهب . . .

وخرجا .

لاذ الشيخ بالصمت . . . وتبادر الى ذهنه الريفى العفيف سؤال واحد :

— كم تبلغ اجرة السيارة من المدينة واليها ؟ كم يكلف الكيلومتر الواحد ؟

— لا ادرى . — اجابت لوبا بذهول — عشرة كوبيكات — لقد توجست شرا من هذا الضيف .

— عشرة كوبيكات ؟ عشرة كوبيكات فى ستة وثلاثين كيلومترا . . . كم الحاصل ؟

— ستة وثلاثون كوبيكا ! — قالت العجوز . فهتف الشيخ :

— انت محاسبة عظيمة العشرة كيلومترات وحدها اجرتها روبل . اما الستة والثلاثون كيلومترا فاجرتها ثلاثة روبلات وستون كوبيكا . والمجموع سبعة روبلات وعشرون كوبيكا للذهاب والاياب اما انا فكنت احيانا اشتغل شهرا كاملا لاحصل على السبعة روبلات والعشرين كوبيكا هذه .

لم تتحمل لوبا فنهضت هى الاخرى .

— ماذا يفعلان هناك ؟ — قالت وخرجت من المنزل .

. . . خرجت الى الدهليز فوجدت بابه مفتوحا على الشارع . وسمعت صوت ايغور وصوت شورا وتجمدت عروقها .

— اخبره . هل فهمت ؟ — قال ايغور بحدة وغضب — تذكر هذا واخبره به .

— ساخبره . ولكنك تعرفه . . .

— اعرفه ، ولكنه هو يعرفنى ايضا . هل استلم النقود ؟

— نعم .

— خلاص . فانا لست مدينا لكم . واذا بحثتم عنى استنفر القرية كلها ضدكم — واطلق ايغور ضحكة مبتورة — انا لا انصحكم بذلك .

— لا تزعل يا ابا المصائب . . . فانا افعل ما امرونى به . قالوا لى اذا كان بحاجة الى نقود اعطه . فخذ .

ربما مد شورا يده الى ايغور بالنقود الجاهزة ، وربما اخذ ايغور النقود وضرب بها وجه شورا بشدة مرة وثانية وثالثة ، وقال بصوت خافت غاضب وباسنان مصطكة :

— يا ابن الكلب . . . يا ابا المخاط . . . هل تريد ان تشترينى ؟

الا ان لوبا ارتطمت بشىء مدو فى الدهليز . وخطت نحو المدرج .

كان شورا واقفا شاحب الوجه ويداه مسبلتان الى جنبيه . . .



اعاد له ايغور النقود وقال بصوت خفيض ابح بعض الشىء :

— خذها . مع السلامة يا شورا . بلغ تحياتى ! هل تتذكر كل ما قلت ؟

— نعم — قال شورا ، والقى على ايغور نظرة اخيرة حاقدة وواعدة . وتوجه نحو السيارة .

— هكذا اذن . — جلس ايغور على المدرج . وتابع السيارة وهى تستدير . . . ثم شيعها بنظراته والتفت الى لوبا .

كانت لوبا واقفة خلفه . همت بالكلام : — ايغور . . . — الا انه قاطعها :

— لا داعى لذلك . تلك هى شؤونى القديمة ، ديونى ، ان صح القول ، ولن يأتى احد الى هنا بعد الآن .

— ايغور ، انا خائفة عليك . — اعترفت لوبا .

— ماذا ؟ — سأل ايغور بدهشة .

— سمعت ان العادة عندكم . . . عندما يبتعد احد عنهم فانهم . . .

— هذا لا يهمك ! — اجابها ايغور بحدة وكرر : — لا يهمك . اجلسى ، ولا تتكلمى عن ذلك بعد الآن اطلاقا ، اجلسى . . . وسحبها من يدها الى الاسفل — لماذا تقفين وراء ظهرى مثل . . . ليس من اللائق الوقوف خلف الظهر ، ليس من التأدب .

جلست لوبا . فسألها ايغور بمرح :

— لماذا انت حزينة يا نور عينى ؟ الافضل ان نغنى !

— يا الهى ، ماذا تقول ؟

لم يستمع ايغور اليها .

— تعالى اعلمك . . . فانا اعرف اغنية جيدة — وانشد ايغور :

العناقيد الحمراء

ريّانة ، ريّانة . . .

— وانا اعرفها ايضا ! — قالت لوبا .

— انشدى اذن ، هيا :

العناقيد . . .

— ايغور — ناشدته لوبا — ارجوك ، لوجه المسيح ، اخبرنى ألن يفعلوا لك شيئا ؟

شد ايغور على اسنانه ولاذ بالصمت .

— لا تغضب ، يا عزيزى ، لماذا غضبت ؟ — وانتحبت لوبا — لم لا تريد ان تفهمنى ؟ انتظرت ، انتظرت سعادتى ويأخذونها منى . . . فهل نزلت اللعنة علي ؟ افلا يحق لى ان افرح فى حياتى ؟ !

عانقها ومسح دموعها براحته .

— هل تثقين بى ؟

— تسألنى هل تثقين ؟ وانت لا تريد ان تقول لى . قل لى ، يا ايغور ، ولن ارتعب . ربما الافضل ان نسافر الى مكان ما . . .

— اوه ! — جأر ايغور — كيف اصبح هنا من الطليعيين ؟ كلا ، بهذه الصورة لن اصبح منهم ابدا . اقول لك صراحة ، يا لوبا ، انا لا اتحمل البكاء . لا اتحمله . فارحمينى يا عزيزتى .

— طيب ، ألن يحدث شيء ؟

— لن يحدث شيء — نطق ايغور بهذه الكلمات بمنتهى الدقة والوضوح — اقسم لك بكل ما تريدين . . . بكل ما هو عزيز على . فلتغن اذن — وانشد هو اولا :

العناقيد الحمراء
ريّانة ، ريّانة

وانشدت لوبا معه ، فتهادى صوتها عذبا متناغما . وهدأت انفعالاتها ، ونسيت كل شيء للحظة من الزمان :

العناقيد الحمراء
ريّانة ، ريّانة
وانا تعبانة ، تعبانة
هجرنى وراح
لفلانة وفلتانة .



القى عليهما بترو من وراء السياج نظرة ساخرة وقال :

— اكتبا لى كلمات الاغنية .

فقالت لوبا بغيظ :

— لماذا شوشت علينا الغناء يا بترو ؟ !

— من الذى جاء اليك ، يا ايغور ؟

— احد الاصدقاء . هل سنحمى الحمام ؟ — سأل ايغور .

— بالطبع . تعال الى ، اريد ان اقول لك . . .

اقترب ايغور من السياج ، فمال بترو عليه وهمس فى اذنه .

— بترو ! — صاحت لوبا — انا اعرف ما تريد ان تفعله . ولكن ليس الآن ، بعد الاستحمام !

— طلبت منه ان يفحص نضّاحة الكابريتة — قال بترو .

— سافحص النضّاحة فقط . . . ربما يجب تنظيفها بالنفخ .

— سأضربكما بتلك النضّاحة ! بعد الاستحمام — قالت لوبا بلهجة صارمة ، ودخلت المنزل . كادت اعصابها تهدأ ، الا ان القلق تسرب الى فؤادها مع ذلك . فهذا القلق شديد ، والنساء المغرمات يعرفنه جيدا !

تسلق ايغور السياج الى جهة بترو وقال :

— البراندى خرا ، وانا افضل الشمبانزى او «ريمى مارتن» .

— جربه اولا !

— تتصور بانى لم اجربه ؟ يعجبنى ، مثلا ، الويسكى مع الصودا . . .

توجها الى الحمام وهما يتحاوران .

ايغور يبذر الآن الحقل الذى حرثه بنفسه . والاصح انه يقود الجرار ، وعلى المبذرة التى يسحبها وقفت امرأة شابة بيدها مجرفة ، وهى تراقب تساقط البذور على التربة بتعاقب وبانسجام .

وصل بترو على قلابته المطولة المتن والمحملة بالبذور . ساعد بترو ايغور فى صب البذور بالمبذرة ، وتحدث معه قليلا .

— هل ستتغدى هنا ام فى البيت ؟

— هنا .

— استطيع ان اوصلك ، فانا ذاهب على كل حال .

— كلا ، احضرت معى طعاما . . . وانت ، لماذا تريد ان تذهب ؟

— السيارة بدأت تعطس . ربما اتسخت النضاحة بالفعل .

ضحكا اذ تذكرا «النضاحة» التى «نفخاها» معا فى الحمام فى المرة السابقة .

وقال بترو :

— عندى ، فى البيت ، نضاحة احتفظ بها من زمان .

— هل نفحص السيارة ؟

— لا داعى لتضييع الوقت . النضاحة هى السبب . فهى تعذبنى من زمان ، ولكن يؤسفنى ان القيها . اما الآن فسوف استبدلها من كل بد .

— انت اعلم . — قال ايغور وصعد الى قمرة الجرار من جديد ، بينما تحركت سيارة بترو لايصال البذور الى المباذر الاخرى .

وزأر الجرار ايضا ، وزحف قدما .

. . . رفع ايغور بصره عن لوحة مؤشرات الجرار وتطلع الى الامام ، فرأى هناك ، ازاء اجمة البتولا على طرف الحقل المحروث ، سيارة «فولغا» وقربها ثلاثة اشخاص . حدق فيهم ايغور من بعيد . . . فعرفهم . ابو الشفايف وبوز البلدوغ وشخص آخر فارع القامة . وفى السيارة لوسين . كانت جالسة على المقعد الامامى وكان باب السيارة مفتوحا . ومع ان ايغور لم ير وجهها فقد عرفها من تنورتها وساقيها . وقف الرجال قرب «الفولغا» فى انتظار الجرار . .

لم يتغير شىء فى العالم . نهار وضاء يلفع الحقل ، والاجمة تنتصب على طرفه غارقة فى الخضرة بعد ان استحمت فى مطر الامس . . . التربة تفوح برائحة الرطوبة المكثفة الثقيلة فتجعل الدوار الخفيف يلم بالرأس . استجمعت الارض كل قواها الربيعية وكل نسغ الحياة استعدادا لميلاد هذه الحياة من جديد . فالغابة الزرقاء البعيدة والسحابة البيضاء الجعداء المطلة عليها والشمس فى قبة السماء ، تلك هى تباشير الحياة القوارة التى لا تبالى بشىء ولا تخشى احدا .

خفف ايغور السرعة قليلا . . . وانحنى ليلتقط مفتاح ربط متوسط الحجم . دسه فى جيب بنطاله ، والقى عليه نظرة ليتأكد من انه غير مرئى من تحت السترة .

وعندما صار الجرار بمحاذاة «الفولغا» اوقفه ايغور واسكت محركه . وقال لمعاونته :

— يا غالا ، اذهبى للغداء .

— بدأنا بالبذار قبل قليل — قالت غالا دون ان تفهمه .



— لا بأس ، اذهبى . اريد ان اتكلم مع هؤلاء الرفاق . . . من اللجنة المركزية للنقابة .

انصرفت غالا متوجهة نحو مبنى الاستراحة الذى لاح من بعيد . ولكنها اخذت تتلفت الى السيارة والى ايغور . . .

واختلس ايغور ايضا النظر الى الحقل . . . فرأى جرارين آخرين يسحبان مبذرتين على الطرف الآخر . ولم يكن هديرهما الرتيب ليشوش سكون النهار الرحب الوضاح .

توجه ايغور الى «الفولغا» .

ابتسم ابو الشفايف ابتسامة خبيثة عندما كان ايغور لا يزال بعيدا عنهم .

— ما اقذره ! — هتف ابو الشفايف باسما — انظرى ، يا لوسين ، ما اقذره ! . .

خرجت لوسين من السيارة والقت نظرة جادة على ايغور القادم ولم تبتسم .

كان ايغور ينقّل قدمين ثقيلتين على التربة المحروثة الهشة . . . وينظر الى الضيوف . . . دون ان يبتسم .

فالشخص الوحيد الذى كان يبتسم هو ابو الشفايف .

— والله لو رأيته فى مكان آخر لما عرفته ! — قال ابو الشفايف ساخرا .

— لن تمسه بسوء ، يا ابا الشفايف ، اليس كذلك ؟ — قالت لوسين فجأة بصوت ابح بعض الشىء والقت على ابى الشفايف نظرة صارمة ، بل غاضبة .

اما ابو الشفايف فكان ، على العكس ، ينتفض من فرحة الانتقام .

— ماذا تقولين . . . يا لوسين ؟ ! اخشى ان يمسنى هو بسوء ! قولى له ان لا يمسنى . والا فسوف يهوى بقبضته الطاهرة على رقبتى اللعينة . . .

— لن تمسه ، يا سافل ! — اشتاطت لوسين غضبا — ستفطس انت قريبا ، فما الداعى لذلك اذن ؟

— صه ! — قال ابو الشفايف ، وتلاشت ابتسامته بلمح البصر . وغدا واضحا من بريق عينيه ان الانتقام العاجز يتفجر فى عروقه ويثور فى داخله . فهذا الانسان اصيب بالصمم الى الابد امام كل كلمة حق . واذا لم يكن هناك من يلسعه فسوف يلسع ذنبه كالافعى . — اسكتى ، والا وضعتك جنبه وارغمتكما على المعانقة ، وتحملت العقوبة بمادة اضافية هى التمثيل بالجثث . فانا لا يهمنى شىء .

— ارجوك — قالت لوسين بعد صمت قصير — لا تمسه . نهايتنا قريبة

على كل حال . فليبق حيا ، وليحرث ارضه ، فهذا يعجبه .

— نهايتنا قريبة ، اما هو فيبقى ليحرث الارض ! اين هى العدالة اذن ؟

— ابتسم ابو الشفايف وكشف عن اسنانه المتعفنة — هل ان جرائمه قليلة ؟

— لقد خرج من اللعبة . . . ولديه شهادة بذلك .

— لم يخرج . — التفت ابو الشفايف من جديد الى ايغور — انه لا يزال يسير .

كان ايغور لا يزال يسير وجزمته تغوص فى التربة الرطبة الهشة .

— حتى مشيته تغيرت ! — قال ابو الشفايف باعجاب — فصارت مشية انسان كادح .

— بروليتارى — قال بوز البلدوغ الذى لا تعوزه البلاهة .

— فلاح . اى بروليتارى هو ؟

— الفلاح بروليتارى ايضا !

— يا بوز البلدوغ ! تخرجت من الصف الرابع الابتدائى ، وعندك منخران . فاقرأ مجلات الاطفال وتنفس بمنخريك . مرحبا ، يا ابا المصائب ! — حياه ابو الشفايف بصوت عال .

— ماذا قالوا غير ذلك ؟ — سألت لوبا مذعورة من والديها العجوزين .

— لا شىء . . . اوضحت لهم كيف يذهبون الى هناك . . .

— الى ايغور ؟

— نعم .

— يا ويلى ! — صرخت لوبا وتركت المنزل راكضة .

فى تلك اللحظة هم بترو بدخول الباحة بقلابته ، فلوحت له لوبا كى يتوقف ولا يدخل .

اوقف بترو السيارة . . .

صعدت لوبا الى القمرة . . . وقالت شيئا لبترو . فتراجعت القلابة واستدارت واسرعت تنهب الدرب هادرة وهى تتقافز على حفره .

— اسرع يا اخى ، يا عزيزى بترو ، اسرع ! يا الهى . قلبى احس رأسا ! — تساقطت الدموع من عينى لوبا فلم تكفكفها ، لانها لم تشعر بها .

— سنلحق بهم — قال بترو — فقد كنت قربه قبل قليل . . .



— كانوا هنا قبل لحظات . . . وسألوا عنه . اما الآن فهم هناك . اسرع ، يا بترو ! . .

اندفع بترو بقلابته العملاقة الحدباء بآخر ما تستطيع من سرعة .

توجهت الجماعة التى كانت واقفة قرب سيارة «القولغا» الى اجمة البتولا . وظلت المرأة فقط قرب السيارة ، ثم دخلتها واغلقت كل ابوابها .

توقفت الجماعة قبل ان تصل الى الاشجار بقليل . وكان واضحا انهم تكلموا عن شىء ما . . . فانفصل اثنان عن الجماعة وعادا الى السيارة ، بينما دخل الاجمة الآخران — ايغور وابو الشفايف — وتعمقا فيها حتى اختفيا عن الانظار .

. . . فى تلك الاثناء لاحت قلابة بترو على الطريق من بعيد . التفت اليها الواقفان قرب «القولغا» فادركا بانها متوجهة نحوهما باقصى السرعة وصاحا باتجاه الاجمة . فهرع من الغابة فى الحال شخص واحد ، هو ابو الشفايف ، وقد خبأ شيئا فى جيبه . شاهد القلابة هو ايضا ، وركض نحو «القولغا» التى انطلقت من مكانها وسارت بسرعة متزايدة . . .

. . . بلغت القلابة الاجمة .

قفزت لوبا من قمرتها وهرعت الى الاشجار . سار ايغور للقائها على مهل ، وهو يمسك بطنه بيده . سار متشبثا باشجار البتولا بيده الاخرى ، فكانت تتبقى على جذوعها بقع حمراء قانية .

عندما رأى بترو ايغور الجريح قفز من جديد الى القلابة وهم باللحاق «بالقولغا» ، الا انها كانت بعيدة . فاخذ يستدير بقلابته .

تلقفت لوبا ايغور من تحت ابطيه .

— سنتلوثين — قال ايغور والالم يعتصره .

— اسكت ، لا تتكلم — حملته لوبا على يديها فهى قوية . وهم ايغور بالاعتراض ، الا ان نوبة جديدة من الالم داهمته فاغلق عينيه .

اسرع اليهما بترو فاخذ ايغور بحذر من يدى اخته وحمله الى القلابة . وهدر بصوت مكبوت :

— لا تخف ، لا تخف . فهذا شىء طفيف . . . الحراب تغرز فى الصدور ومع ذلك يبقى الجرحى على قيد الحياة . بعد اسبوع ستقفز على قدميك . . .

هز ايغور رأسه خائر القوى وتنهد ، فقد خف الألم عليه قليلا . وقال :

— رصاصة .

حدق فيه بترو ، فى وجهه الشاحب الى حد البياض ، فاصطكت اسنانه ولم ينبس ببنت شفة . ولكنه عجل فى سيره .

صعدت لوبا الى القمرة اولا . واخذت ايغور على يديها ، ثم وضعته على ركبتيها ، ووضعت رأسه على صدرها . وتحركت السيارة بحذر .

— اصبر يا عزيزى ايغور . . . سنصل الى المستشفى حالا . . .

— لا تبكى — رجاها ايغور بصوت خافت دون ان يفتح عينيه .

— انا لا ابكى . . .

— تبكين . . . الدموع تسقط على وجهى . لا داعى للبكاء .

— لن ابكى ، لن ابكى . . .

كان بترو يدير المقود بصورة او باخرى كيلا تهتز السيارة . ولكنها تهتز رغم ذلك ، فينكمش وجه ايغور من شدة الالم ، وقد ند عنه انين مرة او مرتين .

— ارجوك يا بترو . . . — قالت لوبا .

— انا احاول جهدى . ولكن لا يجوز التأخر ، فيجب ان نوصله باسرع ما يمكن .

— اوقف السيارة — طلب ايغور .

— لماذا يا ايغور ؟ يجب ان نصل باسرع . . .

— كلا . . . خلاص . احملانى الى الارض .

حملا ايغور ووضعاه فوق صديرى على الارض .

— لوبا — ناداها ايغور وهو يبحث عنها بعينين زائغتين نحو السماء . فقد كان راقدا على ظهره — لوبا . . .

— انا هنا يا حبيبى ، هنا . . .

— النقود . . . — تلفظ ايغور كلماته الاخيرة بصعوبة — فى سترتى . . . اقتسميها مع امى . . . — انزلقت من تحت الجفنين شبه المغلقين دمعة انسابت على اليافوخ وارتعشت معلقة قرب الاذن ثم انفصلت عنها وسقطت على العشب . مات ايغور .

رقد هذا الفلاح الروسى فى سهبه ، ليس بعيدا عن مسقط رأسه . . . رقد وخده الى الارض وكأنه ينصت الى شىء لا يسمعه غيره . فبهذه الصورة كان فى طفولته ينصت الى هدير اعمدة التلغراف . خرت لوبا على صدره وراحت



تجأر بصوت مرعب مكبوت .

وقف بترو ينظر اليهما صامتا والدموع تنهمر من عينيه .

ثم رفع رأسه ومسح دموعه بردن قميصه ، واطلق تنهدة تجلت فيها قوته الهائلة وقال :

— كيف يجوز ذلك ؟ كيف يذهبون دون عقاب ؟ — استدار حول ايغور المسجى على الارض وحول اخته وركض ببدنه الثقيل الى القلابة دون ان يتلفت .

زأرت القلابة وانطلقت عبر السهب مباشرة تاركة الطريق العام . بترو يعرف جيدا كل الطرق والدروب هنا ، فتصور كيف يمكن قطع الطريق على «القولغا» . فهى ستلتف حول الغابة المستطيلة التى تلوح من هنا كخط ازرق مستو . . . وفى تلك الغابة درب تنقل فيه الاخشاب شتاء بجرارات زحافة . وهذا الدرب المغطى باغصان الاشجار اكثر امانا للقلابة حتى من الطريق العام الآن بعد تساقط المطر . الا ان «القولغا» لن تسير على هذا الدرب بالطبع . ثم من يدريهم الى اين يؤدى ذلك الدرب ؟

وهكذا . . . قطع بترو الطريق على «القولغا» .

خرجت القلابة من الغابة قبل ان تمر من هناك تلك السيارة البنية الحسناء . وانضح فى الحال المأزق الذى وقعت فيه ، فلا هى تستطيع العودة من حيث جاءت ، لان القلابة داهمتها من الامام والوقت لا يكفى للدوران ، ولا هى تستطيع المرور على نحو ما ، فالطريق ضيق . . . وليس بوسعها ان تميل جانبا لان الغابة تحاصرها من جهة ، ومن الجهة الاخرى الارض البكر المنقعة بامطار الامس والتى لا تصلح لسيارات المدن . ولم يبق الا محاولة الالتفاف على القلابة باقصى السرعة عبر الارض البكر والخروج من جديد الى الطريق العام . مالت «القولغا» من الطريق الممهد فتعرج مسارها فى الحال وانخفضت سرعتها رغم تشبثها وزئيرها الشديد . وهنا داهمها بترو . لم يتسع الوقت لاحد كى يقفز من «القولغا» . . . فالشاحنة الكادحة ضربتها ، كالثور الهائج ، فى جنبها فقلبتها وربضت فوقها .

نزل بترو من قمرة السيارة . . .

وهرع اليهم ، من جهة الجرارات فى الحقل ، اناس كانوا قد شاهدوا ما حدث . . .

١٩٧٣

## كلمة اخيرة

قال فاسيلى شوكشين : «اننى كاتب قبل كل شىء . . .» . الا ان القراء عرفوه فى البداية ممثلا مدهشا منقطع النظير . عرفوه من باكورة اعماله السينمائية ، دور البطل فى فلم «فيودور الصغير وفيودور الكبير» . وبعد ذلك قدم الى المتفرجين ادوارا سينمائية مؤثرة اكثر رسوخا فى الذاكرة . كتب المؤلف المسرحى السوفييتى الكبير الكسى اربوزوف : «. . . فاسيلى شوكشين اقوى ظاهرة فى فلم «عند البحيرة» . فهو فى الفلم انسان وليس ممثلا ، انه انسان بمنتهى الصدق . . . الانسان الوحيد الذى يمكن تصوره فى مثل هذه الاحوال . فان مدرسة التمثيل الفنى الروسية تبلغ اوجها هنا وتستحيل مقارنتها بأية مدرسة اخرى» . وقد منح شوكشين جائزة الدولة فى الاتحاد السوفييتى تقديرا لادائه الدور الرئيسى فى فلم «عند البحيـــرة» . وبعد ذلـــك ادى ادوارا فى افلام «كيت وكيت» و«العناقيد الحمراء» و«مقاتلون فى سبيل الوطن» . . .

وعلى هذا النحو من الاصالة والنجاح السريع بدأ شوكشين–المخرج . اول فلم اخرجه والف السيناريو له هو فلم «هذا الفتى» الذى جاب شاشات السينما السوفييتية بمسيرة ظافرة وفاز بجائزة «الأسد الذهبى» ، الجائزة الاولى فى مهرجان البندقية السينمائى . وكان عمله الثانى فى الاخراج هو فلم «ابنكم واخوكم» الذى فاز بجائزة الدولة فى جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية . اما افلام «اناس غريبو الاطوار» و«كيت وكيت» و«العناقيد الحمراء» فقد اثبتت وجود مدرسة اخراج اصيلة وخصبة فى الفن السينمائى السوفييتى هى مدرسة فاسيلى شوكشين . ومع ذلك فان شوكشين «كاتب قبل كل شىء» . فقد حظيت اول مجموعة قصصية له «الريفيون» باهتمام كبير من القراء والنقاد . اما المجموعات القصصية التى اعقبتها ، «العجوزان» و«نماذج بشرية» و«مداولات تحت ضوء القمر» ، وروايتا «آل لوبافين» و«جئت لامنحكم الحرية» فقد ثبتت اسس هذا النجاح ووضعت شوكشين بين اكثر الادباء السوفييت موهبة واصالة .

عندما اجرت مجلة «الاستعراض الادبى» المعروفة الصادرة فى موسكو استفتاء فى عام ١٩٧٤ فى موضوع : «افضل ثلاثة نتاجات فنية للعام المنصرم» حصلت مجموعة شوكشين القصصية «العجوزان» على اغلبية «الاصوات» . كان شوكشين مطلعا اوسع اطلاع على الطباع الشعبية وعلى مختلف الاحداث والوقائع والماجريات الحياتية المتشابكة . وبعث شوكشين اسلوب اللمحة الاخلاقية الشائع فى الادب الروسى الكلاسيكى منذ عهد تورغينيف ووشحه بالحس الفكاهى والنباهة الساخرة .

شوكشين متضلع فى حياة الريف على نحو منقطع النظير ، وهو مرتبط بها ارتباطا عضويا بكل جوارحه واحاسيسه ، ولذا فقد كتب عنها قبل كل شىء . الا انه رأى منذ البداية فى قضاياها واحداثها وملابساتها ليس مجرد انعكاس لمصير عالم صغير منعزل يتميز بالطرافة وبآداب المعيشة القروية ، بل وكذلك انعكاسا لعمليات ذات اهمية شعبية عامة وانسانية شاملة . فان نظرة شوكشين الى العالم تستند ليس الى تفوق القرية الاخلاقى على المدينة ، بل الى تفوق الانسان الحقيقى على الابتذال والجشع السافر والموقف الاستهلاكى من الحياة ، ليس الى الحزن على نمط المعيشة القروية الآفلة ، بل الى التألم من الاستهانة اللامبالية بتقاليد الشعب الاخلاقية الازلية .

فارق فاسيلى شوكشين الحياة فى سن مبكرة ، فى الخامسة والاربعين . فقد توفى خريف ١٩٧٤ فى معمعان تصوير فلم «مقاتلون فى سبيل الوطن» حسب رواية ميخائيل شولوخوف التى تحمل نفس العنوان . ومثل شوكشين فى هذا الفلم دور المقاتل الكادح اندرى لوباخين .

بدأ شوكشين طريقه بصعوبة ، ولم تكن حياته سهلة ابدا . فقد ترعرع فى سنوات الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشية ، وعمل فى حقول التعاونيات منذ ان بلغ السادسة عشرة من العمر . وفيما بعد صار عاملا فى مصنع للجرارات . وانهى شوكشين المدرسة قبل المدة المقررة ، وقام بتدريس الادب فيها ، وعمل مديرا لها . . . وفى عام ١٩٥٤ التحق بمعهد السينما فى موسكو وتخرج منه وهو فى الثلاثين من العمر . وربما لا داعى للاسف على هذا التأخير . فان موهبته الثرة قد اغتنت الى حد كبير جدا بالمعرفة العميقة للحياة . كان فنه يرتقى من نتاج الى اخر . وكان لديه ما يقوله للناس ، وكان يعرف كيف يقوم بذلك . اما هم فقد استجابوا له بتفهم متزايد عميق ، وفتحوا له قلوبهم .

فى عام ١٩٧٦ منح فاسيلى شوكشين ، بعد وفاته ، اسمى جائزة فى الادب والفن ، ونعنى جائزة لينين .

## محتويات


الريفيون . . . . . ٣
الشيخ والصبى . . . . . ١٣
الذئاب . . . . . ٢٥
تأملات . . . . . ٣٢
الابله . . . . . ٤٠
العجوزان . . . . . ٥١
قلب الام . . . . . ٦٢
الجزمة . . . . . ٧٨
الجنرال مالافيكين . . . . . ٨٧
فى الخريف . . . . . ٩٧
العناقيد الحمراء . . . . . ١٠٦
كلمة اخيرة . . . . . ١٩٠